

رَتَابِي الْإِيمَانِ وَالْبَحَاوِي « 2 »

مَدَامُ الْحَجَّ الْوَصْلَانَا
بِنَبِيِّ الْعِزِّ وَالْفَضْلَانَا
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مِنْ كَلَامِ

الْإِمَامِ الْعَلَامَةِ سَيِّدِي الْمُصْطَفَى الْبَحَاوِي الْحَسَنِيِّ حَفِظَ اللَّهُ

إِعْدَادَ وَتَقْدِيرَ
الْحَاجِّ مُحَمَّدٍ قَاسِمِي السَّجَامَانِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدارج الوصل بنبي العدل والفضل

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

الطبعة الأولى

1442هـ - 2021م

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو ترجمته أو نسخه بأي شكل من الأشكال سواء على شبكة الأنترنت، أو أي نظام إلكتروني آخر دون إذن خطي من المؤلف والناشر

الإيداع القانوني 2021MO0026

ردمك 978-9920-974-1-7-2



فكاس - المغرب

زنقة بوغافر (حي نرجس) أ.

الرمز البريدي: 30070 - (فاس - المغرب).

هاتف: 00212668147439 - واتساب: 00212621920071

بريد إلكتروني: benatiabachir@gmail.com

أُمالي الإمام البحياوي

«2»

مدارج الوصل بنبي العدل والفضل

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

الشيخ الإمام سيدي المصطفى البحياوي الحسني
حفظه الله

إعداد

الحاج محمد قاسمي السجلماسي



مَشُورَاتُ الْبَشِيرِ بِنِعْطِيَّةٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقدمة المدارج

الحمد لله رب العالمين، الملك الحق المبين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، الصادق الوعد الأمين، والرضا عن آله وصحبه وتُباعه إلى يوم الدين، وبعد:

فها هو ذا بين يديك أخي القارئ الكريم، كتاب «مدارج الوصل بنبي العدل والفضل صلى الله عليه وسلم» للعلَم المجدد، والناصح المرشد، والمربي المسدد، مفخرة العلماء، وأنموذج الصلحاء، وقدوة السالكين النجباء، سيدي ومولاي المصطفى البحياوي رفع الله قدره، ويسر أمره، وآدام عليه نعمة العافية، وحفظه من كل سوء وبلية.

لقد يسر الله الكريم جمعه وتنسيقه، وجاء بفضل الله مُصَلِّياً⁽¹⁾ رتبةً ونسبةً، ومنهاجاً وموضوعاً.

فهو المصلي رتبةً ونسبةً من جهتين:

الجهة الأولى: من حيث كونه التالي في الصدور بعد الكتاب الأول، في سياق مشروع تنزيل التراث الزاخر للشيخ سيدي مصطفى حفظه الله من مسموع إلى مطبوع، ليسهل تداوله ويعم نفعه، وهو ما نطمح إن شاء الله أن يستمر ويتنشر.

والجهة الأخرى: من حيث كونه يُبين عن معاني ثاني أقطاب شهادة الإسلام، وأقصد به قول المؤمن: «أشهد أن محمد رسول الله»، ذلك أن القطب المجلي لها هو قولنا: «أشهد أن لا إله إلا الله»، فجاء بتقدير الله موضوع الإصدار الأول «المُجلّي»، من سلسلة الأُمالي المباركة، ينتسب لعلم الإيمان، وهو الجزء الأول

(1) المصلي تالي السابق، يقال: صلى الفرس إذا جاء مُصلياً، وهو الذي يتلو السابق، والسابق يسمى المجلي.

من روض الإلهيات، المعنون ب «مدخل إلى علم العقائد من خلال مقطع الحمد وحيثيته من أم الكتاب وفتحته»، وجاء الإصدار الثاني «المُصَلِّي»، في بيان ما يتضمنه الشطر الثاني من كلمة التوحيد المباركة من جليل المعاني ونفيس الحُكم. وهو (أي كتاب المدارج) المُصَلِّي من حيث الموضوع والمنهاج والغاية: ذلك أن موضوعه صلاة، إذ جاءت كل محاوره صلاة على رسول الله ﷺ، تعريفاً بقدره، ونشراً لعرف مكارمه، وبياناً لما فُضِّلَ به وما خَصَّه به ربه الكريم. ومنهاجه تقريب وتحبيب، وتذكير وتقرير، عبر تصريف القول فيما يتصل بالجناب الشريف، فمرة تكون قبلته بيان عظيم فضل الله علينا بهذا النبي الكريم، ومرة يولي شطر الإرشاد إلى جليل قدره، وعظيم حقه، وتجلية مرجع ذلك وسنده، ومرة يقف متدبراً فيما خُصَّ به من الخَلْقِ القويم، والخُلُقِ العظيم، إلى غير ذلك من صنوف الآيات وجلي البينات.

وغايته تجديد العهد، وتأكيده الصلة بسيدنا رسول الله ﷺ، بما أنها مصدر الهدى وسبيل الرشاد في الحياة الدنيا، وضمان السلامة والفوز بالرضوان يوم القيامة، اللهم اجعلنا من خير المصلين والمسلمين عليه، ومن خير المقربين منه والورادين عليه، ومن أخيار المحبين فيه والمحبوبين لديه، وفرحنا به في عرصات القيامة، اللهم واجعل صلاتنا عليه مدداً نعتمد عليه للوصول بك والفوز بكل منحة، وسلامنا عليه سنداً نحتمي به من شر كل فتنة.

أخي القارئ الكريم، ستجد هذا السفر المبارك ينتظم بين دفتيه أنواراً وأسراراً، وكلها حديث موصول بالذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم وعلى آله، يروم تشنيف أذن السامع، وتنوير بصر القارئ والمطالع، بأنوار من الأخبار، وعيون من الآثار، المتصلة بسيد الأخيار والأبرار، صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى آله ما تعاقب الليل والنهار.

وقد كانت في جملتها مرتبطة بذكريات أحداث السيرة الفاضلة، وهي وإن لم ترد في فصول مرتبة ومباحث مبوبة، فإنها جاءت مدارج تتغىي الوصل من بابه، وتعرض للفضل بدخول رحابه.

ففي أول أدوار المدارج نجد أحاديث للتعريف بصاحب المقام المنيف، صلى الله عليه وسلم وعلى آله، بدأ بلب اللباب من آيات الكتاب المعرّفة بالنبي الأواب، مشفوعة بتأملات في مقامات حديث القرآن الكريم عن صاحب الخلق العظيم، موصولة بالتذكير بمولده الشريف، وما صاحبه من آيات مصدّقة لسابق وعد الله بختم النبوة والرسالة، بنبي الختم وكتاب الوحي المُتَمِّم، وما رافقه من إشارات مشوّقة، تبعث الأمل في القلوب المتشوقة، لظهور النور وعموم السرور، إلى الحديث عن البعثة والتكليف، إلى الحديث عن أسماءه المعرّفة وألقابه الواصفة، وصلاً بالذكر المصنّفى باصطفاء المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

إلى نور السراج في حديث الإسراء والمعراج، وكون حدثه العظيم ثالث الأطوار الكبرى في حياة صاحب الشريعة اليسرى.

ومنه إلى أحاديث متصلة بهجرة المصطفى ﷺ من مكة أرض البعثة والميلاد، إلى طابة أرض النصر والجهاد، وفيها دروس الاعتبار المستفادة من المواقف اللاحبة والأحداث المصاحبة، والدوافع المُرتّبة والمنافع المُترّبة، ومنها أن النبي ﷺ انتقل من بناء الساجد إلى بناء المساجد، وتأسيس دولة الإسلام على أسس الدوام ودعائم القوام ومناهج التمام، وصلاً بكونها (أي الهجرة) ألم المحاصر المُتحمّل، وأمل الصابر المتجمل، وأفق الواثق المؤمّل.

ولكون القرآن العظيم رسالة نبي الختم، فقد خُصّت قصارُ مُفَصِّلِهِ التي كان بها التفضيل في رسالة التكميل، ببعض التدبر المختصر، وهو الدور الرابع من المدارج.

وختم الكتاب بأحاديث عذاب، عن جملة من أخلاقه وفضائله، خصوصاً ما تعلق منها بعشرته وسيرته مع نساء أُمته، في بيان لمعالم التكريم للمرأة في دين الإسلام من خلال سيرة النبي الكريم ﷺ، وكيف جلى القرآن الكريم ذلك في آياته وبيناته.

أسأل الله الكريم أن يكتب لنا القبول، ويسر لنا سبيل الوصول، ويجنبنا الزلل والفضول، بفضلله ومَنِّه، إنه صاحب القوة والحول، كما أرغب إليه أن يجعل ثواب هذا الجهد في صحائف أبائي وأشياخي، وأن يعفو عن كل زلة وخطاء، كما أرتجيه ﷻ أن يصحح لي به الانتساب، ويفتح لي به الباب، لولوج رحاب القرب، والفوز بعطايا الوهب، وما ذلك على الله بعزيز.

وكتب هذه المقدمة على استحياء، المتشرف بالخدمة من غير ادعاء، والمفتقر إلى الله في كل نعمة مع دوام الرجاء، الحاج محمد قاسمي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وأحبابه وجميع المسلمين. بمدينة طنجة، ليلة الرابع عشر من شعبان سنة واحد وأربعين وأربعمائة وألف من هجرة المصطفى ﷺ.

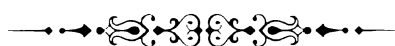
والحمد لله في البدء والختام.



تقديم الكتاب

لفضيلة الإمام سيدي مصطفى البُحياوي حفظه الله

بين يدي المدارج



استهلال التحميد لله ذي الجلال والتمجيد للنبي زكي الخلال

الحمد لله مُنزل الكتاب، وميسر الأسباب، وفتاح الباب لمنح الاقتراب، ورافع الحجاب لمن أناب، مدبر الأمر بالسنن والأسباب، القائل في محكم الكتاب: ﴿سَنَّةَ مَنْ فَدَا رُسُلَنَا فَبَلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 77].
له الحمد في الآخرة والأولى، أعطى كل شيء خلقه وأفاء الأولى، وهو العلي الأعلى، وعد المتقين بمعيته وصحبته، ومنّ عليهم برضاه ومحبته، وخصهم بسر حفظه وعنايته.

وصلاة ربي وسلامه على عين الولاية، المحفوظ بالعناية، والمشمول بالرعاية حتى الغاية، السيد العبد الأواب، الذي أنطقه الحق بقوله في الكتاب: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]، فجعله رحمته المهداة، ونعمته المسداة، وأيده فكان سيد المتدبرين، ومثال المذكرين صلى الله عليه وعلى آله وصحابه وقرابته، ثماره وظلاله، المستنئين بآثار سيرته، وأنوار شرعته، فحازوا شرف الانتساب، وزادوا عليه فضل الاكتساب، حتى غدوا بذلك مصابيح الظلام وأئمة الأنام، رضي الله عنهم وأرضاهم، وعمن تولاهم ولف لفهم، وانتحي صفهم واقتفى أثرهم، واستن بهداهم إلى يوم التمام، وبعد:

فمع النبي المفضل ﷺ، فيما خصه به ذو الفضل العظيم ﷺ، وامتن عليه به في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 112].

معه ﷺ في ثاني أمالي الفقير إليه، تلکم التي تروم آمله أن يفتح لها، ويؤذن في العروج إلى حيث الكلم الطيب، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10] ومن أطيب من الطيب المطيب صلى الله عليه وسلم وعلى آله؟؟
وإنها لتطلع أن توري شرارة حب محيية للوصل، إذ لا وصل بغير حب، وهو بحسبه يكون، وسبيلها في ذلك تجلية جانب من محاسن المصطفى ﷺ، وإحسانه الذي صفا ووفى.

ذلك أن أيامه ﷺ، سواء منها ما كان في زمن الإرهاص، أوفي زمن الاختصاص، عامرة بما يلفت نظر مطالع السيرة العطرة، ومتدبر الكتاب - المصدر الأعظم لسيرة النبي المكرم - إلى كمال رسول الله العلي وجماله السني، ويقرأ من أي الثناء العطر في صدر المنزل فرقانا، بل مع ثانيته نصًا، أعني قوله تعالى: ﴿نَّ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1]، قسما إلهيا جليلا، على كمال عدله، وجمال فضله بما أنه نبي الختم الأتم الْمُتَمَّم ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

لقد جاء مبعوث العناية ﷺ على قَدَر، والعوالم العاقلة تنتظر، بل تفتقر إلى عدل يصونها بالعتق المخلص من آسار الاستعباد، وإلى فضل يصونها بالرفق المخصص بأنوار الاستمداد، وهو هو صلى الله عليه وسلم ذلكم المؤهل لهذا الفيض المزدوج عدلا وفضلا، وصدق فيه قول ربه منبها على منشاء المكارم في صدره: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

لقد جاء ﷺ ليُعَلِّمَ أهل الأرض أخلاق أهل السماء، بمقتضى ثلاثي الصَّون، الذي يتوقف عليه صلاح الكون، أعني: الحكمة المبصِّرة، والعصمة المطهِّرة، والرحمة المسعدة بالأنوار الواعدة.

وإننا لنعتبر هذا التناول السَّيِّري مِنَّا لأنموذج الكمال الأحمدى، صلاة مرفوعة بإذن الله باعثة، ومدخل صدق للانتساب إليه، وسر فتح لصلة ترى مصحوبة ببشرى، «أولاكم بي يوم القيامة أكثركم عليَّ صلاة».

فاللهم ألهمنا من الصلاة عليه ما يلج بنا رياض المحبين، ونحظى فيه بالروح واليقين، آمين.

وليعلم المحب المنتسب، أن مرفوع الذكر لا يوضع، وأن موصول المدد لا يقطع، وأن هذا المُتحدَّث عنه بعنوان الصلاة، مُصلَّى عليه في الملا الأعلى؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: 56]، ومُسلِّماً عليه منه في الأخيار المُصطفين: ﴿فَلِلْحَمْدِ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: 61].

وما عليك أخي المطالع أو المستمع، إلا أن تفتح فؤادك لتنزلات الصلة بحسن التلقي وشهود الإصغاء، وتطهير العين من كدر الغين وموانع الرؤية، والتي منها أن يُستكثر على جوهرة الكمال، ما قيل فيها أو يقال، من صلوات رجال لا يصدهم صدود ولا جدال.

فاللهم ارفع شأنه، وقد فعلت: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4].

وضع من شأنه، وقد فعلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 3].

والحمد لله موصولاً كما أمراً مباركاً طيباً يستنزل الدَّرراً
ثم الصلاة على محمد وعلى أصحابه أبداً... ندى عطرا.

هذا، وقد جُمع مَبْثُوث هذه الصلوات وكان مُفْرَقاً، ووضع هكذا فجاء بحمد الله غايةً نسقا، أجزل الله المثوبة لِحَبْنَا الجامع الناسق، وجعله له من الشواهد الصوادق، على أنه متعلق بالعاشق.

جاء ليكون درجا لعارج إلى تلکم المعارج، بابتغاء الوسيلة بنبي العدل والفضيلة، فاللهم زده شرفا وقدرًا، وأعل مقامه، وعظم شأنه. وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

مسك التتمة في هذه المقدمة، أن يستحضر قارئ هذه السطور جملة أمور، منها:

- أن العدل أصل المكارم، وأن الفضل ثمرته ودليله، فلا يتصور فضل بدون عدل.

- وأن وجهة التحدث عن كمال عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمال فضله، هي تشويق المطالع المنتسب إليه، وتغذية رصيد حبه في قلبه الذي بين جنبيه.

- وأن الغاية المرومة، هي تيسير الاقتراب، والشعور بسعادة الانتساب إلى هذا الجنب، والانخراط في زمرة المحبين المنتجبين، الذين يصدق فيهم قول القائل:

وليس أرغد من ذي الحب مرتشفاً من كوثر الشوق أنفاس الورود
كأنه من وُدّه ودَّ لو يُمدُّ جسر مواطئ المحبين خاب الصدود

والحمد لله بدءاً وختاماً.

المحور الأول: أحاديث التعريف بصاحب المقام المنيف
صلى الله عليه وسلم وعلى آله:

1. اللباب من حديث الكتاب تعريفاً بالنبي الأواب ﷺ
2. تأملات في مقامات حديث القرآن الكريم عن صاحب
الخلق العظيم.
3. أنوار الذكرى بحدث مولد صاحب الشريعة اليسرى
4. مع حديث التعريف بصاحب المقام المنيف.
5. نبي المتاب صلى الله عليه وسلم وعلى آله.
6. الذكر المصطفى باصطفاء المصطفى.

1) الباب من حديث الكتاب

تعريفًا بالنبي الأواب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽¹⁾:

فاتحة التبتل والتوسل:

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض بالحق، وأرسل رسله بالدين الصدق، وجعل مسك ختامهم سيدنا محمد ﷺ بدر التمام، المبعوث بشريعة الختام ومنهج القوام، نبي الملحمة والرحمة، من أقسم الله ﷻ بعمره، تنويعها بقدره، وتنبيهها على جليل أمره، فقال تعالى في سورة الحجر: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، فأكرم به من عمر كل أطواره أنوار، تغشتها أسرار، عمر جهاد وتضحية، وجلاد وتزكية، من أجل كشف الظلماء، وإزاحة الغمّاء، وتنوير الأفئدة، بالأنوار المسعدة، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فصل اللهم وسلم على صاحب هذا العمر العامر، والنور الظاهر، والسر الباهر، صلاة وسلاما يرفعانه إلى مقام الوسيلة، ويكونان لنا بفضلِكَ يا مولانا من موجبات الشفاعة في يوم لا ينفع فيه مال ولا حيلة، اللهم أنت النور فنور بصائرنا بنور معرفتك، وأنت الحق فسدّد خطانا على صراط هدايتك، وأنت الغني فأغننا بك عن سواك، عز جارك، وجل ثناؤك، وتبارك اسمك.

وبعد:

فأحيي المطالع والسامع تحية مباركة طيبة من هذه الرياض المباركة، رياض الذكر، رياض الجنة، وأرفع وإياكم، نائبا عنكم بألستكم وبلغه قلوبكم، شرائف

(1) كان هذا الموضوع في أصله محاضرة لفضيلة الشيخ سيدي مصطفى حفظه الله بمسجد سورية بمدينة طنجة، بمناسبة المولد النبوي الشريف، دعي لها الأئمة والخطباء والوعاظ بجهة طنجة تطوان.

صلوات الله، ونوامي بركات الله، إلى حضرة رسول الله، مشفوعة بالترضي عن الصحب والآل، الثمرات والظلال، ومن أحبهم وانتحى سربهم، وأبغض من أبغضهم وسبهم إلى يوم المآل.

التذكير بأيام رسول الله بقصد البقاء على خط الصبر والشكر:

معشر الأحبة دعيت للحديث فيكم عن صاحب الذكرى سيدنا رسول الله ﷺ، بمناسبة يوم من أيامه العظيمة، يوم هو من أيام الله التي أمرنا بأن نذكرها وأن نذكر بها، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 7]، وفاقد الشيء لا يعطيه، فإذا لم يذكر هذا اليوم، لا يمكن أن يُذكر به غيره، وأيام الله أيام منن وأيام محن، في الأولى نفحات، وفي الثانية لفحات، والمستفيد من نفحاتها ولفحاتها هم المنعوتون بالصفيتين في ذيل الآيتين: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، يستفيد من اللفحات في أيام المحن صبرا على لأوائها، ومن النفحات في أيام المنن شكرا لألائها، ولا شك عند ناظر في السيرة بإبصار، أن أيام رسول الله الكبرى، وأطواره العظمى، من أيام الله، بل هي الأصل الأجل، والنموذج الأكمل.

ومن تلکم الأيام العظيمة، يوم مولده الشريف صلى الله عليه وعلى آله، ويوم مبعثه، ثم يوم معراج «الإسراء والمعراج»، ثم يوم مهاجره ونجاته مما بيته المكرة به أو له، ويوم مغادرته ﷺ، وأيام مغازيه، ...

وكأنني بكم تتساءلون عن هذه الأيام العظمى التي تشكل معالم السيرة هل خصت فعلا بما ينبغي لمقامها توضيحا وبيانا؟ الجواب نعم، فبالنسبة لليوم الأول، يوم ميلاد النبي، فقد أحصى الحافظ المحدث سيدي محمد بن عبد الحي الكتاني رحمه الله في كتاب له خصصه - مرتبا على حروف المعجم - بمصنفات التعريف بالمولد النبوي الشريف وسماه: «التأليف المولدية في التعريف بما أفرد

بالتصنيف في المولد الشريف»، فزادت على المئة والعشرين مصنفًا، كلها تحمل عنوان المولد، وفيها كل المتخصصين في العلوم الشرعية وعلوم الآلة، صنفوا في مولد رسول الله ﷺ، ومن أقدمهم - حتى لا يقول القائل: إن بداية المولد كانت مع أبي العباس العزفي السبتي في القرن السابع - أبداً، لقد كان قبل ذلك كما ذكر صاحب التوايف المولدية ونص عليه أن أسبقهم ابن أبي عاصم الشيباني، وكان في القرن الثالث الهجري، وأثبت غيره من دارسي السيرة أنه كان قبله مؤلف عظيم معروف من مؤرخي الإسلام اسمه محمد بن عمر الواقدي، الذي كانت وفاته في السنة السابعة بعد المئتين، وعليه فإن البداية في هذا كانت متقدمة جداً.

رمز الاسم الشريف «محمد» إلى الأطوار الكبرى في عُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

قد كنت قديماً نظرت في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فألفتها منبهة على هذه الأطوار بحروف اسم النبي الشريف، الذي هو اسم خاص عرف به في الكتاب «محمد»، فألفت هذه الرمزية تعين الطلبة على استحضار هذه الأيام السنية العلية، وكل حرف منها يرمز إلى الحدث، وإلى محله، وإلى حال النبي الذي كان فيه ساعة حدوثه.

فالميم الأولى ميم مولده، أين ولد؟ بمكة، كيف ولد ﷺ؟ ولد مختوناً كما عند بعض أهل العلم، وهذا صححه جمع، منهم الشيخ الحافظ مغلطاي ونص عليه ودافع عنه ورد قول القائلين بغير ذلك.

والحاء ترمز إلى يوم الوحي إليه بحراء متحنناً ﷺ.

والميم المشددة، الميم الأولى ميم مسراه إلى بيت المقدس، ومعرجه إلى سدره المنتهى.

والميم الثانية هي ميم مهاجره من المسجد الحرام بمكة، إلى المدينة محتفىً به متلقىً من جمهور الأنصار والمهاجرين.

إلى الدال الذي يرمز ليوم وداعه ودفنه بداره.

فكانت كلها ترمز إلى الحدث والمحل والحال عند إنعام النظر وإعمال الفكر في مثل هذه المسائل، ولا حاجة للسؤال هنا هل هي مقصودة أم غير مقصودة، فالذي كَمَلَهُ الله، وجعله المعجزة الخاتمة وآيته العظمى الدالة عليه، من أي جهة نظرت إليه دَلَّكَ على الكمال الذي بعث به وله، فلا تستكثر على ربنا أن يكون قد جعل كل شيء من رسول الله دالاً على الكمال والتمام.

وأسماء رسول الله كأسماء مرسله، وكأسماء الرسالة، أعلام لا تُلغى الصفة، بمعنى انه وإن كانت أعلاماً محضة خالصة، فإن الصفة ملحوظة فيها أولاً وأخيراً، فمحمد علم على رسول الله، وهو دال على معنى الذي حُمِّد، أي بولغ في حمده بسبب وجود المحامد المكثرة فيه، فهو إمام المكارم وبعث لإتمامها، وهو أحمد، أي أحمد الخلق لربهم وأعبدتهم له، وهو أول العابدين وأول الحامدين، وبذلك استحق ذلكم المقام من رب العالمين، يقول النبي ﷺ معرفاً بنفسه فيما رواه البخاري ومسلم: «لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي لا نبي بعدي»، وليس العدد هنا للحصر، وإنما للتنبيه على أمهات ومعاهد سائر الأسماء الأخرى، التي نَيَّفَتْ على الألف عند بعضهم، منها أسماء صفات، ويرحم الله القائل:

أخلاي من يحصي مديح محمد	وفي مدحه كتب من الله تقرأ
أيمدح من أثنى الإله بنفسه	عليه فكيف المدح من بعد ينشأ

من دواعي القول:

أعود للقول في حديث متواضع مقتضب، عن المصطفى المجتبي المنتخب، وليس لمثلي أن يقول في مثله ولو بالحكاية، وأعتذر في البدء قبل الختم وأنا أحس بالتحير، لأن المقام مقام تحير بحق، المتحدّث عنه آية الله الكبرى سيد الأنبياء، خاتمهم ومسكهم الأذفر عليه السلام، والمتحدّث عنه ربه ﷻ في كلماته التامة الخاتمة، فأني إذا لوضيع أن يرتقي لمقام شبه الوفاء، ويتحدث عن السيد الأتم الأكمل، سيد خلق الله بإطلاق، من خلال كتاب هو سيد كتب الله باتفاق، يقول الله في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلَحٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانِهَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 26]، فيه إشارة إلى بلوغ الغاية في السعة والعمق، والغنى وصدق المعنى، وكمال المبنى نظماً وحكماً ورسمًا، فتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

وإنما الذي فتح الباب لنا ولأمثالنا، وجرّأنا على القول في مثل هذا المقام العلي، هو ما قاله القائل - وكثيراً ما نتمثل به - وجوزي خيراً، لأن هذه الآيات نشعر بها نحن، يقول:

لعمر أبيك ما نسب المعلى إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعي الهشيم

نحن الهشيم، كيف نتحدث عن صاحب المقام العظيم صلى الله عليه وعلى آله، ولكن ليغفر الله لنا هذا اللون من ألوان الجرأة على مقامه، لأننا بين أن نقول وبين أن نصمت، وفي الصمت علة العلل، خصوصاً في أزمنة وبيئات حصلت منها وفيها فتن تمثلت في ظهور نابتة تطعن على رسول الله ﷺ، تثير الشبهات، وتعتدي على الحرمات، بل وجد فينا شبه خوارج يتوقّون حتى هذه الأشياء التي نقولها، ونحاول من خلالها إحياء ذكرى سيدنا رسول الله، لما نراه فيها من الوفاء المطلوب تجاهه ﷺ.

إحياء ذكرى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اهتداء واقتداء:

الإحياء لذكرى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينبغي أن يكون، لأنه من جهة فرح بفضل الله، ومن جهة أخرى وفاء وشكر، والتحدث بالنعمة شكر: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]، وحديثنا بأجل أنعم الله في أعظم يوم من أيام الله.

ثم إن الحديث عن رسول الله اقتداء بكتاب الله، فما من سورة من الكتاب إلا وفيها ذكر له ﷺ، بل إن في كثير منها النص على ذكر الأيام، أو ذكرها بالظرف المودن بالأيام، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: 30]، معناه اذكر إذ؛ أي الزمن الذي حصل فيه المكر، تذكير بما مضى.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: 28]، اذكر يوم صرفنا الجن ليستمعوا منك فيبلغوا قومهم أنك أنت نبي إليهم، يوم بعثته لسوانا من عالم غير مرئي، والنفر تسعة من جن نصيبين⁽¹⁾.

ومن التاريخ لأيام رسول الله قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَرَّحَبَتٍ ثُمَّ لَئِنَّكُمْ لَفِي حَمِيمٍ﴾ [التوبة: 25]، ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفْيِ الْجُمُعِ﴾ [الأنفال: 41].

أما الشاء على رسول الله ﷺ في الكتاب، فحدث ولا حرج؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 45 - 46]، أوصاف خمسة ترجع إليها سائر الكمالات في التعريف برسول الله ﷺ.

والتعريف بحقه ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَفِّرُوهُ وَت_Sَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 9]، على الخلاف في المرجع لهذه المذكرات، وأن كلا بحسبه.

(1) نصيبين منطقة قريبة من مكة.

في بيان أن مرجع المقاصد من درس السيرة هو التعرف والتشرف والتشوف؛

من مقاصد السيرة التعرف على الكمال النبوي، والتعريف به - وهو الأول - ،
تَعْرِفُ النبي ﷺ وتُعَرِّفُ به ثانياً، ثم تغذي محبتك بالقرب من كماله، إذ النفس
مفطورة على حب الكمال وحب الإفضال، وهي تنجذب إلى من أحسن إليها،
وتتشوف إلى الارتقاء في مراتب الحسن والكمال إذا عرفت، والنبي جمع
الجهتين فهو حقيق بالمحبتين صلى الله عليه وعلى آله.

كما أنه من بين المقاصد المحرّرة للسيرة المطهرة، الوقوف على هذا الكمال
الأحمدي، وهذا يؤهلك لدرء مطاعن الخبثاء، والوقوف في وجه الشبهات
التي تُضَخُّ عبر قنوات الصحف بالسنة الساخرين والجاهلين والسفهاء، الذين
يعترضون على كل كمال، ويأبى الله إلا أن يكون الطعن في وليه مدخلا لإكرامه
بتكثير أتباعه، قالوا: ما طبعت، وما ترجمت المصاحف إلى الدنماركية إلا
بعد أن بدت رسوم أولئك السفهاء، فترجم القرآن وترجمت السيرة إلى اللغة
الدنماركية، ولم يكن ذلك من قبل، وترجمت بعض كتب الإسلام لذلك، فأبى
الله إلا أن يكون هذا اللون من ألوان الإذاية مدخلا لثناء عظيم عليه ﷺ، لأن
هناك الذين يصلون والذين يؤذون؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الَّذِينَ يُوذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ
عَذَابًا مُهِينًا] [الأحزاب: 56-57].

والكفة راجحة بربنا وملائكته، والمنتسبون لجنابه من جموع أهل الإيمان، الله
وملائكته يصلون على النبي، والذين آمنوا يصلون عليه ويسلمون استجابة للأمر
الإلهي العلي، وفي المقابل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُوذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، الذين يُصَلُّونَ
والذين يؤذون، قمة نور وقمة ظلمة، هؤلاء في مقابلة أولئك.

أيام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر وتذكير:

وبقدر ما تحيي الأمة فيها بمناسبة ذكرى نبيها ومرور أيامه، بمثل هذه الوقفات المُعرّفة - وهي بالمناسبة ليست بدعا؛ أي ليست بدع ضلالة ينتهي صاحبها إلى الضياع - بل نسيانها هو الذي يوذّن بالضياع والضلّال، أما محييها بالشرط فهو من الذاكرين، لأن النبي ﷺ وذكره هو البوصلة الهادية؛ قال تعالى: ﴿فَدَاوُدَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا﴾ [الطلاق: 10]، على البذل، وإن كان المتبادر هو العطف كما قيل، ﴿ذِكْرًا رَسُولًا﴾، عَرَّضَهُ بِالْبَدَلِ، أنزل الله إليكم ذكرا وأرسل رسولا، وهناك نكتة بلاغية، وهي أن النبي ﷺ وكأنه منزل لذلك، فحذف العلة هنا، على المعهود في خطاب القرآن، لأن الذكر تمثل فيه، «كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»، الذكر تمثل فيه، فهو ﷺ بَلَّغَهُ فَبَلَّغَهُ، وَتَحَمَّلَهُ، وَمِثَّلَهُ، فكان المقبلُ عليه منجذب إليه بِخُلُقِهِ قبل نطقه، وهذا شرط النجاح في الدعوة، قال قائلهم:

وإنك إذا ما تأتي ما أنت أمرٌ به تُلفٍ من إياه تأمرُ آت

أيام رسول الله ﷺ أيام ذكر وذكرى، والوقوف عندها من أهل البصائر وأهل الصبر والشكر، اعتراف بفضل الله، ووقوف للاقتباس، اقتباس الذكر عن الله، وفرح بهذا الفضل والمنة، وتغذية للروح بمحبة هذا النبي الكريم، لأن الروح تموت إذا جفت من ندى المحبة وضاع منها ضياء المعرفة.

في بيان تلازم المحبة والاتباع وأنهما فرع عن المعرفة:

تعلمون أن محبة رسول الله ﷺ فرع عن المعرفة به، وهي مددٌ للاتباع، لأن الحب يعين على القرب، إذا كنت تحب شخصا تعاونك تلك المحبة لكي تقترب منه، ويقولون: «فيض الأشواق يهون المشاق»، فالاتباع فرع المعرفة، وبينهما المحبة، فهي تتولد عن التعرف، وتكون معينة ومدداً لهذا اللون من ألوان التطابق مع المثل الكامل.

اللهم صَلِّ على سيدنا محمد في الأوَّلِين، وصَلِّ عليه في الآخرين، وصل عليه في الملاِّ الأعلى إلى يوم الدين.

نَشْرُ عَرَفِ مكارمه، والوقوف على دلائل نبوءته، وما يشهد لقوله ﷺ الصادق: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 125]، هذا الظرف المؤهل لهذا الكمال، الله أعلم بهذا اللون من ألوان التأهيل الذي وضعه في صدر النبي النبيل، صلى الله عليه وعلى آله.

تعدد علوم السيرة وامتدادها :

الحديث عن نبينا ﷺ يريد أن يسلط الضوء على المساحات الشاسعة لسيرته، اسمها علوم السيرة، فهي علم وليست مصاحبة أو مقالات فقط، بل إنها علوم تشمل أموراً كثيرة أفردت بالتصنيف، نذكر منها سبعة علوم على الأقل:

- شمائل رسول الله.

- دلائل نبوءة رسول الله.

- بشائر رسول الله.

- خصائص رسول الله.

- مغازي رسول الله.

- ثمار رسول الله⁽¹⁾.

- حقوق رسول الله.

وكلها أفردت بالتصنيف من الأئمة، والمطالع للسيرة لا بد أن يمر بهذه الرياض، خاصة من يريد أن يتعمق فيها، لأنها بهذه الشساعة تصور للمساحة

(1) المقصود بها صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وغراسه المباركة.

الهائلة لهذه العلوم التي تتناول رسول الله ﷺ بالحديث⁽¹⁾، تتحدث عنه، عن ميلاده، وعن منشئه في زمن الإرهاص وزمن الاختصاص على حد سواء، الإرهاص قبل النبوة، والاختصاص بعد النبوة، ولذلك لا تجد كتابا من كتب السيرة ذات الاعتبار إلا وبدأ بالحديث عن أخبار العرب والأنساب، ووضع الجزيرة وأحوال العرب وجوارهم، لبيان من أين خرج هذا النور في مكة، وكيف كانت الأوضاع، وكأنها تصف قول الله ﷻ: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شِبَا حُفْرَةٍ مِنَ الْبَارِ فَأَنْفَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: 103]، هكذا اختزل القرآن أحوال الناس قبل رسول الله، ليتبين لهم مقدار المنة برسول الله ﷺ، خصوصا على هؤلاء الأميين وعلى غيرهم من المتبعين له.

وجمع بعضهم علوم السيرة بحسب الذي وقفت عليه في نظم وقد قومته قليلا حتى ينتفع به الطالب، وفيه:

علم بأيام النبي أحواله	من مولد له إلى ارتحاله
مع بحوث توطئة أرهصت	ثم تمة بختم خصصت
شمائل دلائل بشارات	خصائص مغازي ثم ثمرات
وربما أفرد بعض المندرج	لموجب كمريد للمتتهج.

بمعنى أنه قد أفرد بعض مباحثها لداع دعا لذلك، بل إن بعض هذه الأحداث قد تجيء عنوانا لكلها، ويجيء بعضها وهو جزئي عنوانا لكلي، وذلك نحو ما سبق من تصنيف في السيرة بقلم موسى بن عقبة، الذي قال فيه مالك بأنه أجل من كتب في السير أو قريبا من هذه المقالة، أصح المغازي كتاب موسى بن عقبة، وقال الإمام الشافعي: «ليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن

(1) وسيأتي بعض البيان في الفقرة التي تتحدث عن كون القرآن الكريم هو أجل مصادر السيرة.

عقبة، مع صغره وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره»، وكتابه عنوانه: «مغازي رسول الله»، ذلك أنه أورد فيه الحديث عن أحداث السيرة التي انتهت إليه بإسناده وصحت عنده، ثم ذكر السياقات فلم يكتف بذكر السير، فعنون بجزء لجملة مباحث السيرة.

وهذا كتاب «الدرر في اختصار المغازي والسير» للإمام ابن عبد البر، وهو عنوان يصلح أن يكون جزئيا ولكن محتوياته ومشمولاته متكثرة.

سر تكثر العلوم المتصلة بالمصطفى عليه الصلاة والسلام :

لماذا تكثرت هذه العلوم في الحديث عن رسول الله ﷺ؟ الجواب أن ذلك لعظمته ﷺ، تلكم العظمة التي لا يتصورها إلا من جاد الله عليه - بعد معرفة - بذوق معنى النبوة التي حار فيها العارفون.

هذه الصلة من الله لنبيه ومن النبي لربه، النبي كان نبيا من جهة استقبال النبوة من ربه، وكان رسولا من جهة أخرى إلينا، فهو بالصلة التي من الله نبي، وبالصلة التي بيننا وبين ربنا فهو رسول إلينا ﷺ.

فكونه النبي ﷺ، وكونه خاتما، ورسالته عامة، وأفضل الأنبياء بإطلاق، اقتضى أن تتكثر هذه البحوث في سيرته، المساحة واسعة والزوايا المبتوثة فيها أوسع، والمنظور إليه من هذه المساحة متنوع ومتكثر؛ الشرائع غير الدلائل، وإن أدرج بعضهم بعضها فيها، أدخل الشرائع في الدلائل - وهو ممكن - لكن الأفراد أنسب بالنظر إلى جهة تقدير البحث لتكثر الموضوعات، ومن جهة أخرى للتنبيه على هذا اللون من ألوان الجامع الذي يلاحظ في العلوم الدقيقة.

معنى الشمائل:

الشمائل جمع شميلة، والشميلة تعني هنا الأخلاق الجميلة التي تطرد في موصوفها، هذا معنى الشمول، ففيها ملاحظة الشمول، وتطرد، فلا يقال للخلق خُلِقَ إلا إذا كان مطردا في صاحبه، لا يقال جواد أو كريم أو حلِيم، إلا إذا كان الحلم فيه صفة يجري عليها، ولذلك قال أهل العلم: الخلق - هكذا بالضم - كالخلق في الظاهر، الخلق في الباطن كالخلق في الظاهر، فإذا كان خلقك ثابت يميزك، فالخلق في نفسك في باطنها ثابت يميزها.

إذا كان الإنسان لا يمكن أن يتحول عن صورته الخلقية، فإن صفته الخلقية إذا استحکمت يتأبى عليه الانتقال عنها، قال قائل:

ومن يتخذ خيما سوى خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيمها
والخيم: الخلق المتمكن.

وقد أدخل بعض أهل العلم ضمن الشمائل حتى صفة رسول الله الخلقية، مع أنها ليست من قبيل الخلق، وإنما من قبيل الخلق، قال لأن ما اجتمع في صفة النبي ﷺ الظاهرة، عُدَّ من دلائل نبوئه، فكماله الظاهر صلى الله عليه وعلى آله عنوان رسالته، وسطيته واعتداله وكماله وجماله، كل ذلك عناوين صادقة وعلامات مصدقة له ولرسالته.

صفة النبي الكريم كما هي في حديث أم معبد:

هذا التناسب في خلقته المباركة، وكونه وسيما قسيما كما جاء في صفة أم معبد، وهي صحابية كأخيها حُبِش، وترجم لها الحافظ في الإصابة: فقال عُرِفَتْ بكنيتها «أم معبد» واسمها عاتكة بنت خالد، وفد عليها النبي ﷺ، ونزل بخيمتها حين كان في طريق هجرته. وقد صحح حديث صفتها الحاكم في المستدرک، فقالت حين قال لها زوجها وقد وجد البيت قد تغير، والحائل

صارت حلوبا⁽¹⁾، قال: صِفِي لي الرجل يا أم معبد، قالت: «رأيت رجلا ظاهر الوضاعة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبهُ ثجلة، ولم تزريه صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته سهل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثائة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأجملهم من قريب، حلوا المنطق فصلا، لا نزر ولا هذر، كأن منطقهم خرزات نظم يتحدرون، ربعة لا تشناه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إن قال: سمعوا لقوله، وإن أمرتبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند». قال أبو معبد: هذا والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا.

وذكر أهل العلم أن تلکم الشاة استمرت على ذلك إلى أوائل الخلافة وهي تُدِرُّ اللبن بمسح ضرعها من رسول الله ﷺ.

ومن كلام أم معبد رضي الله عنها يظهر للناظر أنه كان ﷺ تام الكمال والجمال والجلال، يقول البوصيري رحمه الله:

ستر الحسن منه بالحسن فاعجب لجميل له الجمال وقاء.

في أن صفة رسل الله صلى الله عليه وسلم وشمائله من دلائل نبوته :

شمائل رسول الله ﷺ دليل كمال فيه، لأنه ﷺ قمة كمال في كل كمال، قال أهل العلم: الكمال المعتبر في البشر له جوانب أربعة، اثنان أصليان واثنان فرعيان، كمال الخلق الظاهر، وكمال الخلق، ثم ما يترتب على هذا الأخير من ثمرات تتمثل في فضائل الأقوال وفضائل الأعمال، وكلها بالنسبة إليه جلائل.

(1) الحائل: الشاة التي لم يسبق أن ضربت وما هي حامل.

ولذلك كان هو ﷺ في جملته، وفيما يتصل به كلا وجزءاً، آية تنبئ عن صدقه وطهره، يقول ناظره⁽¹⁾:

لو لم تكن فيه آية مبينة لكان مظهره ينبيك بالخبر

وهذا الذي استدل به سيدنا عبد الله بن سلام - اليهودي الذي أسلم -، وكان ضمن من استقبلهم من جموع أهل المدينة يقول هو: «وما إن استُشِبُّته ونظرت إليه حتى علمت أنه ليس بوجه كذاب»، من مجرد نظر، رفعه ليدل به على أن دينه دين الاعتدال، والاعتدال سر الكمال وسر الجمال، وسطيته ﷺ حتى في ذاته الشريفة من دلائل نبوءته.

متعلق الاقتداء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

النبي ﷺ كان قمة كمال في كل كمال، ولذلك نُصِبَ منارة للاقتداء؛ قال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، ولم يخصص، وعندنا الحذف يؤذن بعموم التعلق، حذف المتعلق يؤذن بعموم التعلق، ومنها: لقد كان لكم في جهاد رسول الله وفي مغازيه، وكان لكم في خلقه، لقد كان لكم في جوده، كل شيء تقدره في ذلك المحذوف، وقد قيل بأن أسرار القرآن في حذفه⁽²⁾، فيه كله، في رسول الله، وإنما خُصَّ من ذلك ما لا ينبغي الاقتداء به فيه، كخصوصياته وما هو من قبيل الذاتي فيه، لأنه غير مكتسب ولا يتأتى، خصوصاً ما هو خاص به من الأحكام، فيما حُرِّمَ عليه وأُحِلَّ لنا، وما أُحِلَّ له وحُرِّمَ علينا، وكذلك ما كان من قوَّته وخاص هيئته ﷺ، كان يمشي تكفوفاً كأنما ينحط من صلب، دليل قوة، كان يمشي على رؤوس الأصابع لا تكلفاً، النبي ﷺ

(1) القائل هو سيدنا عبد الله بن رواحة.

(2) كثيراً ما يردد الإمام سيدي مصطفى هذه الكلمة: «أسرار القرآن في حروفه، ورسوفه، ووقوفه، وحذوفه».

هكذا كان يمشي، وكان الصحابة يَصِفُونَهُ، كأنما ينحط من منحدر، ومثل هذه الأشياء لا يُقْتَدَى به فيها، إمش على هيأتك، كل شيء من خصوصياته لا يجوز تكلف الاقتداء به فيه.

مرجع الكمال في أخلاق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

الكمالات في خلقه الشريف ﷺ مراجعها كلها في الكتاب، ولذلك أmana عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ وعلى آله، رأت أن إجابتها ستكلفها العناء، فأحالت على البحر فقالت: «كان خلقه القرآن»، وفي رواية خارج الصحيح، وقرأت ﴿فَدَا بَلَاحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1]، معناه هذه صفات رسول الله، ثم قالت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: 58]، ثم تلت ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]، معناه أن كل صفة مُدَحَّت في الكتاب فهي في نبي الله في كمالها وتامها ﷺ، فهو قمة كمال في كل كمال.

ومراجع الكمال كما يقول أهل العلم ترجع إلى صفات يمكن حصرها في عشر أو سبع، وهذا العدد نسبي، وإلا فهذه أشياء لا تنحصر، فالكمالات أحياناً يكون بعضها مركبا من بسائط فيختزل فيها، حين نقول: حلم رسول الله ﷺ، فإنه يدل على راحة عقل، وعلى ثبات فؤاد، لأن غير الحليم متعجل طائش، سريع الإستجابة، سريع الموقف، لا يتأنى، حلم رسول الله ﷺ لا يستفزه طيش طائش، بل لا يزيده جهل الجاهل إلا حلما، وهذه من صفاته في الكتب المبشرة به من قبله، وقد اخْتَبَر بها ﷺ من عارف بها، ليتثبت أنه النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله⁽¹⁾.

(1) في إشارة إلى حديث الرجل الذي تعمد استفزاز النبي ﷺ من أجل اختبار حلمه، لأنه من خبره في الكتب المبشرة به «لا يزيده جهل الجاهل إلا حلما».

رجاحة عقله من صفات كماله، حتى كأنه ﷺ يرى النهايات في البدايات، بما أوتي من صدق الفراسة ورجاحة العقل، وقوة العزم وشدة اليقين، وهو ما يرمز إليه حديث الشق، شق صدره الشريف ﷺ وهو في بني سعد مُسترضعاً، وفيه أنه لما شق صدره جبريل وغسله واستخرج منه العُلقة السوداء، قال لمن معه: زنه فوزنه، قال فزنه برجل، قال: فوزنه، قال: فزنه بعشرة، فرجح، قال: فزنه بأمته، فرجح قلبه ﷺ على كل ذلك، وهذا من الأحاديث الدالة على كماله ورجحانه على الكل، أي عقل كان عقل رسول الله وأي قلب هو قلبه؟!.

في بيان أن القرآن الكريم هو أجل مصادر السيرة على اختلاف موضوعاتها؛

لا بد لدارس علوم السيرة من أن يقف عندها واحدة واحدة، فيتعرف على الخصائص والمصنفات فيها، وعلى الدلائل ومصنفاتها، وعن المراد بالبشائر وما أُلِف في ذلك، والمقصود بالثمرات وهي ظلال رسول الله وأثره في صحبه، ولذلك نجد في كتب السيرة إضافة تاريخ الخلفاء، لأنهم ظل رسول الله وامتداده، وثمرات جهاده ﷺ الشاهدة على أنه فعلاً نبياً، فدخلوا في موضوعات السيرة، لبيان كيف حول هذه الأمة، بواسطة القرآن من حال إلى حال، فرق ما بين القمة والسفح، بل قل ما بين السماء والأرض... من وضعية «الشِّفَا» إلى أعلى وأكمل مراتب الشِّفاء.

وكل ذلك مسطور ضمن مصدر السيرة العلي الذي هو هذا الكتاب، الذي أرخ لأحداثها في غير ما موضع منه، حيث تحدث إلى رسول الله، وحدثنا عنه، ففيه قسم الحديث إلى رسول الله، وقسم الحديث عنه إلينا، وهذا في مقام ثانٍ. أنظر ذلك مثلاً في سور تخصصت في السيرة كسورة الأحزاب وسورة الفتح وسورة الحجرات وسورة التحريم والطلاق، وغيرها كالمسد الضحى...

في بيان أن الرحمة هي جذر شجرة المكارم المحمدية :

قال ﷺ واصفا جذر شجرة المكارم المحمدية في قوله في سورة آل عمران: ﴿وَمَا رَحْمَةُ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ بَطْطًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ بَاغْفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]، فمدحه بالرحمة، وبين أثرها ومجلاها، وما به مدد استمرارها في الثلاثيات المنصوصة، عفوا واستغفارا واستشارة.

وسياق هذه الآية لو نظرت إليه - ودائما ننبه عند النظر إلى آيات الكتاب إلى ضرورة استحضر النظم والرصف والسياق - أين نزلت هذه الآية؟ في معرض الحديث عما بُلي به المسلمون من هزيمة في أحد، قال تعالى قبلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجُمُعِ إِتْمَانًا أَسْرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بِعَظْمٍ مَّا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَاقَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155]، يوم أحد، يوم انهزم الصحابة عن رسول الله ﷺ ثم عادوا إليه، بعد أن حصلت مناداتهم، عادوا إليه بعد أن انهزموا عنه، فكان من المنتظر - على لغة الصحافة - من المرتقب أن النبي سيغضب لتخليهم عن حق الله، وعن حقه هو صلى الله عليه وعلى آله في النصر، على الأقل يسألهم، لماذا فررتم؟ هل ظهرت لكم المغانم؟ هل خفتم من المغارم؟ والنصرة حق الله، لأنه هو الذي ألزمهم بهذا الحق، فهذا ما كانوا ينتظرونه، كان منتظرا أن يغضب ﷺ، فما حصل منه شيء من ذلك، ولا مجرد خشونة لفظ، رغم أن الجناية تبدو عظيمة؛ إنه التولي عن رسول الله لينكشف، ويصبح عرضة لسهام العدو، وفي السيرة سُجِّلَ أنه حصلت في هذه الغزاة عجائب من الوقائع والدقائق، ومع ذلك يقول الله مُعْظَمًا الرحمة التي أودعها هو «أي الله» هذا الصدر المصطفى، هو جل في علاه الذي منح، وهو الذي مدح، ومن فضله عليك أن خلق ونسب إليك، كما يقول سيدي ابن عطاء الله.

المتفضل عليك هو الله، ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 112]، واقرأ القرآن يفسر لك بعضه بعضا.

أسرار البلاغة في تعظيم الرحمة النبوية :

التعظيم بالصلة:

قال تعالى: ﴿بِمَا رَحْمَةٍ﴾ «ما» وقُدِّمت لتكون في محل الصلة، وأدباً مع القرآن لا نقول زائدة، لأن زيادتها لا اعتبارات إعرابية، بمعنى أنها لا تمنع عمل الباء في الجر، «فبرحمة»، عمل الباء سارٍ في معمولها، ولذلك تسمى فاصلة وليست كافة، وما دامت كذلك، فهي في حكم ما دخوله كخروجه في إعرابه، أما من حيث البيان والبلاغة فهي سر البلاغة.

﴿بِمَا رَحْمَةٍ﴾، والتقدير فبرحمة مَّا، ما أعظمها، كما يقال فيها صلة مؤكدة لما حالت بينه وبين عامله، بين حرف الجر وبين معموله، و«ما» هذه تجيء أحيانا متأخرة في المحل كما في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [سورة ص: 23] كما تجيء متقدمة: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحَ نَدِيمٌ﴾ [المؤمنون: 40].

و«ما» في آيتنا جاءت للترفع، رَفَعَ شأن الرحمة النبوية إلى ذروة الكمال، وقد تجيء بلاغةً للتشنيع، كما في قول الله تعالى: ﴿بِمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ فُلُونَا غُلْفًا بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 154]، فيه تشنيع على هذا اللون من ألوان النقض المتمثل في فطيع الفعال، وسيء الأقوال، وقبيح الخصال.

الإعظام بالاستفهام:

ذهب الرازي رحمه الله - من علماء التفسير - إلى أنها باقية على أسلوب الاستفهام الذي يراد به الإعظام، «فبأي رحمة؟» أي رحمة هذه التي صيرتك

على هذه الصورة من اللين الذي هو كمال الخلق؟! فعظم الرحمة بالصلة، أو بالاستفهام الاستعظامي، والإنسان حينما يريد أن يعظم شيئاً لا يدري كيف يحصر صفته، يقول ما أعظمه، ما أدراك، وأسلوب القرآن على هذا السنن، ﴿وَمَا أَذْرِيكَ مَا عَلَيَّوْنَ﴾ [المطففين: 19]، ﴿وَمَا أَذْرِيكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: 12]، ﴿وَمَا أَذْرِيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 2]، ﴿وَمَا أَذْرِيكَ مَا هِيَّةُ﴾ [القارعة: 9]، ما أدراك، من أعلمك.

التعظيم بالتنوين:

عظمها بالصلة أو بالاستفهام، وعظمها بتنوين التعظيم، إذ التنوين هنا في «رحمة» غير تنوين التنكير، أي رحمة، والتنوين ينوب عن الصفة كما يقول أهل العلم، «رحمة» ناب التنوين عن إضافة لفظ «عظيمة»، نائب عن الصفة ومثله في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص: 19]، «رجل»، أي شهم، يسعى، رجل شهم صالح ناصح ذو نجدة.

اللين ثمرة الرحمة النبوية:

﴿بِمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]، قال بعض أهل العلم بأن اللين عبارة عن خلق رسول الله كله، لِيْنُ الْخُلُقِ، فهذه ثمرة الرحمة المودعة في صدره، مَجْلَاهَا ومظهرها لين، ثم يَبَيِّنُ القرآن جوانب هذا اللين، لو كنت على غير هذه الصفة من لين الجنب والخطاب، فكنت «فظاً» - والفظاظة خشونة في العبارة، وفي الموقف، وفي السلوك، في المظهر والأثر، فهي لا تكون في القول فقط، تكون في القول وغيره، وغلظ القلب أصل لهذه الفظاظة، يؤصلها ويرسخها - لو كنت في باطنك غليظ القلب، لو كان قلبك قاسٍ جافٍ، ليس فيه رقة ولا نداوة، وكان في لسانك وموقفك وأعمالك فظاظة، لما حصل الذي حصل من اجتماع القلوب من حولك، وغالبا ما تنسب الفظاظة إلى القلب،

والصحيح في استعمال العرب أنها تعم، أي الخشونة في الموقف قولاً وفعلًا، وأصلها قسوة قلب.

القرآن يمدح النبي ﷺ بكونه طاهر القلب من أي غلظة، وطاهر اللسان من أي فضاضة.

عموم الرفق المحمدي:

والحديث هنا عن القلب المحمدي الذي خلا من أي قسوة أو شبهها، وأودع هذه الرحمة الكاملة، «باطن رسول الله»، وعن ظاهره وأفعاله وأقواله التي طبعت بطابع اللين الذي عنوانه الرفق، رفق رسول الله خلق يجمع المكارم كلها، وشواهد ذلك ودلائله في سيرته أكثر من يحيط بها الناظر والمتحدث.

رفق رسول الله ﷺ، خصوصاً بالضعفاء لأنهم أهل الرفق، رفته بالطفل، بالمرأة، بالرفيق، بالرفيق، بالعبد، بالمخالف حتى يفيء، بل يرفق بالعدو أحياناً كما يقع في الأسر، ﷺ، ينظر إلى أسرى بدر - وهم أئمة الكفر الذين كانوا يعادونه ويؤذونه - ويقول: عجباً إلى أناس يقادون إلى الجنة بالسلاسل، أنا أقودكم إلى ربكم وأنتم تأتون بالسلاسل، تكلفوني بأن أصل بكم لهذا اللون من ألوان الإكراه، أنتم ألزمتوني لوثاقكم، لأنه لا إكراه في الدين أصلاً.

رفق رسول الله يظهر في جوانب كثيرة، أنا أذكر منها نزراً يسيراً حتى نشنف أسماعنا ونداوي قلوبنا⁽¹⁾ بسيرته صلى الله عليه وعلى آله.

ارتحلني ولدي فكرهت أن أزعه:

كان يداعب الطفل لأنه كان يعرف حاجته إلى اللعب وحاجته إلى المرح، فيستجيب لذلك حتى ولو كان بصدد عبادة سنية، مرةً كان النبي ﷺ يصلي، وهو

(1) إذا كان مطلق ذكر أخبار الصالحين دواء للقلوب، فكيف بأخبار وآثار سيد الصالحين وإمام المتقين،

ساجد ركب ظهره أحد ريحانتيه، فأطال حتى ظن أصحابه أنه قبض ﷺ، فلما رفع النبي ﷺ وأتم الصلاة اعتذر، قال: ارتحلني ولدي، وكنت أنا في موضع أحب الإطالة فيه وهو محل القرب، فصادف الهوى من جهتين، الرفق بالطفولة، بريحانته، والقرب من ربه، فكرهت أن أزعجه، وهذا شيء كثير علينا، في زمن ما فيه سوى المنع والدفع والقطع⁽¹⁾، لا أريد أن أزعج الولد الريحانة، النبي صلى الله عليه يقولها للصحابة، لِمَ؟ ليعلمهم وليزكيهم، لأنه بعث للتزكية، ومن التزكية تخليصهم من هذه الأكدار المظلمة، التي تدخل الباطن فتغزوه وتكسره.

ما أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك:

قال أعرابي للنبي ﷺ وقد رآه يُقبَّل أحد أبنائه: أَتُقبَّلون أولادكم؟ أنا عندي عشرة ما قبَّلتُهم، قال النبي ﷺ: «ما أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك»، يعني أنا عاجز كلاً عن أن أعالجك، تصل لهذه الدرجة من القسوة، عشرة ولم تقبل أحدا منهم؟!.

رفقه بالنساء:

ورفقه بالنساء إلى حد الاستيلاء، «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم»، هن أسيرات عندكم، وفي العبارة ترقيق من النبي ﷺ، ويقول صلى الله عليه وعلى آله: «خيركم خيركم لأهله»، أي لزوجته التي أهلت المكان وعمرته بوجودها معك، وقال ﷺ: «رفقا بالقوارير»، والقوارير لا تقال إلا للأوعية الزجاجية الرقيقة التي تحمل الطيب، وليس للأوعية الخشنة، رفقا بالقوارير، قارورة العطر.

(1) مما ينبغي التنبيه إليه في الباب أنه لا ينبغي أن يقصد الواحد هذا اللون من ألوان المواقف، فيصلي حيث يمكن أن يلهيه أولاده، أو يصحبهم إلى المسجد من غير تأديب سابق، لأنه ليس أحدنا في صلاته كرسول الله في صلاته، وليس أولادنا كأولاد رسول الله، نعم إذا حصل وتعرض أحد لمثل ذلك الموقف فعليه أن يصبر ويتأدب في المقام، الذي هو مقام الصلة بالله.

لا بد في التدين من مراعاة أشواق الدين وعلائق الطين؛

وفي رفع النبي ﷺ النساء والطيب إلى مقام العبادة بقوة، كما يفهمه المتدبر في قوله ﷺ: «حب إلي الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»، في هذا الرفع سر لطيف، قال أحد مشايخنا وكأنه سئل، ما هذه الثلاثة هكذا تبدو وكأنها غير منسجمة؟ نساء، طيب، صلاة!، قال: هذه للشم، وهذه للضم، والمهم ما ثم، وهذا تطلع للكمال في قمة تألقه، النبي يقول لك: ارتق إلى فوق، ولكنه ﷺ بما أنه جاء في هذه الدنيا ليجعلها في خدمة الآخرة، ويجعل المؤمنين هنا ينظرون إلى الجهتين، فخيركم من لم يدع آخرته لدنياءه، ولا دنياءه لآخرته، وإنما نظر إليهما كل بحسبها وقدرها.

نحن روح وطين، قد عجن جسدنا من طين لازب وحمأ مسنون، فالتقى الحمأ المسنون والروح المصون، فكان هذا الكائن المُشَرَّف، فلا بد من اعتبار الجهتين، أشواق تلك الروح وعلائق تلك الطينة، علائق الطين وأشواق الدين، وهذه المهمة الصعبة من المزاجية والمعادلة هي التي ابْتُعِثَ إليها رسول الله ﷺ ليحمل أمته على هذا الكمال الذي إذا أضعناه أضعنا سر الاعتدال، ونبتت فينا نوابت بين مادية ملحدة، ومدنية جاحدة؛ جاحدة لهذا اللون من ألوان التوازن، والأخذ بلسان الميزان.

ذوق اللبيب لاستفهام التعجيب؛

﴿بِمَا رَحْمَةٍ﴾، استفهام عن الرحمة التي في قلب رسول الله، الله يقول: أية رحمة هذه التي في قلبك!، أيتعجب الواضع مما وضع؟ ليس ذلك، بل هو مدح، ولكن فيه تعجيب لنا، الاستفهام إذا لم نجد له محملاً بالنسبة لما نُسِبَ إليه، نحمله على إرادة تعجيب الغير.

تكمال التكليف بالجلال والتخليق بالفضائل:

﴿لَيْتَ لَهُمْ﴾، ولين رسول الله ﷺ الذي بدا رفيقا منه في كل حين، مع الطفل؛ «يا أبا عمير ما فعل النغير؟» عصفورك ماذا فعل؟، النبي ﷺ بعث بجلال الرحمن، ينزل لمستوى الطفل فيقول له على صيغة التريق، عصفورك البارحة ماذا فعل؟ وكان يلعب بعصفور، «يا أبا عمير ما فعل النغير؟».

وكانت أمنا عائشة رضي الله عنها وقد أحبت أن تنظر إلى الأحباش وهم يلعبون بالحراب، فكانت تضرب على كتف رسول الله ﷺ ضربا خفيفا لينزل قليلا كي ترى هذا اللون من ألوان الفروسية، وكان يطاوعها ﷺ فينزل، لكي ترى هي هذه الأعراس.

في أن الصدق وحفظ العهد ورعاية السابقة من تمام الرفق:

رفق رسول الله ﷺ وعلى آله له تجليات، من أي جهة نظرت إليه ذلك عليه، لينه حتى مع المخالف، حفظه للعهد، حلمه بالجاهل، رحمته بالضعيف، أمانته في كل ما يصدر منه؛ وهناك صفات هي جزء تدخل ضمن مركب، أو هي مركب تدرج تحتها بسائط من الكمال.

في إحدى المغازي - غزوة بدر -، النبي ﷺ استثنى أحد الأعداء من القتل؛ وهو أبو البحتري بن هشام، وكان من أعداء رسول الله ﷺ، إلا أنه كان أكفهم أذى عنه ﷺ، كان من السبعة أو الخمسة الذين نقضوا الصحيفة، صحيفة العار التي تضمنت قرار الحصار، حيث قررت قريش فيه حصار بني هاشم؛ النبي وآله، وكتبت بنودها على أستار الكعبة، كان ممن سارع إلى نقضها أبو البحتري ابن هشام، فقال النبي ﷺ: «من لقيه» - وقد جاء لقتاله مع الذين يريدون القتال - قال: «من لقيه فلا يقتله»، وتذكر سابقته، وقال بأن حسن العهد من الإيمان.

وهو ﷺ يرى أسرى بدر معقودين مأسورين، فيقول: «لو كان مطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء التني⁽¹⁾، أو في هؤلاء الأسارى لأطلقتهم له، أو لجعلتهم له»، من هذا المَطْعِم؟ مات مشركاً، ولكنه أدخل النبي في جواره في يوم الطائف، لما أجمعت قريش على ألا يدخل، قال من يجيرني، فأدخله المطعم بن عدي في جواره، حفظ النبي له ذلك، فقال حسن العهد من الإيمان. وحفظ الصحابة ذلك وفقهوا الدرس، فهذا عمرو بن العاص حين فتح مصر وقف - وفتح الروم أيضاً - وقف على بعض أخلاق النصارى، حدث أصحابه ومن معه بأخلاق الناس، قال: في الروم أخلاق خمس وعدها حتى ينبه على المناقب، في تأكيد منه على أنه لم يأت الإسلام لإلغاء المناقب، بل جاء ليكملها، وبين أعينهم قول رسول الله ﷺ: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا أو فقهوا».

فأين نحن من هذا الكمال، الواحد منا إذا تخاصم مع آخر في جهة أخرى يلغي فضائله، نقول بالدارجة: «كَحَلْ بِالْعَمَى»، فلا يرى أي شيء من حسناته، خطأ واحد يصبغ به الشخصية كلها والمواقف جميعها.

يُعَلِّمُ النبي ﷺ أصحابه وأُمَّته الإنصاف حتى من نفسك، ومن كلمات عمار بن ياسر في صحيح البخاري من كتاب العلم: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»، ثلاث من استجمعهن واستكملهن فقد استكمل الإيمان والعلم، الإنصاف من نفسك، قول الحق ولو عليك، إعطاء العدل ولو كان لغيرك عليك؛ حقاً، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار.

(1) من التني وكراهة الرائحة وخبث الطوية.

كل شيء يتصل بالمصطفى يقول: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

لم نغادر الموضوع، وهو الحديث عن الكمال المحمدي، فمن أي جهة نظرت إليه ذلك عليه، لأن الله وصفه بالنور والصراط، وخاصية الصراط أنه يوصل، وخاصية النور أنه يدل وينير، إذا رأيت النور فإنك من أي جهة نظرت إليه عرّفك به، كأن النور الذي يفيض متساوي الدلالة، وهذا هو رسول الله؛ جسمه يقول: هذا رسول الله، موقفه يقول: هذا رسول الله، مشيته تقول: هذا رسول الله، جلاله، جماله، صبره، حلمه، كل شيء منه وإليه وفيه وبه يقول: هذا رسول الله ﷺ وعلى آله.

فلذلك قال له هنا ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾، أي إنا صنعناك على هذا الكمال، وإلا لم تكن مناسبا للبعثة، ولما نصبناك له من هذا اللون من ألوان المهمات العظام، لو كنت على خلاف ذلك، فَظًّا القول، خَشِنَ الجانب، غليظ القلب، لحصل خلاف المقصود من بعثتك، وانفضَّ الناس من حولك، إذ المقصود بالبعثة استمالة الناس وتأليفهم، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ فُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 64] أي بك وبخلقك، فلا بد للداعي أن تكون له أخلاق تجمع الناس وتؤلفهم عليه، ولو كان بضد الصفة التي بعث بها لضاعت مقاصد البعثة، ولانفضَّ الناس من الميثاق⁽¹⁾.

(1) قال الشيخ حفظه الله: «كان عندنا شيخ شديد في التعليم، تعرفون كم خرج؟ واحد! ثم مات، قرأ عليه تلميذ واحد، وكان شيخ آخر ليس بكامل التكوين ولكنه كامل الخلق حسنُهُ، كم وكم تخرج عليه؟ لا تستطيع أن تحصي من تخرج على يديه، سيدي الورزازي رحمه الله، في المسجد الجامع، والفقير الآخر الذي كان فاقد التسديد، وكان من أهل الجلد وكان شديدا لا يطيقه أحد، واحد قرأ عليه وقرأ عليه ختمة واحدة، لأن هذا لا يألّفه الناس، ولا يمكن أن يحقق المقصود وما جعل له، أو نصّب نفسه له».

الأخطاء لا تلغي الأقدار:

لو كنت فظا لضاعحت مقاصد البعثة، ولذلك قال تعالى لنبيه ﷺ: استمر على لينك، وأملئ عليه أوامر: «اعفُ عنهم»، فيما فرطوا فيه من حَقِّك حيث انسحبوا عنك، ثم «استغفر لهم» فيما أضاعوا من حَقِّي، اعف عنهم فيما يتعلق بك، واستغفر لهم، اطلب الله أن يغفر لهم فيما ضيعوا من حقه، واستمر على مشاورتهم، معناه: أنزلهم حيث كنت تنزلهم قَبْلًا، لأن المشورة تكون مع الخصوص، وشاورهم، استمر على مشورتهم، لأن الأخطاء لا تلغي الأقدار الملزمة، هذا ميزان العدل، شاورهم في الأمر، ولذلك النبي ﷺ استمر على هذه المشاورة تعليمًا لأُمَّته من جهة، وإشارة إلى أن هذه المشاورة ضرورية في أمر العامة، وفي الأمور الخطيرة، خصوصًا حيث لا نص ملزم بدلالته التي لا تحتل غيرَه.

المشورة تنوير وتحرير:

النبي ﷺ شاور في كثير من الأحداث؛ شاور في بدر، وفي صلح الحديبية، وشاور في حدث الإفك، لأن المشورة تحرر الرأي وتوزع المسؤولية، وتخفف عن الجانب الواحد، وتدفع عن الجماعة غلواء الاستفراد، الذي يكون مدخلا للاستبداد، والاستبداد أصل الفساد.

قال أهل العلم: «الشورى» مأخوذة من شرت الإبل، إذا عرضتها في المشوار من أجل تمييز بعضها من بعض⁽¹⁾، تعرض الرأي على الآخر حتى يبدي قوله

(1) قال صاحب «الغواص في أوهام الخواص»: «ويقولون: المشورة مباركة، فينبونها على مفعلة، والصواب أن يقال فيها مشورة على وزن مثوبة ومعونة، واختلف في اشتقاق اسمها فقيل: إنه من قولك: شَرْتُ العسل اشورة إذا جنيته، فكأن المستشار يجتني الرأي من المشير. وقيل: بل أخذ من قولك: شرت الدابة إذا أجريتها مقبلة ومدبرة، لتسر غورها وتخبر جوهرها، فكأن المستشار يستخرج الرأي الذي عند المشير، وكلا الاشتقاقيين يتقارب معناه من الآخر، ويلتحم به».

فيه، وحتى يتحرر بسبب هذا اللون من ألوان تبادل الرأي مع المعني به⁽¹⁾.
ثم يعقب القرآن الكريم على وصيته للنبي ﷺ بقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾، حررت الرأي بعد المشورة، فلا تعتمد عليه وحده، ارجع إلى مسائل الاعتدال، الأخذ بالأسباب ثم التوكل؛ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، عوّل عليه في إنجاح هذه المقاصد وتلك المطالب، إن الله يحب المتوكلين بعد العزم، وليس المتوكلين بإطلاق حتى مع التفريط في الأسباب، «فتوكل»، لأنه رتب التوكل بالفاء على تعاطي الأسباب والعزم، والعزم عزم الأسباب وإحضارها بالجهد المطلوب، والشرط المطلوب، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ بعد العزم كما هي رتبته، ففي الآية مطلوبة الأخذ بالأسباب، ومطلوبة التوكل على مسبب الأسباب.

آية المنة برسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم من هذه الآية في أجل مصدر للسيرة وهو هذا القرآن، إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَأَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَهِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، بدأ الحديث عن رسول الله، أو قل: عن رحمة رسول الله ﷺ، فقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ﴾، جاء بإثرها وفي سياقها، يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجُنَجِلِ إِنَّهُمْ إِشْرَاقُ الشَّيْطَانِ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَاقَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [155] يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا تَوَلَّوْا وَمَا تَوَلَّوْا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَخِيءُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [156] وَلَيْسَ فُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ [157] وَلَيْسَ مِتُّمْ أَوْ فُتِلْتُمْ لِإِلَهِ اللَّهِ تُخْشَرُونَ [158] فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فَطَاغِيلُ الْفَلْبِ لَافْتَضُوا

(1) في ثنايا كلام الشيخ حفظه الله إشارة إلى أن المشورة تكون مع المعني بالأمر، ومن له به صلة، فلا تكون مع العموم في كل القضايا والمسائل.

مِنْ حَوْلِكَ بَاعَفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ * إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَحْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْفِتْمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَقِمَّ بِاتِّبَاعِ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَتِهِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَهِ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّْا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ: أَبَىٰ هَٰذَا أَفْلَ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجُمُعَتَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَيَتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ لَا تَعْلَمَ فَمَا لَا لَاتَّبَعْتُمْ كُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ يَا فَوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا فَلْوَ فَاذَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ [آل عمران: 155 - 168].

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾، وذكر من وظائفه أنه يزيكهم بهذه الكمالات، ثم عقب بالقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾، يعني فعصوا ولم يمتثلوا... إلى ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ الْمَلَائِكَةُ لَفِئَتٌ لَهُمْ﴾، على رغم هذه الجناية، استمر على نهج الكمال معهم، إلى الحديث عن المنة برسولنا ومكارمه على هذه الأمة، وبيان مهامه العظمى فيها حتى تذكر ذلك وتعرفه.

الدلالات المؤمنة للقسم في سورة القلم المطمئنة :

في مصدر السيرة الأعظم، يجيء الحديث عن رسول الله ﷺ في مقامات مختلفة، ذكرنا لكم بعضها، كيف هو في مقام المحارب، ماذا يقول في وجه خصمه، وكيف يربي أتباعه، فإذا أخطأوا، كيف أنه من نفس الأخطاء يعلمهم.

ومقام آخر، وهو على عتبة أن يكلف بالبلاغ في صدر سورة القلم، ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾⁽¹⁾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [القلم: 1 - 4]، قسم بثلاثة على ثلاثة، ثلاثة أكدت بثلاثة، ثلاثيات مترادفة، والثلاثيات لها شأن في الكتاب كله⁽¹⁾.

طالعة سورة (ن)؛ سورة القلم، فيها قسم بأدوات المعرفة، نختار لكم من كلام أئمة التفسير ما يناسب المقام.

﴿ن﴾ حرف مقسم به، قيل إنه مقتطع من نور، وهو اسم من أسماء الله، وصفة لرسوله، ونعت الرسالة والكتاب⁽²⁾، فصَحَّ أن يكون في هذا المقام، وهذا الاقتطاع له أدلته في كلام العرب التي نزل القرآن بها، وفيه كلام للمفسرين يؤيد ما ذهبنا إليه ويدل عليه.

قسم مختزل بنون النور على من بعث للنور، وبراءته من ثلاثة: ما أنت بنعمة ربك بمجنون، بل إن عقلك في تمام الصون، وإن لك لأجرا غير ممنون ولا منقطع، صلتك غير منقطعة مِنَّا، وإنك لعلی الكمال العظيم المسمى خُلُقًا.

وقيل إن النون من أسماء الدواة، المحبرة، وعاء الحبر، والقلم يناسبها، القلم الذي لا يحمل الحبر بداخله كما هو الآن، قلم منفصل عن الدواة، ولا يقال نون للدواة إلا وهي بها حبر، لا يقال لها إلا إذا كانت ممتلئة، وإلا إذا كانت صَوَانًا.

(1) من ذلك ثلاثي الثناء والولاء والرجاء في فاتحة الكتاب، وثلاثي خصائص الكتاب في صدر سورة البقرة، سمو مصدره: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وصفاء جوهره: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وكمال أثره: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. وهي مطردة في الكتاب يلحظ فيها الناظر والمتدبر قمة البلاغة والإعجاز.

(2) قال تعالى في وصف نفسه العلية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، وقال في وصف كتابه: ﴿بِالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157] وسمى المرسل نورا فقال: ﴿فَدَجَّاءَ كُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 17].

﴿وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، أي ما يسطرون عليه، بحذف صلة الفعل، فيدخل القرطاس وما إليه، أي كل ما يسطرون عليه، والصلة التي فهمت بمناسبة الفاصلة، لأنه قد تحذف الصلة مراعاة للفاصلة، فيكون قسم بأدوات الكتابة التي تخلد العلم وتنقله، لأنه لا يسطر إلا ما كان من العلم المحرر، دعونا من هذا الذي عليه الناس اليوم حيث كل شيء يكتب، كان لا يسطر إلا ما كان من العلم المحرر، لا يكتب حتى يكون أهلاً لذلك.

قَسَمُ بأدوات المعرفة معناه مناسب، مناسبة المُقسم للمقسم عليه، قسم بثلاثة على ثلاثة، وهي براءة رسول الله من الجِنَّة التي هي اختلال العقل، كيف يكون النبي مختلاً عقله وقد نزلت عليه وحلت به نعمة الوحي ﴿مَا آتَتْ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾؛ أي لن تكون بإنعامه عليك بالوحي مجنوناً، لن يكون العقل «عقل الوحي» إلا نورا على نور الأصل المحمدي، نور على نور كما في آيات الكتاب.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، هذا حديث عن أن صلة الله به ما انقطعت، بل زادت وتأكدت، فأنت بنعمة هذا الوحي الذي لم ندخل عليك بها اختلالاً، بل إنك موعود منا على ذلك بتوالي الوصل أجراً، بسبب أنك بُعثت لنشر العلم والمعرفة، ولتكون أنت ومن بعثت إليهم على كمال الصفة، ولأن لك فضل كثرة الأتباع والأشياء، وهؤلاء النجباء والأصفياء «أتباع رسول الله»، من أجلهم قدرا وأرفعهم ذكراً آله الكرام، وصحبه الأعلام، ثمرات رسول الله وأثر دعوته المباشر، فكانوا هم من الأجر الذي أعطاه الله غير ممنون، يقول له تعالى: الأجر منا إليك بغير مئة، والأجر بغير مئة هو ما يُعطى من العطاء مقابلاً لسعي ذي قيمة، ففيه من جهة تقدير لعمل رسول الله ﷺ ولسعيه، بعد تبرئة وعيه، لأنه لا يُتصور في عقله أن يكون معه شائبة اختلال، هذا كمال إلى كماله، وهو موعود

بأجر متصل ومدد لا ينفصل، لأن العناية الإلهية قد أخرجت مبعوثها بهذا اللون من ألوان التصفية والتركية والتحلية بكل الكمالات المرضية، بعدما أخلته من أضداد ذلك حسا ونفسا، وظاهراً وسراً.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، قال أهل العلم: الخُلُق الدين، وهو كلام صحيح، لأن الدين خُلُق، متى يبدأ الخُلُق حقيقة؟ يبدأ من حضور الآخر، تواجد الخُلُق هو الذي يُحوِّج إلى الخُلُق، فالأخلاق مطلوبة حين يكون السعي مع الآخر، أما وأنت مع الله بعيداً عن الناس، لا يقال فلان تَخَلَّقَ، إلا وهو مع الناس، كأن المطلوب من الدين هو هذه الآثار، وهي الحَرِيَّةُ بالاعتبار، الذي لا خُلُق له لا دين له، نقول «خُلُق» مأخوذة من إطلاق الخُلُق على الدين، الدين العظيم، والدين القيم خلق، وأصل الخُلُق في القلب رحمة.

الرفق في الخطاب والصدق في البلاغ من أهم تجليات حسن الخلق:

وهو ما تَمَثَّلَهُ رسول الله ﷺ. وهو ما يجب على الوارثين له بحق أن يكونوا عليه، خصوصاً في التذكير والبلاغ، أو في الجدل والتصدي لأهل الخلاف. ذلك أن الموعود به في سورة القلم إنما كان جزاء لها تكم الأوصاف الجليلة النبيلة في سيدنا رسول الله، ولا ينبغي أن يكون الوعد إلى من اتصف بضدها، لأن الذي لا يرى منه بالنسبة لموعوظه إلا غضبه عليه، هناك من يعظ فيزجر، وهناك من يعظ فيكثر، وهناك من يعظ فينفّر، مما يسبب لنا المشاكل في وعظنا، وهذه كلها أشياء تخالف الحسن الذي أمرنا به في قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53]، وأشد ما يطلب الحسن في الموعظة التي أمرنا أن نضعها موصوفة بقسمات الحسن المطلوبة فيها.

وحتى في الجدل مع المخالف، لا بد من الاتّصاف بالإنصاف، وكمال الخلق، بعيدا عن صنوف الانفعالات التي تنبئ عن خفة عقل وضعف يقين، هناك جدال اسمه الجدل، يجلد الذي يجادله، ويبحث له عن كل شيء ممكن بحق أو باطل ليسقطه، وأصل الجدل هو هذا، لأن الجدل هي الأرض الصخرية شديدة الصلابة، قالوا لأن من مقاصد الجدل الجاهلي إسقاط الخصم أرضا، وليس الاهتداء بنظرين متقابلين لإيضاح الحق الذي يكون المقصود الأسمى لذاته، هذا شيء لا يوجد بسبب بعدنا عن الكمال، كمال رسول الله ﷺ.

رسولنا يحاور أحد المشركين على وثنيته، يقول له: «يا أمية كم تعبد؟» قال أعبد سبعة، رسول الله الذي بعث بالتوحيد، لم يقل له منكرا وزاجرا، تعبد سبعة؟ كيف؟ أين ذهب رشدك؟... وإنما تدرج معه فقال له: «مِنْ هَؤُلَاءِ السَّبعة، لمن تجعل همك؟ أَلِكُلِّهِمْ تتوجه؟» قال: للذي في السماء، قال له ﷺ: «إذا، ما كان أغناك عن ستة الأرض»، يعني هذا الذي لا ينفع في شدة ولا يفيد في رخاء، ماذا تفعل به؟! إِبْقَ مشدوداً للأعلى، فَلَفَّتَهُ من نفسه إلى ما بَلَدَّتْهُ العادة بسبب توارثها، لأن الحس يتبلد بالاعتیاد، نقول دائماً: «العادة أم البلادة»، ﴿وَإِذَا فِیْلَ لَهُمْ يَتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَلَوْ بَلُّ نَتَّبِعْ مَا الْقَبِیْنَا عَلَیْهِ ءَابَاءُ نَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا یَعْفُلُونَ شَیْئًا وَلَا یَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 169]، ﴿فَالَوْ أَوْجَدْنَا ءَابَاءَ نَا لَهَا عِیدِیْنَ﴾ [الأنبياء: 53]، الإلف يعطل الرؤية ويشلُّ الفكر، قالوا قديما: «من أَلَفَ تَلَفَ».

ولذلك كان من مقاصد الجدل هذا اللون من ألوان التنبيه والإلفات والوخز، وكثرة الاستفهامات في القرآن تدل على ذلك وتنبه إليه، والهمزة تأتي كثيرا في الكتاب إبرة الإيقاظ، كما في هذه الآية وأخواتها من سورة النمل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُن مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ [النمل: 62] أإله مع الله؟، أمن خلق

السموات؟ أمن يجيب المضطر؟ أمن يبدأ الخلق؟ أإله مع الله؟ وتبقى «لا إله إلا الله» جواباً مضمراً عن هذه الأسئلة في ضمير المتدبر بحق.

اللهم صَلِّ على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم، اللهم شفعه في أولياء الله، وحقق بيننا وبينه الصلة التي تعيننا على تمثل هذه الكمالات ولو جزءاً، أما في الحقيقة فنحن كما قال الشاعر:

لا يعرف الشبيه إلا شبيهها أيها البحر لسناسواء

اللهم هب لنا بصلاتنا عليه ما يطهر قلوبنا وأفئدتنا، وهب لنا بمحبته ما يدفع الكروب عنا وعن أمته، اللهم هب لنا بصلته ما يكون سبباً لتفريج الغموم والهموم، اللهم فرج الضوائق عن أمة سيدنا رسول الله ﷺ، اللهم رد بها إليك رداً جميلاً، اللهم عد بها إلى هيبتها وأمانتها، وقوتها وضمانها، وما كانت عليه من الكمال والخيرية، إنك ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.



(2) تأملات في حديث القرآن

عن النبي الكريم في مقام التكريم⁽¹⁾

**في أن الصلاة والسلام على جناب رسول الله نظير الحمد والتسبيح
لجناب الله جَلَّ جَلَالُهُ :**

بين يدي الموضوع المعلن في العنوان، أعني حديث القرآن عن النبي الكريم، تأملاً في مقام التكريم، من أجل رصد معالم التوسيم، أقول بين يدي الطهر، بأننا قد دعينا كلنا إلى الصلاة على سيدنا رسول الله والسلام عليه، والصلاة تنويه بخصائصه، والسلام تنزيه له عما يتوهم له من نقائص - حاشاه وصما وعيبا - ، ونظيرها في جانب الله ﷻ الحمد والتسبيح، الحمد بالنسبة لله تنويه بكمالاته، والتسبيح تنزيه عن ضد هذه الكمالات، أي تنزيهه عن أي شيء يتوهم إزاء هذه الكمالات من صنوف النقص، ولأن السلام على رسول الله كالتسبيح بالنسبة لله - انتبهوا - والصلاة على رسول الله كالحمد بالنسبة لله، فالله تعالى لم يحمده من لم يسبحه ولم ينزهه، فكذلك النبي ﷺ لم يصل عليه من لم يسلم عليه، وينفي عنه صنوف ما أضيف إليه بالوهم؛ الوهم الذي يتصور الكمال نقصا.

لمح إلى سر البدء بالسلام على رسول الله في تشهد الصلاة :

كما أذكرُ أيضا بأن من عبارات التشهد في صلاتنا الراجعة فرضا ونفلا، أن نسلم على سيدنا رسول الله سلاما على حَدِّته بكاف الخطاب، وذلك عقب الثناء

(1) أصل هذا الفصل محاضرة لفضيلة الشيخ سيدي مصطفى حفظه الله، ألقاها بمناسبة الحفل التكريمي الذي أقامه المجلس العلمي المحلي بطنجة، في إطار برنامج تحت عنوان: علماء في ضيافة المجلس. وذلك بقاعة العروض بقصر البلدية.

على الله، وأن له التحيات والطيبات، فنقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته، قبل الصلاة عليه، وربما بدا هذا اللون من ألوان الفصل بين السلام أو التسليم عليه بين يدي الصلاة غريبا، وليس في الأمر من غرابة، إذ التسليم مدخل للصلاة، فالذي لا يُسَلِّم على المصطفى لا تقبل منه صلاة، والتسليم منك عليه إذا تجاوزنا عبارة التعبد، هو أن يكون منك في مقام السَّلَام؛ إن الذي لا يُقَدَّر رسول الله ﷺ، ولا يَسَلِّمُ الرسول من لسانه قولا، أو وهمه تصورا للنقص فيه، لا يُتصور أن تجيء منه الصلاة منوها بكمالاته ﷺ، فالمدخل إذاً للصلاة تسليم على صاحب المقام ﷺ في الأولين والآخرين.

في أن نشر المحامد النبوية وذكر الكمالات الأحمدية من أجل صنوف الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

صلاتنا على نبينا لا تعني فقط هذا اللون من ألوان الذكر الدعائي، «اللهم صلّ على سيدنا محمد»، وما في حكمها، والتي تعني: اللهم تَوَلَّ أنت الصلاة عليه، وإنما الصلاة المطلوبة أيضا من وراء هذا الثناء التعبدية هو تفصيل الثناء، فالذي يُعرَّفُ برسول الله يصلي عليه، والذي يدفع الأذى عنه ويرد شبهات أهل الزيغ يُسَلِّم عليه، - انتبه معي - ولذلك تم اختيار شعار: «السلام عليك أيها النبي» للتعريف برسول الله ﷺ، ولإظهار كمالات جوهرية الكمال، ورد الشبهات التي أطلقها أولئك المفسدون والمغرضون في حقه، لأن الذي لا يُسَلِّم على رسول الله لا يصلي عليه.

ثم إن صيغة الصلاة التي عُلِّمناها شرعا؛ «اللهم صلّ على سيدنا محمد»، لو تأملنا فيها، نجدها حوالة منا على صلاة الله الكاملة التامة، معني قولنا: «اللهم صلّ أنت على سيدنا محمد»، في هذه العبارة حوالة آذنت بعجزنا المطلق عن أن نكون في مقام الوفاء بقدر المصطفى ﷺ، أبدا، ومن ثم فإننا لا نملك إلا أن

نفتح ديوان الصلاة الأكبر، المُجلِّي للمثل الأبهـر، هذا الكتاب الذي لا ريب فيه، الذي كان خُلُقًا لرسول الله ﷺ.

فالنبي ﷺ هاشمي المحتد، قرآني الخلق، عالمي الرسالة، وهذه كلمات توضع بإزاء رسول الله ﷺ في مقام التعريف المجمل.

في ديوان الصلاة «القرآن العظيم»، نقرأ سيرة المصطفى ﷺ مكتوبة بكلمات الله التامة، مخلدة بخلود هذه الرسالة، وفيه إشارة إلى أن سيرته مستمرة، ومفتوحة، ومطرودة، إلى أن ينتهي من هذا الوجود ذاكر لله أو متدبر لآياته.

الصلاة منا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باب لصلاة الله علينا :

وحتى حين نصلي هذه الصلاة التي في صيغتها إعلان عن العجز عن الوفاء بقدر صاحب المقام الرفيع، وحين نمدحه ونثني عليه، فإنه إنما نتشرف نحن بهذا اللون من ألوان الثناء، ويرحم الله القائل:

ما مدحت محمدا بمقالتي بل مدحت مقالتي بمحمد
وما شرفته حقابصلاتي بل تشرفت منه بنيل الصّلات

نتعرض بهذه الصلاة منا على نبينا لصلاة من ربنا علينا ترفع القدر، وتضع الوزر، وتضاعف الأجر، وتفتح الباب لمزيد من الذُّخر، اللهم صل عليه في الأولين والآخرين، وفي الملائ الأعلى إلى يوم الدين.

لمح إلى سر من أسرار تكرار الاسم الشريف لنبينا ﷺ في القرآن الكريم :

في شهر الذكريات السعيدة، ربيع السعد، شهر كل الأطوار المحمدية، الأطوار الكبرى في حياة رسول الله ﷺ، إذ في هذا الشهر كان ميلاده ومبعثه ومعراجـه وهجرته، وفيه كانت وفاته. كلها كانت في ربيع السعد، ثلاثة باتفاق

أهل السير واثنان في محل الخلاف⁽¹⁾، ومن لطيف الموافقات أن هذه الأطوار الكبرى الخمسة لنبينا ﷺ تتوافق مع تكرار اسمه العلم في القرآن خمس مرات؛ محمد ﷺ أربع مرات وأحمد مرة واحدة⁽²⁾، فمجموع العلمين خمسة، بل من عجب أن تجد التوافق حتى في الأحرف، محمد خمسة أحرف، ميم، حاء، فميم مشددة بميمين، فдал، فالمجموع خمسة أحرف، وهذه من لطائفها أن كل حرف فيها يدل باللمح على الحدث والحال والمحل.

فالميم الأولى تلمح إلى حدث مولده ومحلّه بمكة، وإلى حاله وأنه ولد مختونا.

والحاء تلمح إلى حدث الوحي إليه ومحلّه بحراء حال كونه متحنثاً ﷺ. والميم المشددة فيها ميم مسراه، من مسجد لمسجد، من المسجد الحرام وفيه ميم، إلى بيت المقدس هو المسجد الحرام الثاني، ومعراجّه منه إلى سدرّة المنتهى، ميم المنتهى، وميم الحال، ميم إمامته بالأنبياء وميم الختم به مؤيداً من ربه. فميم مهاجره من مكة إلى المدينة من ميم لميم. منصورا. فдал وداعه، والمودع في اللغة المتوفى، في الحديث: «صَلِّ صلاة مودع كأنك تراه»، دال وداعه، ودع الدنيا، ودفن في داره، في مرقدّه في بيت عائشة

(1) المتفق عليه أنه كان في شهر ربيع ميلاده وهجرته ووفاته، والمختلف فيه مبعثه ومعراجّه

(2) موارد الاسم الكريم لسيدنا رسول الله في الذكر الحكيم هي:

1: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144].

2: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40].

3: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ

بَالَهُمْ﴾ [محمد: 2].

4: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29].

5: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعْ إِسْرَائِيلَ يَلِ إِلَهِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي

مِنْ بَعْدِي إِسْمُهُ أَهْمَدُ﴾ [الصف: 6].

رضي الله عنها، دال الوداع، دال المرقد، دال الدار التي دفن فيها المصطفى ﷺ.
وقبل الشروع في الحديث عن الموضوع نحاول الإجابة عن أسئلة ثلاثة
تتصل بعنوانه:

أولاً: لماذا نعتمد القرآن حين نريد الحديث عن رسول الله ﷺ؟

ثانياً: ما المراد بالمقامات التي سنخصصها ببعض التأمل؟

وثالثاً: ما هو المقصود بالمعالم التي عطف عليها في عنوان هذه الكلمة؟

لماذا نعتمد القرآن الكريم في مقام التحدث عن رسول الله ﷺ؟

وفي الجواب نقول: إن القرآن الكريم من مقاصد تنزيله الكبرى، التعريف برسول الله ﷺ، بل التعريف بالنبوات التي هي واسطة في البلاغ، وأنموذج لتقديم الكمال المطلوب سلوكاً وتصرفاً واعتقاداً.

النبوة في الكتاب اصطفاء إلهي، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33 - 34]، والله يصطفي على علم، نقرأ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: 31]، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 125]، وهو اصطفاء محفوف بالرعاية والعناية: ﴿وَلَنُصَنِّعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: 39].

الحديث عن الاصطفاء مقدمة للحديث عن المصطفى الأكمل الأتم سيدنا رسول الله ﷺ، الجامع ما تفرق في كمالات الأنبياء من قبله، من لدُنْ آدم ﷺ إلى أن خُتمت النبوة به ﷺ.

بل إنه ليس من مقاصده التعريف به فقط، وإنما من موضوعاته، وفرق دقيق بين الموضوع والمقصد، حين تصبح الوسيلة متفقة مع الغاية فإن ذلك يكون أبلغ وأتم في الباب.

ولماذا كان التعريف برسول الله من موضوعات الكتاب؟ لأن مما احتفى به بسط الأنموذج الأكمل للاهتداء، ونشر عَرَفِ فضائله للاقتداء، ثم إن القرآن أجلُّ مصدر وأوثقه، لأنه حديث الله عن نبيه، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أحسن من الله قِيلاً، الكمال في الصدقية، والتمام في الأحسنية، كمال معنى إلى كمال مبنى.

بل إن كلام الله ﷻ حاز التمامية من جهات ثلاثة: بدأ بالصدق في المضامين، إلى العدل في الأحكام والموازن، إلى الحسن في النظم والعناوين. وذلك مصداق قول الله المبين: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 116].

في بيان المراد بالمقامات المخصوصة بالتأمل:

للمقام شأن عند أئمة الكلام، لأنه رسم البلاغة وشرطها العسير، التي متى ما أخطأه المتكلم خرج عن فضاء البداعة في البلاغة مطلقاً. تنزيل الكلام على مقتضى المقام وحال المخاطب هو المسمى باختصار «نظماً» في لغة الإمام الجرجاني ومصطلحه، مقتضى الحال يختلف تبعاً لمقامات الكلام المختلفة، من مقام الإطلاق لمقام التقييد، إلى مقام البسط إلى مقام الطي، وحال المخاطب يختلف من مخاطبة المُقَرَّرِ إلى مخاطبة المُنْكَرِ، إلى مخاطبة المتردد، إلى مخاطبة الساخر، إلى مخاطبة المجادل تنزلاً، وغيرها من مقامات الخطاب.

ولذلك يقول أهل العلم: إن تقسيم أقدار الكلام على أقدار المعاني، وهذه على أقدار المقامات، وتلك على أقدار الأحوال، وبحسبها يرتفع شأن الكلام لمراعاته لهذه الاعتبارات والمناسبات، وقديماً قال شاعرهم:

تحسن عليّ هداك المليك فإن لكل مقام مقالا
ومراعاة جميع ما ذكر في الكلام ينقله من أفق الامتياز إلى سماء الإعجاز.

بيان المقصود بالمعالم الهادية :

وأما المعالم فهي عندي علائم ودوال هادية، تستخلص من قراءاتي في هذه السياقات، ليستهدي بها مطالع السيرة، وليرتقي بها إلى أفق فقهها. ومن أجلّ المعالم في الباب أمران لاجبان:

أولاً: نقرأ في المقامات في تنوعها تنوع جوانب العظمة في رسول الله ﷺ، فليس نَصْفُهُ عبقرية، لأن العبقرية امتداد في موهبة واحدة، وليس نقول فيه حاكماً قوياً، أو مصلحاً اجتماعياً، لأن كل وصف يحيل على نوع تفوق في جانب دون آخر، بينما النبوة امتداد في مواهب شتى على قمة توازن في الموصوفين بها، وعلى رأسهم سيدنا رسول الله ﷺ.

ثانياً: كما أنه من المعالم الهادية تلازم القدر والحق عند الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

كل أولئك بعض المعاني التي ذكرنا بها ابتداءً قبل أن نلاحظها ونحن نتدبر هذه المقامات.

في بيان خصوصية الوحي والموحي إليه «علاقة المتلقي بما يلقي إليه»

نعم، إذا قربنا هذه المفاتيح الثلاثة في عنوان الموضوع، وفي تحديد إطاره في جملة، فإن ما يلفت النظر بادئ ذي بدءٍ هو أنه لا بد من الانطلاق من خصوصيتين في هذا المقام:

1. خصوصية المتلقّي، وهو الوحي الفرقاني الذي نزل على قلب النبي

ﷺ على امتداد عهد بعثته إلى وفاته، ثلاث وعشرين سنة، النبي تلقى القرآن «جرعات» بحسب الأحداث والأحوال.

2. وخصوصية المُتلقّي، هذا النبي العربي الأُمي، يتلقاه على صورة حقن من النور، بدأت خمسا خمسا في الوصل الأولي، إلى أن صار ينزل عليه سورة من الطوال كاملة جملة واحدة حينما بلغ غاية الرسوخ الكلي.

تأملات في خطاب الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه ﷺ في فواتح الفرقان تنزلا:

حين نتدبر الخصوصيتين السابق ذكرهما، نجد أن هناك مقامين ينتظمان النص الكريم دونه، مقام التحدث إلى رسول الله، ومقام التحدث عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله.

ونلاحظ في تنزل القرآن ابتداءً بأن الحديث كان مع رسول الله وإليه، خطاب من ربه إليه، ليس هناك من ثالث، نقرأ في فاتحة الفرقان: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَفْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: 1 - 5]، خمس كلمات وخمس آيات، كلمات البسملة خمسة، لأن الباء حرف معني له استقلال، ولأنه ضَعُف بالانفراد رسماً فَوُصِلَ، وحقه أن يكتب وحده كباقي حروف المعاني مثل: «ما» و«في» و«عن» و«من»، فَلَمَّا جاء على حَرْفٍ واحدٍ وَضَعُفَ، وَصِلَ بما بعده.

ومن لطيف المعاني في شرف الباء وسرها، ما فسر لها به بعض أهل العلم بأنها علّمت النبي كيف يتلقى الوحي من ربه، ﴿أَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم تَلَقَّ الوحي، ودَعَّ عنك كل الأسباب التي تتراءى، لأنه؛ «أي قول بسم الله الرحمن الرحيم» وسيلة لتلقي نور الوحي، أو تلقي العلم، والقَدَرُ هنا تدخّل بكلمة الخلق ليقول لمحمد: كن قارئاً بالمعجزة، فكان ﷺ كذلك.

من مقام التحدث إلى رسول الله إلى مقام التحدث عنه ﷺ :

ومن مقام الحديث إليه في الابتداء، إلى مقام الحديث عنه في الانتهاء، حيث ختم التنزل الفرقاني بحديث عن رسول الله ﷺ، وهو خاتمة سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٩ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129 - 130]⁽¹⁾، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾، المجيء عبارة عن الإتيان في الإبان، وفيه قوة زائدة، لأن جاء أقوى من أتى؛ المجيء في الإبان، جاء في إبانته، وهذا سر من أسرار البعثة يُجَلِّي حكمة الله ﷻ في بعثة الأنبياء حين تكون الحاجة داعية لبعثهم، إذ هم لطف إلهي ورحمة ربانية.

بيان الفرق بين «منكم» و «من أنفسكم»

بعثة في الإبان جاءت بالأمان، ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، من أنفسكم وليس منكم فقط، كما تقرره الآيات، إذ من المعلوم أن «منكم» أصل الصلة، و«من أنفسكم» صميم الصلة، حين تكون على مستوى أعمق من مستوى «من» الأولى، ولذلك تفردت آية المنة بهذا الوصل⁽²⁾، وآية الختم بالحديث عن هذا الوصل بهذه الصيغة في بيان الصلة، هناك في البقرة وغيرها: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 129-130].

(1) ورد في الإتيان للسيوطي رحمه الله أن هذه آخر آية نزلت وذكر قول سيدنا أبي رضي الله عنه والذي مفاده أن الختم جاء بما كان البدء به (1/ 103).

(2) ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِن قَبْلُ لَیْءَ ضَلَّالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، وُقرئت شاذًا: «من أنفسكم»، ولسنا بحاجة إليه في هذا المقام.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾، هذا ترجمة لشريعته التي جاء بها، والتي مبناها كما يقول أهل العلم مآصول على درء المفسد، وجلب المصالح والمرشد، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾، حريص على جلب النفع لكم، ويثقل عليه أن تُعنتُوا بسبب ما، كأن ينزل بكم ما تضيقون به درعا.

ومدد هذين الصفتين في شخصية رسول الله ﷺ من مدد إلهي مزدوج، مَنَحُ وَنَفَحُ، ﴿رَأَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾، قال القاضي عياض رحمه الله: منحه اسمين كريمين من أسمائه على مقاس كماله البشري، وليس هذا شرك أبداً، فالمانح الله، وهذا عبده ونبيه ورسوله، وارتفعت كل الأوهام، منحه اسمين من أسمائه، والاسم في مقام الله على كماله، وهو في مقام عبده على مقاسه، والمانح الله، هذا هو التوحيد.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾، والرأفة شفقة في مقام دفع المفسد، ودفع الضر، «رؤوف»، فيه رأفة، فيه رقة إزاء المتاعب والمصائب وكل ما يؤلم، والرحمة أعم منها، إلا أنها إذا ذكرت معها تخصصت لجلب المسار لا لدفع المضار.

ثم تختم بتوحيد الحسب: ﴿بِإِنْ تَوَلَّوْاْ بَقُلُوبِكُمْ حَسْبُ اللَّهِ﴾، الله متولى بالكفاية والعناية، متى ما وُجد من يحاول إطفاء نور الهداية، ممثلة في رسول الله وشريعته، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتَوَّعِدٌ تَوَّعِدَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8]، أنى تبلغه الأفواه الشائثة، وهي تنفخ كما الأحق، ينفخ في القرب المحرقة، أو كالذي ينفخ على الشمس ليطفىئ نورها، ذلكم هو العبث في أحسن صورته ومستوياته.

مناسبة البدء بالحديث إلى رسول الله والختم بالحديث عنه لأمته :

بدأ التنزيل الفرقاني حديثاً إلى رسول الله في مقامه، ثم كان الختم الفرقاني حديثاً عن رسول الله لأمته، لتحفظ مكانته بهذه الصفات والكمالات الأحمدية المعجزة، وفيها مناسبة بينة، ذلك أن مقام البدء بالوحي يقتضي أن يكون الكلام موجهاً لمبعوث العناية، ونبينا ﷺ جمع علم النبوة والرسالة، فالنبوة هي جهة وصله بالله يتلقى النبأ منه، مُنبَّؤُهُ والمُخْبَرُ من قبله، والمخصوص بالغيب من جهته، والرسالة بيننا وبينه إلينا، فالنبي نبي من جهة، ورسول لأمته من جهة أخرى، بالصفة الأولى يُكَلِّمُ من قبل الله، وبالصفة الثانية يُكَلِّمُنَا من قبله، وتزواج هذين الجهتين في رسول الله ﷺ مظهر من مظاهر كمالاته، ولذلك حرص ﷺ على أن يصحح للذي قال: «ورسولك الذي أرسلت»، قال له: «قل ونبيك الذي أرسلت»، ليبين التمايز بين مقام النبوة ومقام الرسالة.

ارتقاء النبي ﷺ من مشفق إلى متشوق :

ثم إننا نرى مع هذا اللون من ألوان الاختلاف في المقام، اختلاف أيضاً في مقاصد المقام «أي مقتضياته»، فمقام التأهيل الابتدائي غير مقام التكمُّل والتكميل النهائي، النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله في السيرة نقرأ بأنه لما فاجأه الوحي كان على الحالة التي وصفها واصفه، إذ خرج ترجف بواده صلى الله عليه وسلم وعلى آله وهو يقول: «زملوني، زملوني، لقد خشيت على نفسي»، ثم يتحول بعد ألوان من الوصل إلى أن يصبح مشتاقاً إلى لقاء الملك، يقول له: «لقد طالت غيبتك يا جبريل»!.. مشتاق للوحي! فكيف ارتقى ﷺ من مشفق إلى متشوق؟!!

اختلاف صيغ القرآن في تعريف النبي ﷺ بنفسه وتعريف أمته به :

تأخذ هذه المقامات، مقام التحدث إليه والتحدث عنه أشكالا مختلفة:

فمرة يكون الخطاب بضمائر وعلى شكل مناداة؛ ﴿أَبَانتْ تُكَرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99]، ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: 82]، ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَفَذَكَّتْ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا فَلْيَلَّ﴾ [الإسراء: 74]، «تركن أنت»، من مقام الفرق إلى مقام الجمع والضم، وهي مقامات تحيل على الاختلاف بين المخاطب والمخاطب، بين الله وعبد المجتبي صلى الله عليه وعلى آله.

ثم يجيء مقام الحديث عنه مرة بالاسم، ومرة بالوصف الأتم، ومرة بضمير الغيب، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ فَذَخَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144]، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَاءِ آيَاتِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 53]، قال ابن عباس رضي الله عنه: «الناس في هذه الآية محمد ﷺ، لأنه كان أُمَّة، فسمي باسم الجماعة»، ومنه كناية: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: 251]، قال أحد التابعين: «إذا لم يكن محمد فلا أدري من هو؟»، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33].

مقامات الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم:

تندرج ضمن المقامين المذكورين سالفًا مقامات أخرى، ونذكر من بينها

المقامات الستة:

1. مقام التعريف.

2. مقام التشريف.

3. مقام التكليف.

4. مقام التنزيه.

5. مقام الدفاع المؤيّد لرسول الله.

6. مقام العتاب المسدّد لرسول الله، ويبقى الحب ما بقي العتاب.

كل ذلك لغاية تغطية سيرة المُتَحَدِّثِ عنه في الزَمَنَيْنِ، زمن الارهاص وزمن الاختصاص، زمن الاعداد الأنقى بالفضل، وزمن الإمداد الأرقى بالوصل، صلى الله عليه في الأولين والآخرين، علما بأن النبوة اصطفاء إلهيٍّ عليٍّ، يجيء تتويجا للاستواء الذي هو محصلة لسلسلة من الإعداد الرباني المتكامل، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: 13]، فجاءت النبوة تتويجا وتكميلا للاستواء في رسول الله كما هو في الأنبياء من قبله، إلا أنه في الختم على الصورة الأتم الأكمل.

ازدواجية الحكم والعلم في مقام التأييد والتسديد :

﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، الحكم إلى العلم، والعلم: النبوة والتعريف بالغيب، وما أنبأ الله به نبيه وعرفه عليه من أحكام، وما علمه إياه من أيام، والحكم تنزيل هذا العلم في المقام والحال، تنزيله والقضاء به والفهم فيه، وهو المسمى في مواضع أخرى «حكمة»، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، فجعل النبوة في سياق الجزاء، ولهذا أسرار كبيرة يقول فيها بعض أهل العلم: «في النبوة مهامه فيحّ تضلُّ فيها القطا وتنحرف فيها الخطى»، اللهم صل على الموصوف بالاصطفاء الأعلى صلى الله عليه وعلى آله.

حديث القرآن الكريم إلى النبي في المطالع بحسب ترتيب النزول

وترتيب الوصول :

سوف نخصص من المقامات الآتية، ما ورد من الحديث إليه أو الحديث معه مما جاء في مطالع الفرقان على ترتيب النزول، وما جاء مصدرا به الكتاب

على ترتيب الوصول، الأولى ترتيب النزول، والثانية ترتيب الوصول، أي على النحو الذي هو عليه الكتاب الكريم الذي بين أيدينا.

ولنكتف في المقام الأول بسرد مطالع السور الستة أو السبعة التي حازت الصدارة في التنزيل الفرقاني خطاباً لرسول الله ﷺ، من أجل أن نلاحظ هذا المقام لبيان خصوصيته:

فاتحة الفرقان: ﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، آيات خمس.

طالعة سورة القلم: ﴿نَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

طالعة سورة المزمل: ﴿يَأَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾.

طالعة سورة المدثر: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

سورة الحمد «فاتحة الكتاب».

سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.

سورة التكوير: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

سورة الأعلى: ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

وهذا ترتيب الإمام الجعبري في «تقريب المأمول في ترتيب النزول» حيث قال رحمه الله:

اقرأ ونون مزمل مدثر والحمد تبت كورت الأعلى علا

ولنذكر بهذا لنرى وجهة المقام، ولنكتشف إن شاء الله ببعض تأملٍ معالمه الهادية.

﴿إِفْرَأْ﴾ الخطاب إليه والحديث معه، «نون» قسم له عليه، أي على براءته مما أحسَّ به ﷺ، وهذا يرجحه أهل السيرة، النبي ﷺ في صدر النون ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، ما أحس به هو حين قال: لقد خشيت على نفسي الجنة، فلسنا

هنا بصدد ما أُتِّهِمَ به من قومه، لأن هذه السور من أوائل ما نزل، ثانية النزول، القسم بالنون قسم بالأدوات الثلاثة على البراءة الثلاثية «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» «وإن لك لأجرا غير ممنون» «وإنك لعلی خلق عظیم».

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿[القلم: 1-4]، ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، ثلاثة على ثلاثة، «ن» من معانيها الدواة في العربية دواة الحبر، والقلم أداة الكتابة ويراع التسطير، وما يسطرونه على تأليف جوانب العلم المسطور، ولما يسطرون عليه، وهو الورق وما في حكمه، فدخلت الأدوات الثلاثة، والثلاثة هذه أدوات المعرفة، في إشارة إلى أن الذي لا يزاول المعرفة لا يعرف نبي المعرفة ﷺ، الجهلة الأغبياء، مغلقو الفكر، أنى لهم أن يروا جوهر الكمال المصطفى صلى الله عليه وعلى آله.

﴿مَا أَنْتَ﴾ الخطاب له، وفي هذا مقام التأنيس، كما أنسه في ﴿إِفْرَأْ﴾ بأنك بصدد قراءة متميزة تستلمها من يد الأكرم، ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ وإن كنت لا تكتب بالقلم، فسيجيء الكتبة من بعد لتعزيز المقروء بالمكتوب في مصاحف الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، الله أنعم عليك واجتباك أنت بهذه النعمة، هل ستتحول إلى مختل بسبب هذا الفضل! عين المحال..

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، والأجر هنا ليس الأجر على الأعمال، وإنما المدد منا موصول إليك، إن لك لأجرا غير مقطوع، الأجر هنا يعني دوام المدد، المدد في هذه المرحلة التي تحس بأنك لا زلت بحاجة إليه، ونحن على العهد، نحن وإياك على خط الكمال والتكميل.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، شهادة من الله لنبه وهو على مشارف ابتداء الرسالة، والخلق العظيم هو الذي عبرت عنه السيدة الطاهرة خديجة رضي الله عنها حين

قالت: «والله إنك لتصل الرحم، - والنبي لم يبعث، ولم يرسل بعد - لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر، وتكسب المعدوم، والله ما يخزيك الله أبدا»، أي جنة وأي خلل؟! أبداً.

وقد لاحظت رضي الله عنها هذا الكمال الحق، هذا وَسْمُهُ ﷺ، وعبرت له بهذه الكلمات وَقَدَمُهُ على بداية الوحي إليه وإرساله، وهو بهذه الصفة صلى الله عليه وعلى آله، ولذلك سيجيء قول الله ﷻ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 125]، «حيث» الظرفية، المكان والشخص حيث يضع رسالته، وفيه تنويه بـ«حيث» هذه التي هي قلب رسول الله، الكمال المحمدي، حين تطلع المتطلعون للنبوة بدعوى المماثلة: ﴿وَإِذَا جَاءَ تَهُمْ أَيْةٌ مِنَ الْوَالِدِ يُؤْتِيهِمْ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 125]. قال الله تعالى لهم: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، لستم أنتم حيث هذه الـ«حيث».

خطاب الملاطفة والتشريف في سورتي نداء الرأفة والتكليف:

«اقرأ ونون مزمل مدثر»، في سورتي المزمل والمدثر خطاب قرب وملاطفة، أيها الملتف بعباءته، أيها المسجى بدثاره فوق ثوبه، قم قم، إننا نريدك، كل العالم ينتظرك، إنك أنت أنت، ليس الوقت وقت تدثر، الوقت وقت ظهور يفارق التستر، اخرج إليهم.

وكم هو جميل أن يخاطب الحق في عليائه نبيه المجتبي بهذه الملاطفة، وهذه حصلت من رسول الله لصهره الولي سيدنا علي كرم الله وجهه، حين جاء إلى المسجد ووجده نائماً وقد أثر التراب في جبينه أو في جنبه، فقال ﷺ: «قم أبا تراب»، يلاطفه وكان في نوع نفرة بينه وبين أهل بيته، «قم أبا تراب»، لطف نبوي مع الصهر الولي كرم الله وجهه، ولطف إلهي مع السر العلي صلى الله عليه وعلى آله.

وهذا التلطف في الخطاب متكرر، ﴿يَا أَيُّهَا﴾، هذه المناداة فيها إقبال من ربنا على نبيه، «يا»؛ لا تقول «يا» إلا وأنت تريد الإقبال على مخاطبك، إنا مقبلون عليك فأقبل، يا أيها المتدثر منا ونحن نناديك، وقبلها يا أيها المزمّل قم، قم الليل، أنت، يقال للنبي: ﴿أَوَانْفُضْ﴾ في تخيير وتلطف، «أنت» ﴿وَرَيَّلْ﴾ أنت ﴿إِنَّا سَنُلْفِي عَلَيْكَ﴾ أنت، ست أو سبع خطابات كلها مؤنّسة بالضمير لرسول الله ﷺ، لأن «أنت» وكاف الخطاب تجعلك مع مخاطبك على تمام الوصل، بحيث لا يفرق بينك وبينه أي مدى، أدوات في الخطاب الذي يصل معه الصوت القصير، ويسمى صوت المناجاة، أو مسافة المناجاة وليس المناداة، لأن الخطاب بالكاف أقصر في مسافته من «يا»، قَرَبَهُ بـ«يا» وخاطبه بالكاف.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فَمَآ نَذِرٌ ﴿، أنت ﴿وَرَبَّكَ بِكَبْرٍ﴾ الخطاب بالكاف، ولاحظ هنا لا يوجد اسم الجلالة، لم يقل له: «والله فكبر»، ﴿وَرَبَّكَ﴾، الرب هو البر المحسن إلى عبده، المتلطف به، ومقام التربية يقع باسم الرب وليس باسم الله، لأن اختيار الاسم مقصود في مخاطبة نبي الختم سيدنا رسول الله ﷺ.

تلقين الحمد والتمجيد وسؤال العون والتسديد في طائفة الكتاب المجيد:

و«الحمد»، خامسة السور نزولا على ترتيب الجعبري كما سبق، والمعرّبون يقولون إن السورة كلها في محل نصب لأنها مقول القول المقدر، يعني قل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾، بدليل ﴿إِيَّاكَ﴾، ولا يجعلون إياك على أسلوب الالتفات، وإنما يجعلونها على أسلوب الخطاب المقدر، «قل الحمد لله».

فالله لَقَّنَهُ في خامس السور كيف يحمده على نعمة الوحي لأنه ربه، قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة: 1-7].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾، قل مخصصا إيانا باستلام المدد والاستعانة، وتقديم العبادة توجهها وتوسلا، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ④ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾.

ولذلك قال قتادة والحسن: صراطكم محمد ﷺ، لأنه جلى الصراط في قول الله: ﴿بِاسْمِكَ يَا ذَا الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الزخرف: 42]، تمثل فيه الصراط فصار هو عين هذا الصراط صلى الله عليه في الأولين والآخرين.

مدح السند في الوصل، والمتلقي لمدد الفضل في قسم سورة التكوير:

سورة التكوير سادسة السور نزولا، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: 1]، ورب قائل يقول: أين مقام رسول الله فيها؟ هو في القسم فيها: ﴿بَلَا أَفْسِسُ بِالْخُسِيسِ﴾ ⑮ الْجَوَارِ الْكُنُيسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَدَحُوكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَمَا صَدَحُوكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِيفِ الْوَحِيدِ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ [التكوير: 15-25]، حتى عند من فسر الرسول هنا بالملك، لأنه مدح للمشيخة ولسند الأخذ، هذا شيخك، جبريل الذي يلقي عليك الوحي، «لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين»، صفات خمسة لا يمكن تجاوزها مهما اخترلنا صفات الكمال في المشيخة.

تلخيص الأصول في سابعة النزول:

﴿الْأَعْلَى﴾ السابعة، ﴿سَبِّحْ﴾ أنت ﴿إِسْمَ رَبِّكَ﴾، وفيها ﴿سَنَفَرِيكَ فَلَا تَنْبِيْ﴾، وفيها خلاصة ما جاء في كتب الله السابقة، الذي هو خلاصة التجربة، أو

عماد الأمر في رسائل الهداية، وهو هذه التزكية، ﴿فَدَا فَلَاحٌ مِّن تَرْكِيٍّ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَيْهِ الصُّحُفُ الْأُولَى﴾ ﴿صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، أي ﴿فَدَا فَلَاحٌ مِّن تَرْكِيٍّ﴾ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ هذا فلاح المتزكي، والمانع من التزكي هو التعلق بالفاني الذي هو إيثار الدنيا؛ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ ذكر الموجب والمانع المقرر في رسائل الله كلها، لا سبيل للفلاح من غير تزكية، ولا سبيل للتزكية من غير استحضار الآخرة، لا تزكية مع إيثار الدنيا، ولم يقل «حب» لأنه أصل الميل الذي أودع فينا إزاء الدنيا وشهواتها، ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْهَيْضَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: 14]، وذكر الله ﷻ أصنافها وأصولها.

قال عمر الفاروق في هذه الآية: «والله إننا لا نملك إلا أن نحب ما زين لنا» والمشكلة ليست في أصل الميل الفطري، وإنما في إيثار التفضيل على كل شيء، على الآخرة، على القيم، تفضيل اللُّقْمِ على القِيمِ، هنا المشكلة.

انتقال إلى مقام الاستدلال على نبوة سيد الأرسال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سورة «المؤمنون» :

من أوسع المقامات في الكتاب حديثاً عن رسول الله ﷺ، أراه في سورة «المؤمنون»، في قول الله ﷻ: ﴿فَذَكَاتَ - آتَتْ تَتْلَى عَلَيْكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجَرُونَ﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ﴾ [المؤمنون: 67 - 75] صدق لله العظيم.

حيثيات كون آيات سورة المؤمنون من أوسع مقامات التعريف بالمصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

لماذا هذا المقام هو أوسع المقامات في التعريف بالنبي ﷺ؟ لأننا في السيرة، ومن خلال المنهاج المستمد من أسلوب الكتاب، نجد أن النبي ﷺ تظهر معالم شخصيته المُشْرِفة في جوانب خمسة، أو نقول بأنه ينبغي لمن أراد أن يتعرف على النبي الكريم أن يسلك من خلال: صفاته، ثم معجزاته، ثم نبوءاته، ثم بشاراته، ثم ثمراته أو ثماره، وفي نظم رجزى مقرب أقول:

ولتُعرف النبي بالصفات ومعجزات نبوءات تأتي
كذا بشارة ثمار جلت ولف ظله وفاق فطرة

وكل هذه الأقسام، أو المنافذ، أو المداخل الخمسة، ترجع إلى مقام الدلائل، وكم كتب أئمتنا وأفردوا في الدلائل، ومن أجلها دلائل النبوة للحافظ البيهقي رحمه الله، ودلائل النبوة للفريابي والاصبهاني، وثبتت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار، وأعلام النبوة للماوردي وغيرها.

فأين تتجلى الدلائل في هذا المقام من سورة «المؤمنون»؟

أولا، نبدأ من الباب، فندخل للسورة من بابها، ومعلوم أن الباب في كل سورة هو عنوانها ومطلعها، أي صدرها، فلا بد من النظر فيه لفهم مقاصدها وإدراك معانيها وموضوعاتها، وقد يعيننا المقطع الختامي لأنه ينعطف على الصدر فيكمل الإشعاع.

بيان بعض المعاني الاشتقاقية لكلمة «سورة» :

بالرجوع إلى الأصول الاشتقاقية في اللغة نجد كلمة «سورة» لها معان منها:

1. أن السورة من الشُّور، وهو بشكله المحيط يكون محددا لها ومميزا

لوجودها، لأن أهم معانيه أنه مجتمع ومنعطف أوله على آخره، وعند التقاء طرفي تسويره يكون الباب.

2. أو قل إن السورة من السّوار الذي هو دملج، حلية تَجَمُّل، فكما أنه لكل سورة تميزها وكمالها فإن لها جمالها ورونقها.

3. ومنها أن السورة من السّور الذي هو البقية الدالة على شراب الكأس.

ومن هذه الأصول الاشتقاقية يمكن أن نستخلص المحاور الكبرى لكل سورة على حدة، لأن في بعضها حَوالَة على الموضوع، وفي بعضها حوالَة على الأسلوب، وفي بعضها حوالَة على الخصائص...

وفي سورتنا نجد أنها سورة الفلاح، قدمت صورة دقيقة للمؤمنين، لأنها تحدثت عن صفاتهم في الصدر، وقدمتهم في صورة الكمال في الإيمان.

كان خلقه القرآن:

والسيدة عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ أحالت على البحر فقالت: «كان خلقه القرآن»، وهي من صيغ الحصر، لأن الوصف بالكون أو ثق ألوان الوصف، تقول مثلاً: فلان محسن، وفلان كان من المحسنين، فالكون على الصفة أرسخ الأساليب لثبوت الصلة.

فقولها رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»، إثبات الوصف بالكون، وهذا فيه تعريف الجزأين، خلق رسول الله ﷺ بإضافة الضمير تعريف، والتعريف «القرآن»، وتعريف الجزأين يؤذن بالحصر، معناه، ما كان خلق رسول الله ﷺ في شيء منه خارجاً عما في هذا الكتاب، كان خلقه مقصوراً على الكتاب، ثم قرأت - كما في بعض الروايات - ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾، الآيات، بمعنى أنه هذا هو خلق رسول الله ﷺ.

عنوان صفات النبوة الصلاح، وأساس مهماتها الإصلاح؛

ولننظر في هذا الخلق النبوي العلي ابتداءً، فماذا نجد في هذه الصفات العشرة؟ فيها حديث عن شيئين هما مراجع الصلاح في الإنسان، ومراجع الإصلاح منه، وعنوان النبوة الصلاح والإصلاح، وذلك نعت النبي ﷺ من الملائكة، ومن الأنبياء في ليلة المعراج بقولهم: مرحبا بالابن الصالح، والنبي الصالح، والأخ الصالح، الصلاح عنوان النبوة، والإصلاح عنوان الرسالة، ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْأَصْلَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]، أو لنقل إن الصلاح وصف النبوة ومتعلقها، والإصلاح وجه مقصد الرسالة وغايتها.

مراجع الصلاح من خلال ما لاح في صدر سورة الفلاح؛

وفي صدر سورة «المؤمنون» بيان لمرجع الكمال في الجهتين:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1 - 2] والخشوع إنما يكون بقلب المصلي حضورا واستحضارا لكمال الله الذي يصلي له، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، الخشوع تذلل الباطن، والخضوع تذلل الظاهر، ذل باطنك للعليم بك في مقام المناجاة، العليم بضعفك، العليم بعيبك، العليم بتقصيرك، ... هذا اللون من الإحساس إزاء الكمال العلي هو مبعث الخشوع.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 3]، بعد وصفه للقلب - المضغعة التي منها يكون صلاح الإنسان - بأنها على تمام العرفان والإذعان خشوعا، ثنى بوصف اللسان، «عن اللغو معرضون»، براءة اللسان ليس فقط بعدم الخوض، بل بالإعراض الكلي استنكارا ورفضاً لكل ما لا يفيد، بله أن يكون من قبيل الخوض في الأعراض وما لا يحل.

ولما كان صلاح القلب بالخشوع، واللسان بترك اللغو، زاد سبحانه فوصفهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ يَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 4]، صلاح اليد بالبذل والعطاء، على القول بأن المراد بالزكاة، الزكاة المالية، لأن الزكاة فعلا فرضت في مكة، والسورة مكية، ولكن دون تفصيل في المقادير والأنصبة وما إليها من التفاصيل.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: 5] عفة وطهارة.

وإذا كانت هذه الأربعة هي عناوين الصلاح، طهارة القلب بحلول الخشية؛ خشية الله، وطهارة اللسان بترك اللغو وإشغاله بالذكر وما إليه، وطهارة اليد من وصف الشح والبخل بالبذل والإنفاق، وطهارة الفرج بعدم وضعه في غير حِلِّه ومحله، فأين هي عناوين الإصلاح إذا؟

عناوين الإصلاح في صفات المؤمنين كما تجليها سورتهم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: 8]، الأمانة ما يوضع بين يديك، والعهد ما تتعاهد أنت مع الآخر عليه، ما تعطيه أنت من التزامات، ما تُحَمِّلُهُ أمانة، وما تَحَمِّلُهُ تعهد، أمانات وعهود مرعية، هذا مرجع الإصلاح، الذي يرعى الأمانة إنسان صالح مصلح، والذي يفي بالعهود ويتمها ويكملها، سواء كانت أهلية، أو محلية، أو دولية، في صلته بالناس كل الناس، الوفاء بالعهد عنوان من عناوين الإصلاح الكبيرة، ورعاية الأمانة معقد الديانة «لا إيمان لمن لا أمانة له» كما في الحديث.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: 9]، جاء في الأثر أن من حافظ على صلاته فهو لما سواها أحفظ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

هؤلاء هم الوارثون؛ ووراثتهم تامة في غاية القرب، لأنهم يكونون بالجوار هناك، وفي ضمنها بشارة بوراثة التمكين هنا، يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴿53﴾ [النور: 53]، ولكن لما كانت عين المتعبد المؤمن إنما ترنوا إلى هذا المقام الأكمل، وكان لا يشبع من خير حتى يكون منتهاه الجنة، جاءت البشارة دالة على وراثة الخلود، ولأن هذه الدنيا والتمكين فيها ونعمها عارضة وطارئة وزائلة، إلا إذا كانت على الدرب، فهي من مطالب الدين، والتمكين فيها منحة إلهية ومنة عليّة.

حديث القرآن عن مضمون الرسالة وتاريخ الرسل في معرض الاستدلال على نبوة رسول الله ﷺ :

هذه القيم المذكورة في صدر سورة «المؤمنون»، وهي مثال للكمال المطلق الذي جاء به النبي ﷺ، ومثله وتحمله، وكان فيه أنموذجه العلي، فلماذا يتنكب الناس طريق هذا الكمال؟ ولماذا لا يسلكون هذا السبيل الذي هو في غاية الجمالية؟ وحتى الذي لا يقوى على أن يسلك سبيله، فإنه على الأقل يحتفظ بنوع قداسة ونوع من احترام إزاء هذا اللون من ألوان الكمال، أما أن يتحول إلى خصم عنيد، وإلى من سماه القرآن «ناكص على العقب»، في قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْفَافِكُمْ تَنَكُّصُونَ﴾ [المؤمنون: 67] يتلوها من؟ محمد ﷺ، ويقدم نموذجهما، ويبين منهاجها، ومنه هذه الآيات في صدر سورة المؤمنين ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْفَافِكُمْ تَنَكُّصُونَ﴾، النكوص على العقب من أبشع صور الفرار والهروب، الهروب النافر، ﴿وَلَبِئْسَ مَذِيرًا وَلَمْ يُعَفِّبْ﴾، الناكص معرض إعراضا كلياً عن هذا النموذج العلي.

ونتساءل، هذا الإعراض، ما وراءه؟ ويجيبنا القرآن بأن وراءه قلب مستكبر ولسان مستسخر، ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: 68].

والاستكبار تطاول على الحق مقابل خشية القلب لله في صورة مجردة، فهل كان لهؤلاء سبب ما؟ متعلق ما؟ متمسك ما؟ يُدلّون به لتبرير أو لتسويغ هذه الألوان من الاستكبار على الحق؟ والاستصغار للخلق؟.

القرآن يقول: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 69]، وهذا استفهام إنكاري يُراد به: تدبروا القول، وقفوا على دلائل النبوة فيه، لكنهم ما سلّموا.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾، فيه إشارة إلى التأمل في دلائل النبوة، ومنها هذا الكتاب، الذي هو المدخل لمعرفة النموذج الكامل في أسوة رسول الله ﷺ.

﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾، «أم» الإضرابية، بمعنى هل كانت بعثة النبي استثناء وبدعاً؟ هل جاءهم النبي بشيء لم تكن عليه النبوة في تاريخها؟ في عودة إلى الحديث عن تاريخ النبوة في مقام الدلائل، واستدل القرآن بهذا في مقامات منها: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 162]، ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا فَدَّيْلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: 42] الاستدلال بسنن التاريخ في النبوة والبعثة.

إذا، لا هم التفتوا إلى الرسالة كدليل على صدق النبي، ولا هم التفتوا إلى تاريخ النبوة ليقفوا على الحقيقة، ﴿فَلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 8]، ما كان النبي نشازاً أو غريباً في تاريخ النبوة.

اتحاد القصد والوسيلة في باب الاستدلال على نبوة رسول الله ﷺ :

حين يُسأل الواحد من أهل الإيمان: ما دليلك على أن محمداً ابن عبد الله رسول الله؟ فإنه لا غرابة أن تقول: هو نفسه دليلي على أنه رسول الله ﷺ، يلمح إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: 70]

بمعنى أنهم عرفوه، وفيها دليل على أن معرفة شخصية النبي في صدقه، في براءته، في أمانته، معرفة ذلك موجبة لتصديقه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [المؤمنون: 71]، وهم يعرفون العقل النبوي، ويسلمون إلى فطانته ﷺ، وينعتونه بالأمين، ويحتكمون إليه، ولا يحتكمون في عرفهم لسفيهه، احتكموا إليه قبيل نبوءته في مسألة وضع الحجر، وأشركوه في حلف الفضول وحرب الفجار، وهما هما شهادة من الأكابر بجدارة رسول الله قبل بعثته ليتدخل ويحكم، ويكون له رأي معتبر في شأن الإمرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾، والآية الأخرى تُنَكِّتُ عليهم؛ ﴿فَلِإِنَّمَا أَعْظَمَكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرْدِي ثُمَّ تَبْكَرُوا مَا بِصَدْحِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: 46]، توجيه لهم وإلزام بحجة قاطعة، أن يستدلوا بصحبتهم له على عهد إعفاء ذمته، الإنسان لا يمكن أن يخفى عليه صاحبه، لا يخفى على صاحبه وجه اختلاله، «صاحبكم»، ألم تصاحبوه أربعين سنة؟ أين ظهر الاختلال والجنّة في عقل رسول الله ﷺ؟! حاشاه صلى الله عليه وعلى آله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ ثم أفصح بـ«بل»، التي هي أم أدوات الإضراب، في الجمل السابقة كانت «أم» الموزنة بكون الإضراب استفهاميا، الإنسان يفصح بـ«بل» لموجب، وهو هنا لبيان السبب الحقيقي وراء هذا النكوص والاستكبار، ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾، كراهية الحق الذي جاء به هي السبب وراء هذا اللون من ألوان النكوص، كراهية الحق بسبب الإلف المزدوج.

في بيان أن سبب الانعواج المزدوج اعتراضا وإعراضا هو الوهم والهوى؛

من المقرر أن العقل والفكر يفسد بالوهم، وأن القلب والوجدان يفسد بالهوى، والإنسان إذا ألف العوج فإنه يتنكر للاستقامة المطلقة، فإذا وجد

السبيل إليها أنكرها غاية الإنكار، لأنه بإلفه ذاك يرى الاستقامة بعين انعواجه وبعين انعراجها وبعين انحرافه.

﴿وَلَوْ لَبَتَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَبَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 72]، لو تنازل الحق عند مطالب هؤلاء السفهاء، فبعث النبي كما يريدون، ونزل عند أهوائهم، وأرسل إليهم وفق مقترحاتهم فوافقهم على ذلك، أو لو تنازل النبي معهم عن مقامه إلى المقامات التي دونه كما اقترحوا عليه أن يعبد معهم آلهتهم، ويرجع إلى دينه في خاتمة نهاره، وأن يوافقهم في مسائلهم، فجانَبَ الْحَقُّ الذي ابتعث به، لو كان شيء من ذلك لنتج عنه الفساد في الكون كله، عُلوّه وسُفْلُهُ، ولذلك جاء التعبير القرآني بـ﴿وَلَوْ لَبَتَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾، فلم يتبع هواهم، وهو ما لقنه الله لنبيه وصرح به بقوله: ﴿فَلْيَأْيَأِهَا الْكَافِرُونَ﴾ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥ [الكافرون: 1-6].

ثم يقول القرآن بعد هذه الآية المعارضة في سياق بيان خلفيات المعارضين والمعارضين، وهو اعتراض افتراضي، وافتراض الباطل لكشف زيفه من الأشياء المقررة في الجدل، وهو من أساليب القرآن والسنة، كما هو مقرر في علم الحوار والمناظرة.

الاعتراض سببه الوهم، والإعراض سببه الهوى:

يقول تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 72]، والذكر هنا الشرف، وهؤلاء لا يريدون الشرف، ألفوا السَّفْحَ، ألفوا الانحطاط، ألفوا الانبطاح، والقرآن جاء يدعوهم أن يخرجوا من الضلال بهداية الله، أضلتهم الأوهام والأهواء، الأوهام اغتالت العقل، والأهواء

اغتالت الروح، فضاع الإنسان بين هذه وهذه.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْحَا رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: 73]، لعل هذا الامتناع منهم وهذا النكوص بسبب مغرم مُثْقِلٍ حصل منك، النبي ما كان يطالب بشيء مقابل الهداية، فقط كان يأمرهم بحفظ العهد ورعاية الوداد، وهو اعتبار الصلة بينه وبينهم، أن يحفظوا صلته، فكان يقول لهم: «اعرفوا لي فضلي فيكم»، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: 21]، احفظوا قرابتي فيكم، وسيدنا ابن حزم رحمه الله يقول بأنه لرسول الله ولادة في كل القبائل، وبوب عليها في جوامع السير⁽¹⁾، وبين ذلك بناءً على أثر من الصحابة صحَّ عنده، وهكذا الأنبياء يبعثون في أنساب أقوامهم.

النبي الكريم ﷺ ما فتى ينبههم ويذكرهم قائلاً: على الأقل اعرفوا لي هذه الصلة، رغم أنه ﷺ يريد صلة النسب الأتم، لا صلة الدم، ولكن إذا انعدمت مراعاة الأولى، فعلى الأقل تبقى هذه، لأن الرجل تخاطب فيه دينه، فإن لم يكن فيه تخاطب عقله، فإن لم يكن فيه تخاطب مروءته وصلته، ولا بد من مرجعية لخطاب الإلزام، وإلا انعدم تصور الوثام بأي شكل من الأشكال.

مقام رسول الله ﷺ في أمته كمقام الروح في الجسد:

إذا، آيات سورة «المؤمنون» تنبهنا في مقام الدلائل على أن الواقف خصماً للكمال الأحمدى، لم تكن خلفية موقفه إلا في شيء واحد، هو كراهيته للنور، وبغضه للضياء، وإلفه للسفح والهوان، وتنازله عن كل صور التكميل التي يريد الله جل في علاه أن يُكَمِّلَ بها البشرية، ومن أجلها تكميلها بالتشريف المحمدي ﷺ،

(1) صدر ابن حزم رحمه الله بالموضوع، موضوع نسب رسول الله ﷺ في أول أبواب كتابه «-جوامع السير»، وبين اتصال نسبه الشريف بكل القبائل العربية.

حتى قال أهل العلم بأن مقام رسول الله في أمته كمقام الروح في الجسد، فلا حراك للأمة بغير إحياء نبيها فيها، إحياءه بإحياء الصلة به، بسيرته وسنته. وبهذا اللون من ألوان الصلة به، تعزيزاً وتوقيراً؛ يكون تمام الوصل المطلوب، لأن التعزيز نصرة، والتوقير إجلال، التعزيز يأخذ منك يدك وجهادك، والتوقير يأخذ منك قلبك وفؤادك، ولا بد من الصلة على هذين المستويين بهذه الروح التي بدونها لا اجتماع للأمة.

ونقول بأن الوصل به هو ﷺ، ونحن نعي ما نقول، لأنه صورة للكتاب المنزل إليه، والذي امتد من بعده، بل إن حضوره مستمر ما بقيت رسالته، كما سنبينه بعد، فوجب أن نحیی ذكره، ونحيا من خلال الذكرى، ولا شيء يقف في وجه الذكرى إلا الخصوم للذكر، ما دامت على مقاس الذكر، دون أن يشوبها ما هو ضد عليه، مما لا يرضاه صاحب الذكرى، فساعتها نصبح أيضاً نحن خصوماً لها لكونها على غير هدي النبي ﷺ وعلى آله.

مقامات التصريح بالاسم الصريح لسيدنا رسول الله في القرآن الكريم:

لو حاولنا استقصاء جوانب التعريف بسيدنا رسول الله ﷺ في الكتاب فإن المقام يطول، ولذلك أجتزئ للإشارة إلى المقامات التي ذكر فيها ﷺ باسمه الشريف؛ «محمد وأحمد»، حيث ذكر خمس مرات، أولها في الطوال في سورة آل عمران، ومرتين في المثاني؛ في الأحزاب وفي سورة القتال، ومرتين في المفصل؛ في سورة الفتح وفي سورة الصف، وفي كل مرة يراد لمناسبات وأسرار يدركها الكبار من أهل الاستبصار، ويشاهدون فيها أموراً وحكماً تندُّ عن الحصر.

مقام الاستدلال على أن موت النبي لا يعني انقطاع رسالته :

جاء ذكر رسول الله أول ما ذكر باسمه الصريح في سورة آل عمران، في سياق الدلالة على أنه لا نهاية للنبي بموته، لأن من بعده استمرار رسالته، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]، لا تنتهي النبوة بموت النبي، بل إن رسالته مُخلّدة، وهو مُخلّد بهذه الرسالة فينا، والحديث عنه في سورة آل عمران لمناسبة بينة، لأن هذه السورة معقودة لعائلات اصطفاها الله، موضوعها الأكبر حديث عن المصطفين الأخيار، ﴿إِنَّ اللَّهَ ابْطِطَبَعَ أَدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33]، وآل عمران فيهم مريم وأمها وابنها عيسى عليه السلام، وفي هذه الأسرة التي يتحدث عنها يجيء ذكر النبي باسمه الصريح، ولا بد من الانتباه للمناسبات في المقام، وكأني بالقرآن الكريم يقول للنبي: الحديث عن المصطفين والمُعْنِي أنت، جاء ظاهر الخطاب يتجه إلى هنا والمراد أنت، أراه وفي كل أراه صلى الله عليه في الأولين والآخرين.

ذكر بعض المناسبات في عدم التصريح بالاسم الصريح لسيد النبيين في السور المئين:

ثاني ذكر لاسمه الصريح في سور المثاني، وعدّينا على المئين لأنه لم يجيء ذكره باسمه الصريح، والمناسبة هنا تبدو لي في أن المئين جاءت مكان الإنجيل⁽¹⁾، فعوض بالبشارة، لأن الإنجيل معناه بالعبرانية البشارة، وهي بمحمد ﷺ. ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعَنِ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا تَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]، صلى الله عليه في الأولين

(1) في إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «أوتيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الإنجيل المئين، ومكان الزبور المثاني، وفضّلت بالمفصل».

والآخرين، فعَوَّضَتِ البشارةُ ذَكَرَ اسمه الصريح، والأعجب أنه عَوَّضَ في المئين بالإكثار من ذكر سيد النبيين بالضمير وبالوصف، ولا سعة فيما يبدووا لي لذكر ذلك، فليرجع إليها تصفحا لهذه المئين من سورة يونس طالعها ﴿أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: 2]، وفي المئين سورة إبراهيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْبَرَكَاتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1-2]، خطاب له ﴿لِتُخْرِجَ﴾ أنت ﴿النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، التي هي صراطك وأنت عليها، ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ② عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [يس: 2-3]، ووظيفة النبي هي الهداية إلى ذلكم الصراط المستقيم.

هذه المئين فيها حديث عن رسولنا من أولها «سورة يونس» إلى آخرها «سورة الفرقان» والمناسبة بيّنة للمتدبر.

بيان وجه الصلة برسول الله وذكر البشارة به في قسم المثاني:

وفي المثاني ثني ذكر رسول الله باسمه الأعلى في سورة الأحزاب وفي سورة القتال، على القول بأنها ليست من المفصل.

في سورة الأحزاب يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40]، الوصل به مؤسَّس على وصفه بـ«الرسول والخاتم»، وليس الوصل به وصلا بالنسب الأدنى دَمًا.

ليس هذا الذي بعث إليكم، والمسمى محمداً صلى الله عليه وعلى آله، ما كان أباً لأحد من رجالكم، ولكن رسول الله إليكم جميعاً، وخاتم النبيين، فلا التفات لسواه، لأنه الرسول، ولا معقب عليه لأنه الخاتم، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين.

والمقصود هنا بالأبوة المنفية الأبوة الدموية، لأن هناك أبوة ثابتة ومطلوبة، هي الأبوة الروحية العالية، والنسب الأرقى، ذلك أنه في صدر السورة على قراءة ابن مسعود خارج المتواتر «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم»، بمعنى أبوة الإشراف والتوجيه، والترشيد والتسيد، والولاية والعناية إلى لغاية.

التجلية بالتمثيل والبشارة في الإنجيل في قسم التفضيل:

وفي المفصل يُذكر النبى ﷺ أيضاً مرتين، في سورة الفتح ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: 29]، في آية لها العديد من الخصوصيات، وقف عندها جلّة من الناظرين في الكتاب، وفي سورة الصف المسبحة: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف: 1]، إلى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعْ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي إِسْمُهُ: أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَمِنٌ﴾ [الصف: 6].

جاء ذكر رسول الله ﷺ في سياقات التبشير والفتح: ﴿إِنَّا بَقَّحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1]، وفي خاتمتها ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، ثناء على الأخيار الذين هم في صحبته، هم ظلاله وغلاله، وهم على هذه الصور من الكمال، وذلك يحيل على أن اسم العلم في رسول الله ﷺ هو وصف أتم، وليس علما جامداً أو محضاً، بحيث ليس فيه شيء من دلالة الوصف على المسمى الموصوف، وأنه محض تمييز، لا، بل الدلالة في الاسم مقصودة، ورعايتها في فهم مقاصد الرسالة أمر واجب كما نبهنا إليه في غير هذا الموضع.

فهو ﷺ محمد، من «حُمَدَ»، مُضَعَّفٌ، فهو اسم مفعول من المضعف المبني للمفعول، المحمود بكثرة محامده ومحاسنه، محمود من الله، محمود من الملائكة، محمود من إخوانه النبيين، محمود من كل الناس، محمود بالصفات التي بلغت تمامها في سيرته وسنته.

وهو أحمد، على صيغة التفضيل، والأحمدية تعني بالنسبة إليه أنه أحمد الناس وأعبدهم، والعبادة حمد وشكر، ﴿بَلِ اللَّهِ بَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 63]، أي بالعبادة.

فالأحمدية في صلته بالله، والمحمودية في قدره ومقداره، وما يجب أن يحفظه الناس في صلتهم به، وهو ثنائي النبوة والرسالة، وانتبهوا للثنتين وعلاقتهما بالثنائي في المقامين.

وهكذا يتضح لنا هنا كيف توزعت الأعلام⁽¹⁾ في الأقسام الأربعة، وكيف جاءت في موارد مختلفة لتدلّ - والعلل لا تتزاحم كما يقول البلاغيون - على أن هذا النبي محمود أحمدي، كامل في الجهتين وبالصلتين، ومفتوح على الوجهين، تلقى النبوة من ربه، ويمضي بالرسالة إلى من بعث فيهم، وهو مثال لهذا الكمال الذي خلاصته النور، ﴿فَدَجَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 17]، قال بن جرير: «النور محمد والكتاب رسالته»، اللهم صل عليه في الأولين والآخرين وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين.

مقام ارتباط قدر رسول الله بحقه :

ومن المقامات التي نذكر بها هنا، مقام ارتباط القدر بالحق، وهذا ما كفانا إياه القاضي عياض رحمه الله حين أقام كتابه⁽²⁾ على صلة قدر رسول الله ﷺ بالحق

(1) المقصود توزيع ذكر رسول الله ﷺ باسمه العلم في أقسام القرآن الأربعة: (الطوال والمئين والمثنائي والمفصل)

(2) المقصود كتاب «الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ»، وهو كتاب يتوجب على طالب الوصل برسول الله أن يديم قراءته ومطالعة فصوله وأبوابه، كما يوصي به الشيخ حفظه الله لإذكاء جذوة المحبة في قلوب المؤمنين.

المرتّب له، وهذا الشيء انتزعه من قول الله في سورة الفتح، حيث جمع بين قدر رسول الله والحق المرتّب عليه (أي على ذلك القدر)، حقه علينا بمقتضى قدره وصفته: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَفِّرُوهُ ۖ وَتُسَبِّحُوهُ نُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 8 - 9]، فكون النبي ﷺ بهذه الصفات الثلاث المُجَلِّية لقدره العظيم، جاء بيانها لترتب عليها أحكام:

- وجوب الإيمان به، وهذا اعتقاد، بمعنى أن تؤمن بالله ورسوله، على ما تقرره الأصول في معاني الإيمان.
 - وجوب متابعتها، وهذا انقياد، بمعنى سلوك سبيله في السير إلى الله عن طواعية على ما تقرره الأصول في الاتّباع.
 - وجوب تعزيزه وهذا نصره وجهاد.
 - وجوب توقيره، وهذا من تمام المبرّة والوداد.
- ونصرة رسول الله تدرج تحتها كل أنواع النصرة؛ بالقلم، بالكلمة، بالخطبة، بالشعر، بالبيان، بالرد، بالدفاع، بدفع الشبه، بإيثار المحبة، بتدوين السيرة بقلم الشعر الرقيق، لتنفيذ لهذه القلوب التي ماتت أو كادت، وجف نضب معينها.
- ويجمع الحب ذلك كله، لأنه به نكتسب الرهان؛ «والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه» - انظر، فهذا رقم الأُحبية - «من والده وولده والناس أجمعين ومن نفسه التي بين جنبيه» الحديث، هذه ألوان من المحاب، والنبي حبك له فوق كل هذه، فحبك لأبيك حب توقير، ولابنك حب عطف، ولزوجك حب وداد، وللناس حب صداقة على مراتبها، فكيف ينبغي أن يكون حبنا لرسول الله حتى ينال هذه السوية وهذا المستوى من الأُحبية فوق كل هذه الطبقات؟..
- الواحد منا قد يذكر حبيباً له فيتغير بسبب شوقه إليه، وارتقابه إياه، وأنت حين تريد اختبار حبك لرسول الله، وقبل أن تصل إلى الأُحبية المطلوبة، أنظر إلى

المستوى المشترك منها، لأن اسم التفضيل يحيل على مشترك، بل يحيل على الزيادة المخصوصة بهذا الذي فيه تحققت الصفة المحبوبة على أتم وأعظم ما تكون في موصوف بها، فاقضى ذلك محبته تمام الأحبية.

في التأكيد على ضرورة الصدق والعمق في التعاطي مع ذكريات السيرة النبوية :

واسألوا قلوبكم، وأنا معكم، هل تنبض قلوبنا بحب المصطفى ﷺ؟ أم أصابها جفاف بسبب طول العهد بالكمال المحمدي؟ في أحوالنا وفي تعاملاتنا لا نرى أخلاق رسول الله، ومعارفنا من السيرة ضحلة، والفقه في أنوارها أضحل، وهو «أي الفقه في السيرة» ما يشكل القبس المضيء، والمنارة على الدرب، درب السائرين، ونهج الواصلين، وحتى أحفالننا حين نرفع هذه الأحداث كعناوين لها، فإنه يغيب فيها مظهران؛ الصدق والعمق، ويضل التحرك على مستوى غاية في السطحية، إلا استثناءات قليلة الله يعلمها، حتى لا نعم.

وهذه السطحية لا تفيدنا كثيرا في إحياء الحب النبوي، كما أن غياب الصدقية أيضا يجعل الوصل غير حميد بهذه القمة من الكمال العلي، فعوّد إلى تصحيح المسار، وعوّد إلى تصحيح الصلات بسيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله، ذلك أنه لا نستطيع أن ندرك الحقيقة المحمدية ونحن في وضع الدون:

وكيف يُدرك في الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

في أن تدبر الكتاب الكريم هو المدخل لتحصيل أنوار السيرة وأسرارها :

وأجتزئ الحديث فأقول: إننا نجد حضور رسول الله ﷺ الشريف في كل سور الكتاب، في مختلف المقامات، لتجلية معان منها: اصطفاءه، وتخصيصه، وصور اجتباؤه المتفرد، ولفت النظر إلى جوانب العظمة الفائقة، باعتباره ﷺ

مَجْلَى لِرِسَالَتِهِ، «رسالة القرآن تجلت فيه»، وأنه خُلِدَ فيها وخُلِدَ بها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: 51]؛ أي دليلاً على نبوءتك، فجَعَلَ الكتاب آيته، واتحدت الرسالة بالمعجزة، والآية بالغاية.

ومن هنا كان تدبر الكتاب الباب لمعرفة النبوءة، وكون المُتَلَقَّى وحياً منزلاً والمُتَلَقِّي نبياً مرسلًا، وصدق الله إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 81]، وحيث إنه لا يوجد فيه تناقض، فهو الباب لمعرفة المنزل ومن نزل إليه.

وهكذا يُخَلِّدُ النبي ﷺ بخلود رسالته، وتتجدد ذكراه بتلاوته، ونسعد نحن المتدبرون والقارئون لأنفاسه الشريفة من خلاله، إذ تلقاه النبي ﷺ بفؤاده، وتدبره بخلده، ورتله بلسانه تلذذا وتعبدًا، وانتهى إلينا الكتاب من يده الشريفة غصًا مسندًا، فله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين، وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

نظرات في حديث القرآن في المفصل عن النبي الأجل المفضل:

إذا انتقلنا إلى نظم الكتاب في الوصول، لنرى منه هذه الأمور في هذه المقامات، من خلال الأقسام الأربعة التي وردت في حديث واثلة بن الأسقع، الصحابي الجليل المعمر، الذي عاش زهاء مئة وخمس سنين، وروى له الجماعة، وفيه أن النبي ﷺ يقول: «أوتيت السبع الطوال مكان التوراة، والمئين مكان الإنجيل، والمثاني مكان الزبور، وفُضِّلْتُ بالمفصل»، صلى الله عليه وعلى آله، هذه الأقسام الأربعة على اختلاف في البدء في بعضها، نجد فيها الحديث عن رسول الله ﷺ في المقامات كلها التي سبق التذكير بها، وسنخصص من بينها ما سماه النبي بالمفصل، وهو القسم الذي فُضِّلَ به زيادة على ما في التوراة والإنجيل والزبور.

المفصل من الحجرات إلى سورة الناس، أو من القتال أي من سورة محمد إلى سورة الناس، أو من ق إلى سورة الناس، ومن يجعلها من «ق» فقد اعتمد حديث سيدنا أوس الثقفي. وفي كلها على أي من هذه الابتداءات، فيها ذكر رسول الله ﷺ في الصدر.

وسواء طواله أو أوسطه أو قصاره، كلها حديث عنه ﷺ أو إليه، لأن المفصل أيضا فيه طوال وأوسط وقصار:

طواله إلى عبس	أوسطه ضحى قبس
قصاره للختم	موصولة بالحثم ⁽¹⁾

انظر في هذا الجزء من أقسام الكتاب المسمى مفصلا، فماذا نرى؛ خذ سورة محمد لبدء طوالها على قول بعض المغاربة عندنا، ذلك أنه صح عند بعضنا في الجبل بدء المفصل من سورة محمد صلى الله عليه وعلى آله، وفيه قال القادري رحمه الله في نظم مطول بهي، في قراءة نافع:

وَصَحَّ فِي الْمَفْصَلِ مِنْ الْقِتَالِ مَنْجَلِي

«صح» ثبت، وفيها عدة سوره بحساب الجُمَّل، من سورة القتال إلى سورة الناس، فالصاد ستون، والحاء ثمانية، أي ثمان وستون سورة.

فسورة محمد عنوانها اسمه الشريف، هذا الذي فضل به ﷺ، بدايتها عنوان السورة، اسمه عنوان طواله وفيها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ

(1) معنى موصولة بالحثم: أنه في الختم بسورتي التعوذ؛ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقُلُوبِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْكَافِرِينَ﴾، كأنك تقول: عود على بدء، نتعوذ للبدء بالكتاب مجددا، لأنه بذلك أمرنا: ﴿وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، استعاذة له، وهنا «أي في المعوذتين» استعاذة فيه، والاستعاذة فيها الحال المرتحل لأنه من أفضل الأعمال، كما قال سيدنا الشاطبي في باب التكبي في خاتمة الحرز:

عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَبَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿[محمد: 2]﴾، في ثناء فائق.
وعلى القول بأن بداية المفصل من سورة الحجرات؛ ففيها نداء للمؤمنين
لرعاية مقام النبوة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1]، مناداة المؤمنين بعدم تقديم أحد على رسول الله، وهو
المراد، وإنما ذكر الله هنا لما يسميه أهل العلم بالبلاغة بالإقحام لغاية الإعظام،
أي أن المقصود لا تقدموا بين يدي رسول الله، وذكر الله لترتيب⁽¹⁾ المهابة، لأن
من أطاع الرسول فقد أطاع الله، أسلوب التنزيل لترتيب المهابة في صدور
المتلقين إعظاما لمقام رسول الله ﷺ.

وفيها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، لا ترفعوا، تعليم للأدب العالي
مع حضرة رسول الله في خطابه وفي حضرته، لا تجهروا له، ولا ترفعوا الصوت
في حضرته، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
لِلتَّفَوُّي لَهُمْ مَغْغِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: 3] وليس له فقط، «عنده»، حتى والمخاطب
غيره، إذا كان بحضرته فإنه وجب رعاية المقام الشريف.

الاستدلال على أن البشرية لا تنافي الكمال:

وسورة «ق» على قول من قال بأنها أولى سور المفصل، معتمدا على حديث
سيدنا أوس الثقفي، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق وَالْفُرَّانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ
مُنْذِرٌ مِنْهُمْ بِفَالِ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: 1-2]، يعني محمد ﷺ، ومما يشير إليه
القاف هنا برأينا عند من يرى أن هذه الفواتح محل للتدبر ولو كانت هجائية⁽²⁾،

(1) المقصود بتربية المهابة، ما يجعل الواحد يهاب مقام الرب ﷻ، لأن التعلق بوصف الربوبية ينشئ
وينمي المهابة في قلوب المؤمنين.

(2) وقول من قال من أئمتنا بأن الله أعلم بالمراد فإنما يعني على القطع، أما على الاحتمال فالباب مفتوح،
لكن لا يقال بأن هذا هو المراد وغيره لا يجوز.

فالقاف هنا تلخص - وأسلوب التلخيص الاختزالي هذا معروف في أساليب الكتابة التي أنزل بها القرآن أولا - تلخص قاف الحق، وقاف الصدق، وقاف الرفق، وقاف العتق⁽¹⁾.

الحق والصدق هما مرجعا الكمال في الكتاب وأصل مجادته⁽²⁾، ﴿قَ وَالْفُرَّانِ الْمَجِيدِ﴾، ولا يكون القول مجيدا إلا إذا كان صادقا وحاقا في نفسه، فنسيج القرآن وسر مجادته صدق مضامينه، وأحقية أحكامه، قسم بالحق والصدق معطوف عليها القسم بالكتاب بالوصف الذي هو نتيجة للوصفين المختزلين في حرف القاف.

﴿قَ﴾ تنبيه، ﴿وَالْفُرَّانِ الْمَجِيدِ﴾ تنويه، وكلاهما قسم بالرسالة وبمادتها - الذي هو الحرف أصل الكلمة؛ والكلمة التي هي مبنى النظم، والنظم الذي سره ومجادته في صدقيته وحقيقته - قسم على أحقية المكلف بالنبوة وأهليته، رغم بشريته التي لا تنافي الكمال.

﴿بَلْ عَجَبُوا﴾، كلمة «بل الإضرابية» تنبئ عن مضروب عليه، هو جواب القسم. القسم بـ«القاف» رمزا للصدق والحق، وبالرسالة بعنوان المجادة، وحذف الجواب لسر بلاغي، وتقديره: «إنك لصادق»، ولكن إنما كذبوك لاستغراب طرأ على بالهم، وليس لأسباب موجبة، ولا لعل مقبولة في الباب، بل مجرد استغراب حل في مداركهم فأفسدها، وكان أن حادوا عن الصراط المستقيم.

(1) حفظت من شيخنا جزاءه الله خيرا، أنه يقول دائما بأنه ينبغي مراعاة هذه الحقائق الكبرى في شريعة الإسلام، وهي أن القرآن نزل بالحق، والنبي جاء بالصدق، وبلغه ودعا إليه بالرفق، ومقصوده الأعظم العتق، عتق الخلائق من النار في الآخرة، وعتقهم من فتن الحياة في الدنيا، وهذه الكلمات أو قل (القافات)، تجمع مصدر الشريعة وموضوعها ومنهجها وغايتها.

(2) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

«بل عجبوا»؛ استغربوا - على ما تستغربه الجاهلية إزاء ما يخالف حسها ومعيارياتها المادية - «أن جاءهم منذر منهم»، فهم إذاً ينطلقون من أن مثل البشر لا يرقى إلى مستوى الأخذ عن الله، ولذلك جاء في هذا المقام تأكيد بشرية الرسول، وهذا ليس كما يظن البعض من ناظرين في الكتاب من بعض الدعاة، أن المراد بالحديث عن بشرية النبي هو أن لا يغلو الناس فيه قدرا ومقدارا، أبدا، لا يأتي في هذا السياق أبدا، وإنما جاء في مقام الاستدلال على مثلية النبي لسائر الأنبياء من قبله، والتأكيد على المثلية لبيان أن «البشرية» لا تمنع الارتقاء والاصطفاء، وأن تلك سنة الله في الذين مضوا من الهداة، دليل ذلك وجود مثل محمد ﷺ، وتلك إرادة الله في إيجاد هذا الكمال بهذا اللون من ألوان التكميل بالتلقي والبعث والإرسال، يقول تعالى تأكيدا لهاته الحقيقة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَجُلًا يُؤْتِيهِم مَّا يَشَاءُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ وِتْنَةً أَتَضَرَّوْنَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: 39]، يأكلون ويتناسلون، ويمشون في الأسواق.

القسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم على عظيم منة الله عليه :

وفي خاتمة أوساط المفصل، نجد تعلق الحديث بالمصطفى واضح جلي، ﴿وَالصُّبْحِ ۝۱ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝۲ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝۳﴾ [الضحى: 1-5]، ولقد أعطاك: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَغَاوَى ۝۴ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝۵ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۝۶﴾ [الضحى: 6-8].

وهذه الخاتمة من سورة الضحى، فيها خلاصة لموضوعات السيرة، يعني

مراحل حياة رسول الله ﷺ، في زمن الطفولة، النبي ولد يتيماً ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ وجدان العلم، لقد علمك موجوداً يتيماً، ولذلك أحاطك بالإيواء، وهو ضم التقريب، فسر لك المرضعة والكفيل، جدّاً وعمّاً، وألطافاً أخرى حفت بديار بني سعد، ووُصِّل إليك مَنْ شَقَّ عن صدرك وأزال حظ الشيطان منه لغاية كمال وعصمة، من عهد النشوء وزمن والطفولة، أسرار إلهية حفت بعين الوجود صلى الله عليه وعلى آله.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ ٦ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: 6-7]، على حدّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَإِمَّةً ۚ آيَةً ۖ وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رُحُوتٍ ذَاتِ فَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: 51]، الإيواء قمة تكريم، ولما دخل إخوة يوسف عليه، بعدما طلب منهم إحضار أخيهما آواه إليه لتطمينه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَكَانٍ نَّوْأَيُّعْمَلُونَ﴾ [يوسف: 69]، وفي المرة الأخرى وهو مشتاق لأبويه، أربعين سنة من الفراق، لما دخلوا عليه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: 99]، تحدث عن مشهدية العناق والتكريم والإنزال، حيث نزل عن كرسیه وخلع عليهم لباسه، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100].

سراج النبوة يمحو ظلام الجاهلية :

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ ٦ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: 6-7]، في زمن ضال^(١)، النبي ﷺ لم يكن ضالاً على مقاس ضلال الجاهلية، الذي جاء

(١) ذكر الإمام الماوردي في النكت والعيون مجموعة من التأويلات في هذه الآية لجلة من علماء السلف

رحمهم الله، حيث قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: 7]: فيه تسعة تأويلات:

- أحدها: وجدك لا تعرف الحق فهذاك إليه، قاله ابن عيسى.
- الثاني: ووجدك ضالاً عن النبوة فهذاك إليها، قاله الطبري.
- الثالث: ووجد قومك في ضلال فهذاك إلى إرشادهم، وهذا معنى قول السدي.

بيانه في القرآن بوصف الضلال المبين، أو وضع الشِّفاء، ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شِبَاحُفَرَةٍ
مِّنَ النَّارِ فَأَنْفَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: 103]، لم يكن ﷺ على هذا النحو من الضلال
- أبداً - وإنما كان ضالاً عن كمال الوحي، لم يوحَ إليه على امتداد أربعين سنة،
ولما حان زمن البعثة وجاء إبانها، أوحى الله إليه وبين ذلك، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي
بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 49]، الكتاب الرسالة،
والإيمان النبوة غيباً وخبراً.

يقول له تعالى: إنك ولدت في زمن الضلال، أو على ما يحتمله اللفظ من
معاني التطلع للفرج، لأن الإنسان حين يعتريه حال يجعله منشغلاً بطلب شيء
له به تعلق زائد، يقال فيه ضلال، ولذلك وصف به إخوة يوسف أباهم بقولهم:
﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 95]، يعنون في حبك ليوسف، فهذا
المعنى يمكن أن يدخل فيه تعلق رسول الله وانتظاراته للخلاص، النبي ﷺ حين
أراد أن يبين عن حاله قبل البعثة قال: «بُغِضْتُ إِلَيَّ الجاهلية»، نفور زائد، لم

-
- الرابع: ووجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها.
 - الخامس: ووجدك ناسياً فأذكرك، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: 281].
 - السادس: ووجدك طالبا القبلة فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى الطلب، لأن الضال طالب.
 - السابع: ووجدك متحيراً في بيان ما نزل عليك فهداك إليه، فيكون الضلال بمعنى التحير، لأن الضال متحير.

- الثامن: ووجدك ضائعاً في قومك فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى الضياع، لأن الضال ضائع.
- التاسع: ووجدك محباً للهداية فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قوله تعالى:
﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 95]، أي في محبتك، قال الشاعر:

هذا الضلال أشاب مني المفرقا والعارضين ولم أكن مُتَحَقِّقاً
عَجَباً لِعِزَّةٍ في اختيار قطيعتي بعد الضلال فحبُّها قد أخلقاً

وقرأ الحسن: «ووجدك ضالاً فهدي»، أي وجدك الضالاً فاهتدى بك.

يكتف بالقول بأنه لم يكن يحبها، بل بُغِّضت إليه، ليس أبغضتها، بُغِّضت غاية، ولذلك لم يثبت في السيرة المكشوفة المفتوحة، وحياة النبي ﷺ تحت ضوء الشمس، حياته كلها، بل يومياته، نشرها للعدو قبل الصديق، والمخالف قبل الموالف، ما عاقر خمرا، ولا تعاوى عهرا صلى الله عليه وعلى آله، ولا مست يمينه صنما، ولا شاركهم في هذه الوثنية، وهم مرة بشيء من فعل الجاهلية لما قصد السماع للغناء في إحدى أحفال الجاهلية، قال ﷺ: «هممت مرتين في كليهما يصرف الله السوء عني»، يجيء إلى قائمها، فينومه الله إلى طلوع الشمس حتى يعصم أذنه التي ستلقى الكلمات التامة، يقول ﷺ: «كل ذلك يعصمني الله».

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: 7]، الهداية: الدلالة الموصلة إلى البُغية، ولا تسمى الدلالة دون الإيصال هداية، لأنه قد تدرج تحت الدلالة أستار تكون عقبات دون الوصول إلى تمام المراد، ولذلك لا يسمى كل دليل هاد، قد يكون دالا، لكن ليس دلالة كاملة ولا هي موصلة، لكن نبينا ﷺ أنعم الله عليه بأنعم الكمال الاهتدائية.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: 8]، في حال العيلة، وهو نوع من الفقر، لا نقول فوجدك فقيرا، لا يجوز أن نقول كان فقيرا، لأن الفقير من أصيب فقار ظهره، يعني تعذر عليه الكسب، حتى ولو تكسَّب بعرق جبينه، العائل هو الذي يتوقف قوته على كسب جبينه، فإذا توقف توقف، والنبي لم يصل إلى هذا المستوى من العدم أبدا.

وهذه الألوان من لطف الله بنبيه، فيها حكم عظيمة وأسرار كبيرة، وقف عليها بعض أهل العلم بالتفكر، حيث مر به وأذاقه صنوفا من المذاق، ذواقات هي على مقاس أحوال أمته، ففي أمته يتم، وفي أمته عيال، وفي أمته ضلال يبحثون عن الكمال، الله أذاقه من كل هذه الآلام ذواقا معتدلا لا يخرج به إلى حد الشذوذ

والانحراف، ويوصيه ربه بأهل هذه الضوابط، ويجاهد هو ﷺ في إزالة كل هذه المتاعب، إذ يعز عليه ما يُعتنا ويشق علينا، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 129]، كل ما يشق على أُمته يشق عليه ويعز عليه، وتلك شِمة الكَمَل من الهداة.

المنة على رسول الله بشرح الصدر ووضع الوزر ورفع القدر:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1]، تقرير من الله لنبيه بأنه منَّ عليه وأتمَّ فضله عليه بما أوصله إليه، وعدد إليه أموراً منها:

شرح الصدر:

شرح له صدره، والعرب تقول: شرح له؛ وسَّعَ له، وذلك بالنسبة لصدر نبينا بتوسعته بالعلم، وإعمارهِ بالإيمان، وحشوه بالحكمة، ومن ذلك ضمنا حادثة الشق التي فيها إشارة إلى هذا اللون من ألوان الشرح، بل كان فعلاً شرحاً بالمشرحة، نزل الملكان، وشقَّ صدره الشريف، وغسلا قلبه الطاهر، وهذه معجزة، وخاطاه، وفي رواية وختماه، ورجح الحافظ مغلطاي «ختماه» بمعنى أن الختم جاء بعد خياطة الصدر، على قولين، هل ولد به أم ختم بعد شقه.

وفيه حديث أنس «والله لقد كنت أرى أثر الخيط في صدر رسول الله ﷺ»، أشياء كشفها الله لخصوص صحبه تأنيساً لهم بمشاهد من عالم الغيب موصولة بعالم الشهادة.

وضع الوزر:

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ [الشرح: 2-3]، وأي وزر لرسول الله ﷺ؟ قيل هذه تلميح للعصمة، أي وضعنا عنك ما لولا العصمة

لكان وزرا، لولا أننا عصمناك لكان إثما، هذا قول، ومن احتملات الآية: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، الوزر ثقل هموم الجاهلية، وأعباء الدعوة المضنية، كلها صور من الوزر، يسره الله ليسرى، ويسر له الأعوان يحملون معه هذه الشريعة المطهرة من خصوص صحبه، الذين حين نمدحهم إنما نمدح ظل رسول الله ﷺ وأثر جهاده الشريف، وقد مُدِّحُوا بالمعية في قول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، معه، والمعية أثر الصحبة، والذين يذُمُّون أصحاب رسول الله، ينسون أنهم يتحدثون عن أثر رسول الله، الذي إذا كان غير كامل، انعكس الظل على الأصل، أنت تدم النبي بهذا اللون من ألوان الحديث عن الصحابة بأي نوع من التخصيس، نعوذ بالله من نزغات إبليس.

رفع الذكر في نظم التوحيد ولحن الإقامة :

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4]، ما ذكر الله ﷻ إلا ذكر نبيه معه ﷺ، ونحن في العقد الرابع من القرن الخامس عشر الهجري، ولا زال رسول الله مرفوعاً إلى جوار من بعثه في نظم توحيد؛ «أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»، ولحن النداء للصلاة وبيان إقامتها، الله أكبر الله أكبر، وأشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الفلاح». ورفعنا لك ذكرك بالنبوة والرسالة، وبألوان من الكمال والتخصيص، اللهم صلّ على سيدنا محمد في الأولين والآخرين.

وأعذر في ختام هذه الكلمات، وربما بعثرت القول، وأنا أحس بذلك، لأن المقام مقام تحير بحق، المُتحدِّثُ عنه آيات الله الكبرى، سيد الأنبياء، خاتمهم ومسكهم الأذفر ﷺ، والمتحدِّثُ عنه ربه ﷻ، في كلماته التامة الخاتمة، أتى إذاً الوضع أن يرتقي

لمقام شبه الوفاء لهذا المقام الرفيع، ويتحدث عن السيد الأتم الأكمل، سيد الأنبياء، من خلال كتاب هو سيد كتب الله باتفاق، يقول الله في كتابه: ﴿وَلَوَ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلَكُمْ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 26]، فيه إشارة إلى بلوغ الغاية في السعة والعمق، والغنى والصدق، والكمال في باب المعنى والمبنى، نظماً وحكماً ورسمًا، فتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

والله جل في علاه مأمول أن يتجاوز عن التقصير، وأن يشملنا بعفوه الكريم، ونجدد أبيات الشاطبي رحمه الله، القاسم بن خلف بن فيره، في خاتمة حرز الأمانى:

فيا خير غفار ويا خير راحم ويا خير مأمول جداً وتفضلاً
إليك يدي منك الأيادي تمدها أجرني فلا أجري بجور فأخطلاً
أمين وأمنالأمين بسرهما وإن عثرت فهو الأمون تحملاً

اللهم صَلِّ على سيدنا محمد في الأولين والآخرين، وفي الملا الأعلى إلى يوم الدين، اللهم آتِه الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، واجزه عنا بما هو أهله، واجزه عنا بأفضل ما جزيته نبياً عن قومه، ورسولاً عن أمته، اللهم شفعه فينا بما آتته من المقام المحمود، والحوض المورود، يا غفار يا ودود، والحمد لله رب العالمين.



(3) أنوار الذكرى بحدث مولد صاحب الشريعة اليسرى

من آيات الاعتقاد في ديننا، والتي ينبغي الإصغاء إليها بسويداء الفؤاد؛ ما أخبر الحق ﷺ به عن نفسه بأنه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 27]؛ أي في أمر من أمور خلقه، يخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويشقي ويسعد، ويمنع ويرفد، حكيم فيما يفعل، ومن ثم لا يسأل، أقضيته بين عدل وفضل، لا مانع لما أعطى، ولا راد لما قضى، لا تغلظه المسائل، ولا يشغله سمع عن سمع، ﷺ في عليائه وثنائه وكبريائه.

وشؤون ربنا في أيامه العظمى مع خلقه بين تقدير وتدبير، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: 17]، فليست عقيدتنا عقيدة أهل الشرك والوثنية، الذين يرون في الله أنه خلق الخلق ثم تركه سدى، أو ودعه هملا، - حاشا لله - .

شؤون ربنا في أيامه مع خلقه، لا تخرج عن أيام من وأيام محن، وفي كلاهما ابتلاء منه ﷺ، يقول تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35]؛ أي للحكم بينكم فيمن شكر ومن صبر، ومن جزع ومن كفر.

أيام الله أيام من للتعريف والتحيب، وأيام محن للتصريف والتأديب، فهي بهذا الاعتبار ومن حيث المال، راجعة إلى شؤون الإفضال، وفيها تصديق قول نبينا ﷺ في مناجاته لربه: «والخير كله في يدك، والشر ليس إليك».

أيام الله وشؤونه أيام لفحات للتصريف، وأيام نفحات للتعريف، وعبوديتنا لربنا ﷺ تقتضي منا أن نشكر لمنه، وأن نصبر على محنه.

نعم إخوة الإيمان، أيام المنن كأيام المحن سواء، إنها محطات للذاكر، ومناسبات للاعتبار، وفرص لجني الثمار، والوقوف على الأسرار، والتذكير بها من مهام الرُشداء من المذكرين والوعاظ، يقول ربنا ﷺ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 7]، أي ليتيقنوا أنهم موردٌ للابتلاء، ومحلٌ للتمحيص والتصريف، لإظهار أهل التخصيص والتشريف، وأن ما يتناولهم من الأحداث، وما يتناولونه من تخمينات، هو مظهرٌ من مظاهر الحكمة في التقدير، ومجلًى لتدبير العليم الخبير.

وكما أنه ليس في خلق الله من تفاوتٍ أو تقصير، فليس في تدبير الله وتقديره من عبثٍ أو باطلٍ أو تعشير، يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَفْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [116-117]، ويقول تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ جَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [1] مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿[الأحقاف: 1-2].

ميلاد المصطفى يوم من أيام الله :

وإن من أجل أيام المنن الإلهية المقتضية للشكر العظيم منا لربنا، ذلكم اليوم الذي قضى فيه ﷺ بإبراز نبيّه الخاتم، من طور الضمور إلى طور الظهور، وهي شؤونٌ يُبديها تعالى ولا يبتديها⁽¹⁾، إذ سبقت مما مضى من قدره الأزلي، وصح قول نبينا ﷺ وقد سئل: متى كنت نبيا؟ قال: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين».

ميلاد المصطفى ﷺ مقدمة لمبعثه، وتوطئة لرسالته، وطورٌ عظيمٌ من أطوار

(1) فيه دفع لشبهة عقيدة البداء التي يعتقدونها اليهود، والتي تقول بأن الله يبدو له الأمر فيقضيه على حسب ما بدا له وطراء على علمه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

وجوده، وهو وإن كان ميلاداً عادياً في جُمْلته؛ أي ليس ميلاداً معجزاً كميلاد عيسى عليه السلام من أمٍّ فقط، ولا كميلاد حواء من ذكرٍ فقط، على ظاهر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَخَلَقْتُ مِنْ ضَلْعِ آدَمَ» وقول الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، ولا هو معجزٌ كخلق آدم من طين بفعل كلمة التكوين. إن الله تعالى جعل معجزة نبي الختام صلى الله عليه وسلم في رسالته، ليستمر الإعجاز والتحدي، وتخلد النبوءة من خلال خلود آياتها، وأيضاً لأن المعجزة المادية تموت بموت نبيها، وتكون حجة على عصرها ومن شاهدها، كما أن المناسب لطور الكمال الذي ستنهي إليه البشرية هو إقامة الحجة بالبراهين، وإظهار المحجة بالتبيين، ويُصبح الإقناع بديلاً للإخضاع، ودليل فهم الأسرار بديلاً عن دليل الإنبهار.

ومن هنا ندرك السرَّ في عدم استجابة القرآن الكريم لمقترحات الكافرين الماديين، وندرك سرَّ التأكيد على بشرية المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى حكاية لمقترحاتهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَبْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ⁽⁹⁰⁾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَبْجُرَ الْأَنْهَارَ خَلَلَهَا تَفْجِيرًا ⁽⁹¹⁾ أَوْ تُسْفِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ كَةِ فَبِيلًا ⁽⁹²⁾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ⁽⁹³⁾ [الإسراء: 90-93]، يقترحون عليه أموراً هي من اختصاص الله، فيلقنه القرآن الإجابة، فيجيبهم صلى الله عليه وسلم في تواضع: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

بعض الآيات المصاحبة لميلاد المصطفى عليه الصلاة والسلام

لقد كان ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيداً عن الخارقة، مصحوباً بشواهد مُصدّقة، وُلد صلى الله عليه وسلم من أبوين أصيلين طاهرين نسباً ومَحْتَدًا، في بيئة ترفضُ الهُجَنَاء، وتحترق الخُلطاء في الدم، وُلد صلى الله عليه وسلم تحت الشمس الساطعة الصافية، لا يُتهم في نسبٍ ولا في سببٍ صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد رافقت ميلاده الكريم إشاراتٌ أرضيةٌ

وسماوية، إشاراتٌ مُرهضةٌ تلفت النظر إلى اختياره ﷺ، وأن له شأنًا وأيُّ شأن، وتنبّه إلى أن عنايةً آتيةً لا محالة تُمهّد الطريق للنجم العلوي ﷺ، وتُقيم من شواهد الاعتبار ما يكون كالْحُجّة لأولي الأبصار.

1 - آية طيراأبائيل :

من ذلكم أن مولده ﷺ كان يوم الفيل على الصحيح، وليس في عامه فقط، كان ازدياد المصطفى ﷺ في فجر يوم حادثة الفيل؛ النبي يولد فجراً، وأبرهة وفيله ومردّته يُردّون ويدحرون ضحى، ردّ الله أبرهة الأحباش عن حرّمه، وعن بيته ومسقط رأس نبيه ﷺ بآية الطير: ﴿طَيْرًا أَبَائِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ وَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّاكُولٍ﴾ [الفيل: 3-5]، هذه آية في الأرض سارت بخبرها الركبان، وعرفها عرب الجزيرة ومن وراءهم، وتبينوا مُتقين أن للبيت رباً يحميه، وأن أمراً ما يُراد لهذه البلدة المُحرّمة المقدسة، وأن الله يدّخر لأهل الحرم ومن وراءهم ما لا يخطر على بال، كرامة ورفقاً ورفعة.

2 - آية النجم :

آية أخرى رافقت ميلاد المصطفى ﷺ؛ وهي آية تيقّنها الكتّابيون لتكون عليهم كالْحُجّة السابقة، وموقفهم - خصوصاً بنو إسرائيل - من الرسالة معلوم، فسبقت هذه الآية لتكون مرجع احتجاج، لقد قال أحد أئمة اليهود فجر ميلاد رسول الله ﷺ مخاطباً بني قومه مُبشّراً: «يا يهود، طلع نجمٌ أحمد الذي يولد به»، وكان ظنهم - وهم يستفتحون على العرب برسول الله ﷺ ويستنصرون به - أن يكون منهم، فلما جاءهم ما عرفوا؛ أي نعتهم وصفته ونبوءته، كفروا به، لأنه لم يجر على ما يَهْوُونَهُ ولا بما يَرْضَوْنَهُ، ولا ما إليه يميلون وفيه يرغبون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ

كَبُرُوا بِمَا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَبُرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ بَيْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكُفُّرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءً وَبِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٨٩﴾ [البقرة: ٨٨، ٨٩]، فإذا كان هذا صنيعهم إزاء رسول الله ﷺ ونبوءته الساطعة، بغياً وجحوداً، فكيف نرجو العدل منهم في مواقف اليوم؟.

3- رنين الشيطان حزناً وغيظاً :

وآية ثالثة يُقيمها الله ﷻ في العالم الخفي، عالم الجن، وهم أيضاً مُكلفون، ورسولنا في اعتقادنا مبعوثٌ للثقلين، إنسهم وجنّهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا يَفْقَهُمْنَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مَوْسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾ يَفْقَهُمْنَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٨ - ٣٠].

روى الإمام الحافظ بقي بن مخلد في مسنده، «أن الشيطان عليه لعائن الله رنّ أربع رناتٍ - أي صاح صياحاً مع حُزن شديد - رنّ يوم لُعن وطُرد، ويوم أُهبط وأُبعد، ويوم وُلد رسول الله ﷺ، ويوم نزلت فاتحة الكتاب من أعظم باب»، والسُرّ في ذلك أنه عليه لعائن الله، يعلمُ مما استرقه من السمع، أن نبياً إسمه محمد ﷺ سيبعثه الله، ليحيي به ما اندرس وما انمحي وتعطل من ملة الحنيفية، وأنه سيفتح به قلوباً غُلُفاً، وآذاناً صُمّاً، وأعيناً عُمية، وأنه نبي يحملُ البشائر والبصائر، إمام المرحمة وإمام الملحمة، الذي بُعث بالمكارم، وبُعث بالسيف الصارم لحماية المحارم ﷺ، فمبعثُهُ إذاً بالنسبة لإمام الكفر والشر، الشيطان الرجيم، يُعدُّ إعلماً قَدَرِيّاً بِقُرب اندحار جيوشه وأحزابه، وأنهم سيفقدون من

المواقع التي كانوا قد اكتسبوها من قبل، فتحسّر ألماً على ما سيواجهه، وعلى ما فاته أيضاً من كرامة الله ورضوانه حين أبى الطاعة، فطُرد في الساعة، لِمَا علم الله من استكباره، وعلوّه وإصراره وإدباره، وضمّن ذلك في إعلانه مجيباً لله حين أمره بالسجود: ﴿ءَاسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: 61]. كأنه يُخطئ الله في فعله، أي كأنه يقول: تخلق كائناً دنيئاً وتخاطبني أنا أن أسجد له وأطيعه، وأنا خير منه، كما في قوله تعالى حكاية عن اللعين: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 75]. ومعلوم أن رسول الله ﷺ هو سيد الساجدين لربه، وأول الخاشعين والخاضعين والمُخبتين لمولاه، وقُطبُ رحي رسالته التي يُبشّر بها، وأكد أوامرها، وأُسُّ أساسها، تحقيقُ العبودية لله، وتحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض، لإخراجهم لنور التوحيد، ومظهرها الأسمى هو تمامُ التذلل لمن له غاية التفضل، وشعار الرسالة المصطفوية: ﴿بَلِ لِلَّهِ فَإِعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 63].

خلاصة القول: إن كل ما حدث قبل مبعث رسول الله ﷺ من أحداث، وما رافقه من علامات وإشارات، كان مقدمة وإرهاصاً مُعلماً بأن رسالة رسول الله ﷺ نزلت عن تمهيدٍ وتوطئة، وحكمةٍ بالغةٍ تُبشّر بقرب فجرٍ جديدٍ، يُبدد الظلماء وينشر الضياء على نحوٍ فريد، اللهم صل على صاحب الرسالة العظمى ﷺ.

لمُخْ إلى بعض الأسرار في مجيء كبرى الأطوار لرسول الله ﷺ في ربيع الأنوار؛

قال بعض أهل العلم: إنما لم يكن غير هذا الشهر محلاً لأطوار النبي ﷺ حتى لا يتشرف بالشهر، جعل الشهر عارياً عن الفضيلة لتكون فضيلته ما حصل فيه من أحداث، فتكون المنة للنبي على الشهر وليس العكس، ونفس الشيء بالنسبة ليوم الإثنين، الذي شهد ميلاده ونبوءته ومهاجره ووفاته، وليس في الجمعة التي فيها فضيلة سابقة، حتى لا يكون لشيء ولا لأحد منة على رسول الله، بل المنة

لرسول الله عليه صلى الله على الجميع، وذلك في بيان أن الوجود كله ممتن للنبي ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

كما أنه ليس من قبيل المصادفة أن تجيء الأطوار النبوية المحمدية الكبرى - أطوار رسول الله ﷺ - في شهر ربيع السعد، ليس من الصدفة والاتفاق، والالتقاء من غير تقدير سابق، أن تكون في شهر يسمى ربيعاً، سواءً في ذلك طور الظهور - أي طور ظهور رسول الله ﷺ وميلاده الشريف - أم طور تلقيه للنور الإلهي وحياء، أو طور ارتقائه إلى عالم الملائكة الأعلى وإسراء ومعراجاً، أم طور هجرته إلى دار النصرة، أم طور رحيله ومآبه ووفوده إلى عالم الخلود، اللهم صلى على صاحب الأطوار الخمسة⁽¹⁾.

ليس اتفاقاً أن تجيء هذه الأحداث العظمى في حياة رسول الله ﷺ وسيرته في هذا الشهر، ذلكم أننا نعلم أن الشهور العربية سُميت بأحوال أزمنتها في الابتداء، كل شهر سُمي بالحالة التي صادفته في ابتداء التسمية، وأهل العلم بالعربية يجعلون من الأعلام ما يكون فيه لمحٌّ للأصل؛ أي إحالة على ما تشتق منه الصفة التي سُميت علماً.

ومن معاني «الربيع» التي ينبغي أن تُستحضر في هذا المقام أنه يُطلق على النهر الرقراق، العذب الصافي، المنساب المحيي المروي، كما تُطلق على الغيث، أي المطر الأول الذي عليه المعول في إحياء الأرض، ويطلق الربيع على بهجة الأرض حين تهتز وتربو، وتُخرج من كل زوج بهيج.

(1) سبقت الإشارة إلى أن الاسم الشريف لنبينا ﷺ «محمد» يحمل في حروفه عناوين هذه الأطوار الخمسة بحروفه الخمسة: فالميم ميم الميلاد، والحاء حاء الوحي، والميم الثانية ميم المسرى والمعراج، والميم الثالثة ميم المهاجر، والذال دال الوداع. صلى الله عليه وسلم وعلى آله ما تردد نفسٌ بصدر وما دبت الحياة في بر وبحر.

وَحَقًّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ربيعاً في كل أطواره، وكل أزمانه، وكانت حياته كلها فيها هذه المعاني وزيادة، فكتاب المصطفى ﷺ ربيع القلوب، وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اجعل القرآن ربيع قلبي»، أي سرَّ بهجته، وموطن اجتماع معاني الكمال الذي يدعو إليه، إذ أحيا الله به موات القلوب والأفئدة. لقد كانت رسالة رسول الله ﷺ جمال الدنيا ونورها، بدد الله بها ظلمات الجهل والظلم، والبغي والإثم.

وكيف لا يكون رسول الله ﷺ ربيعاً، وهو الذي زكى الله منه فؤاده في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: 11]، وزكى منه لسانه في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: 3]، وزكى منه بصره في قوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17]، وزكى منه صدره الذي شرحه في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1]، وزكى منه جملته وكليته في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، اللهم صل على سيدنا محمد في الأولين، وصل على سيدنا محمد في الآخرين، وصل على سيدنا محمد في الملائ الأعلى إلى يوم الدين، صلاة طيبة تُرضيك وتُرضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين.

كيف لا يكون النبي الكريم ربيعاً وهو الرحمة المرسلّة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 106]، أَلَّفَ الله به بين الأفئدة المختلفة المتباغضة، وردَّ به الضالين إلى رحاب الهداية، وأنقذ به من كان على شفير السعير؛ ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ الْبَارِ فَأَنفَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: 103]، أي بمحمد ﷺ وكتابه.

من مظاهر علو مقدار النبي ﷺ أن الله تعالى أقسم به، وأقسم له :

أقسم الله ﷻ بهذا العمر النبوي العامر في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 72]، مخاطباً إياه ﷺ بضمير الحضور المؤنس الدال على

التقريب والتحبیب، ﴿لَعَمْرُكَ﴾، قال كثير من المحققين من علماء التفسير: إنه قسم من الله بحياة رسول الله ﷺ، وهذا مُنتهى التعظيم، وغاية التشريف والتكريم، قال سيدنا عبد الله بن عباس - حبر الأمة وترجمان القرآن - فيما أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: «ما خلق الله خلقاً أحب إليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله ﷻ أقسم بحياة أحد إلا بحياته فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 72]، وحياتك أنهم لفي سكرتهم يعمهون».

وهذا على وجه ظاهر النص، أما على وجه ما يحتمل، فقد أقسم الله بحياة والدِه الأول آدم ﷺ، وحياة أبيه الثاني إبراهيم ﷺ، في قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: 3]، قال بعض أهل العلم: الوالد إبراهيم، والولد محمد الخاتم الوارث المحيي لملة أبيه الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وكما أقسم الله بنبيّه، أقسم له، وذلك في مقام التطمين، وهو أعلى درجات المبرّة، يُطمئن فؤاده بوعدِه الكبير، يقول ﷺ في سورة الضحى مُقسماً لرسول الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَا خِرَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى: 1 - 5]، قَسَمَ آخِرُ مُضْمَرٍ أقسم الله ﷻ فيه لنبيّه بآية يحملُ هو ﷺ سرّها، إذ كان ﷺ سراجاً وضحيّ تتبدّد به الظلماء، كما أن الحق ﷻ بيّن فيما أقسم عليه تواتر صنوف الإمداد، وتواصل الوداد منه لنبيّه ﷺ وعلى آله، وذلك لبيان مقامه وحُرْمته لديه في قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، بعنوان الربوبية الدال على التربية والإحسان واللفظ الخفي، ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، أي ما تركك منذ والاك واجتباك، ولا أبغضك منذ أن أحبك واصطفاك، اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله.

ثم نبّهه إلى ما أدخره له في الرجعى والمآب، من صنوف التكريم بلا حساب، في قوله تعالى: ﴿وَلَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾، ثم زاد قسماً آخر مؤكداً مضمراً: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾⁽¹⁾؛ وهذه الآية جامعة لصنوف الكرامة الموعود بها ﷺ، من المقام المحمود والحوض المورود، اللهم صل عليه وعلى آله في الأولين والآخرين.

ثم بيّن له ﷺ مما سبق من مننه عليه، نماذج يتذكر بها للتحقق من الوعد القريب المستمر، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: 6 - 8]، ثلاث من:

1. الهداية لأقوم سبيل.
 2. وإيواءه لخير كفيل.
 3. وإغناؤه بالرضى والكفاف والخلق النبيل، صلى الله عليه وعلى آله في الأولين والآخرين،
- ومن ثم خُتمت السورة بأمره له بأن يكون في مقام الشاكرين له، والذاكرين والمتحدثين بأنعم الله، يداً بالعطف على ذي الرحمة، وقلبا باعتقاد مصدر النعمة، ولسانا بالتحدث بفضل الله عليه وتبليغ رسالته منّة.

الفرح برسول الله ﷺ في ذكره من صميم الدين وجوهر الشريعة :

ومن خاتمة سورة «الضحى» نستنبط أن الحديث عن رسول الله ﷺ والإشادة بفضائله، والتنويه بفواضله، تحدث بنعمة الله، لأنه ﷺ النعمة الكبرى علينا من

(1) ذكر ابن عطية رحمه الله في المحرر الوجيز «494\5»، أن هذه الآية هي أرجى آية في الكتاب فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ..﴾ الآية، قال جمهور الناس: ذلك في الآخرة، وقال بعضهم من أهل البيت هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، لأن رسول الله ﷺ لا يرضى وأحد من أمته في النار، وروي أنه ﷺ لما نزلت قال: «إذا، لا أرضى وأحد من أمتي في النار».

ربنا، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103]، قال أهل العلم: أي برسول الله ﷺ ودعوته ورسالته، ذلكم من مظاهر شكر النعمة، وهو إيمانٌ ودين، والفرح بنعمة الله طاعةٌ وعرفانٌ، ﴿فُلْ بِقَضِلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ، بِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، فالتنويه إذاً بمحاسن المصطفى ﷺ وإحسانه إلينا، والفرح بذلك من هاته الجهة والحيثية، يُعَدُّ من صميم الدين وجوهر الشريعة، شريطة أن يستمر ذلك ويتصل، فلا يُذكر لينسى، ولا يُروى ليُطوى، شأن ذكر اللُّؤماء، وشرط أن لا يرافق الذكرى ما لا يتناسب مع مقام النبي الأمين، طُهرًا وصدقًا، وإخلاصًا وصفاءً.

الصلاة والسلام على رسول الله عنوان الفرح والسرور، ودليل المحبة لنبي النور:

من أجل مظاهر الفرح برسول الله ﷺ كثرة الصلاة والسلام عليه، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: «صَلُّوا عَلَيَّ واجتهدوا»، وقال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أحسنوا الصلاة على نبيكم ﷺ»، ويكفي للتذكير بفضل هذه الصلاة وعظيم أجرها أنه في صيغتها بقولنا: «اللهم صل على سيدنا محمد» أموراً منها: أولاً: إظهار وإعلان للعجز منّا عن الشاء على رسول الله ﷺ، ومن ثمَّ سؤالنا ربنا ليتولى ذلك نيابة عنا فنقول: «اللهم صل على سيدنا محمد»، هكذا علمنا ربنا من خلال نبينا ﷺ.

ثانياً: إن الصلاة على نبينا سببٌ لصلاة الله علينا، التي نخرج بها من ظلماتنا إلى نور ربنا في قول نبينا: «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه بها عشرا»، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43].

الصلاة على رسول الله ﷺ وُصْلَةٌ للمكرّمات، وَحَطٌّ للسيئات، ورفعُ

للدراجات، وكثرتها كفايةً من الهم، وهي من موجبات غفران الظلم والإثم، فهذا سيدنا أبي بن كعب - أبو المنذر - من أسياد الصحابة وقُرَّاءِهِمْ - رضوان الله عليهم أجمعين - ، يقول لرسول الله ﷺ في خاتمة الحديث: إذا سأجعل لك صلاتي كلها قال ﷺ: «إذَا يَا أبا المنذر تَكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفِرُ ذَنْبَكَ»، وكفاية الهم في الدنيا سعادة المرء، وكفاية الذنب في الآخرة سبب للخلود في الرضوان، وذلك لحيازة سعادة الدارين بالتحقيق.

الصلاة على رسول الله ﷺ من دواعي النجاة من النار كما جاء في الأثر: «أن رجلاً جيء به وأُحْضِرَ بين يدي الله ووُضِعَتْ سِجَلَاتُهُ فَأَوْبَقَتْهُ مَعَاصِيهِ ثُمَّ جَاءَتْهُ صَلَاتُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَتْ شَفِيعاً لَهُ وَمُنْجِياً».

وهي «أي الصلاة على رسول الله» سبب للشفاعة كما في حديث الوسيلة: «صلوا عليّ واسألوا لي الوسيلة فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»، أو كما قال ﷺ.

ويكفي تحذيراً ووعيداً على تركها وهجرها - الذي هو عنوان العقوق لمن له علينا أعظم الحقوق بعد الله، وهو رسول الله ﷺ - يكفي في ذلك حديث التَّأْمِينِ الدَّالُّ على أن التارك للصلاة على رسول الله ﷺ راغم ذليل، يُسَاق على وجهه للسعير، «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ - أَي أَذَلَهُ اللَّهُ وَوَضَعَ أَنْفَهُ فِي التَّرَابِ - ذُكِرْتُ عَنْده وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»، أَي أَذَلَهُ اللَّهُ وَوَضَعَ أَنْفَهُ فِي التَّرَابِ، لأنه ترك الصلاة جفاءً منه لرسول الله ﷺ.

ونعت رسول الله ﷺ هذا التارك بالبخل؛ أي بنعت البخل بصدق وبحق: «البخل من ذُكِرْتُ عَنْده وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»، ووصفه بأنه حاد عن طريق النجاة، فقال: «أَخْطَأُ طَرِيقَ الْجَنَّةِ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ عَلَيَّ»، أو كما قال ﷺ. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله.

الفرح بذكرى نبي الإفضال، استجابةً وامتنالاً، لأمر الله ذي الجلال،

ونحن إذ نُسرُّ ونبتَهِّجُ بذكرى وجود رسول الله ﷺ وميلاده الشريف، إنما نمثل قول ربنا: ﴿فَلْيَبْضُلِ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ، قَيْدًا لَكَ فَيُقْرِحُوا وَخَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، وهو ﷺ رحمة الله بنص قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 106]، وفضل الله هو ما امتنَّ به عليه في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ، لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 112]، فهو ﷺ صاحبُ الخُلُقِ العظيم، والقلبِ السليم، والذكرِ الحكيم، والصراطِ المستقيم، فله الحمد كله، ملء السماوات وملء الأرض، على أن منَّ علينا بسيدنا رسول الله ﷺ، وجعلنا من أمته، وهدانا به إليه، وعرفنا به إياه، فنسأله ﷺ تمام نعمته، والموتَ على محبته ومحبة رسوله وأحبابه، والحشر تحت لوائه، وأن يُوردنا حوضه، ويجعلنا من رُفقاءه المُنعم عليهم، وأن يرفعَ عنا حُجبَ القطيعة وظلمتها الفظيعة، بفضله ورحمته، آمين.

ذكرى رسول الله مناسبة لبعث الأمل من جديد، في نفوس الأخيار، بقرب زوال الأكدار، واندحار الأشرار، وعموم الأنوار على ما كان عليه الأمر في الماضي التليد.

إخوة الإيمان: في كل عام يطلع علينا ربيعُ السَّعدِ فيُظِلُّنا بظلاله، وتطالعنا فيه ذكرى مَطْلَعِ النور المحمدي، ونحن نتشوف مع المؤمنين بهذا النبي الكريم الخاتم، ونتطلَّع إلى فرج ربنا، وقُرب زوال ما لَمَّ بنا، نعم إخوة الإيمان، نتذكرُ والذكرى هنا واجبةٌ، نتذكر بروح من حنين، ممزوج بكرب وأنين، تلكم المكانة التي كُنَّا نتبوأها يوم كنا على صلة برسول الله ﷺ، ذاكرين لمقامه، نتعلم منه

ونترسّم خطاه، ونتقدم في الاتجاه الصحيح إلى كل مكرمة، إلى أن تسَلَّمنا بجدارة مقام السيادة والريادة، وكنا شهداء كما أريد منا: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 76] «شهداء على الناس» عزيزي الجنب، منيعي الحمى، ياوي إلينا كل ضعيف، ويستنصر بنا كل مظلوم.

أُمتُّنا بحق كانت ظلاً من ظلال الله في أرضه، تنشر الرحمة، وتعلم الحكمة، وتُذكر بالمنة، وترفع الهمة، وما إن نسينا الذكر والمذكر، ما إن نسينا نبينا ﷺ وتعاليمه، ونسينا الاقتداء به، ونسينا أخوتنا فأدركنا الحراب والظعن إلى صدور بعضنا بعضاً، ونسينا وحدتنا ورحبنا بكل شعار مُفرّق، بدءاً بالقومية وانتهاءً بالوطنية والإقليمية، والأمازيغية والفارسية، رفعنا كل شعار مُفرّق ونسينا رابطة الإسلام، نسينا عدونا فاسلمنا له القياد، وانطرحنا منبطحين بين يديه، بل إننا رفعنا مظلمتنا إليه، ونحن ننتظر أن يعدل فينا، ولن يعدل حتى يعدل الذئب في قطع الغنم، ولن يكون ذلك أبداً.

حين نسينا كل ذلك، بارت قيمتنا، وخارت هممتنا، وماتت إرادتنا، وأصبح نساؤنا في ديارنا يُستحيون للامتهان، ويوظفون في دور الشيطان، وأصبح ذكراننا يُذبحون بالحرمان، ويُعرضون للهوان، وكفى بهذا فساداً وسعياً في الخراب، وفتحاً لباب الشر والتباب.

توافي الذكرى السارة - ذكرى طلوع النجم الأحمدي - ظلام الغتصاب لأرض الإسراء، والتخلي كل التخلي منّا عن أحفاد نبينا ﷺ بتلكم الديار، وتركهم رهناً لقنص الأراذل الخُبثاء.

فاللهم براءة منّا من تخدير المخدرين، وتطبيع المتلاعبين، وتحالف قوى البغي على المُستضعفين المساكين، نسألك يا مُجري الأفلاك ومُصرّف المقادير،

القائل عن نفسه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأٍ﴾ [الرحمن: 27]، نسألك بوعدك القديم، وقسمك العظيم الذي تأذنت به أن تنزل عذابك على المتلاعبين في قولك: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ﴾ [العنكبوت: 25]، نسألك اللهم الموعود منك في قولك: ﴿وَإِنْ عُدَّتُمْ عِدْنَا﴾ [الإسراء: 8]، أي وإن عُدتم إلى الفساد عُدنا إلى تسليط العباد، نسألك اللهم تحقيق موعودك، وتأيد جنودك، نسألك أن تنزل نقيمتك التي لا تردُّ على القوم الكافرين، اللهم نصرِّك للمستضعفين من المؤمنين وعونك للمخلصين من حُماة الدين، اللهم من أراد بالإسلام خيراً فوفقه لكل خير، ومن أراد به سوى ذلك فعرضه للمهالك، واكفناه بما شئت يا عزيز يا مقتدر، آمين والحمد لله رب العالمين.



4) مع أوصاف التعريف بلسان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الشريف:

قال ﷺ: «إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت؛ وكذلك أمهات النبيين يرين»

روى الإمام البيهقي رحمه الله في «دلائل النبوة وأحوال صاحب الشريعة»، بسنده عن العرباض بن سارية صاحب رسول الله ﷺ، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت؛ وكذلك أمهات النبيين يرين» وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعت نورا أضاءت له قصور الشام، وفي رواية يعقوب: أضاءت منه قصور الشام تابعه عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح.

أملأ في الاتصال وولوج رحاب الوصال، نواصل قراءتنا المتواضعة في أحاديث التعريف بخصائص صاحب المقام المنيف ﷺ وعلى آله، قصدا منا إلى استكناه بعض أسرارهِ، واستجلاء ما يمكن أن يمثل العناوين الصادقة لمضامينهِ، والتي لا يخطئ الواقف عليها والناظر فيها، ومعتمداها في إبراز جوانب العظمة في رسالة رسول الله ﷺ، وما حباه الله من المحامد التي كان يمثل سماءها، والمثل المجلي لجوهر شرعته العلية، ولا تخفى خطورة هذا التعريف؛ التعريف بجوهر الرسالة وجوانب العظمة فيها وأسرارها، ولذلك كفانا ﷺ مهمة ذلك، فتولى التعريف بنفسه عن نفسه وأسراره، إذ أتى لنا أن

نقدم التعريف بالبحر الزخار، أو أن نجلي ما انطوى عليه من حقائق وأسرار، أجل لقد استخلصنا من نص الحديث أعلاه ظاهراً أنه ﷺ وعلى آله يمثل وارث سر الخليل إبراهيم عليه السلام، كما أنه الموسوم ببشارة الإنجيل، وهو ﷺ تعبیر رؤيا النور التي رآته أمه آمنة حين وضعت أو حين حملت به، والذي أشرقت له قصور بُصْرَى من أرض الشام، شاهدةً عموم رسالته للعرب والعجم، وآية الختم لسائر الأمم، وعلامة استمرار هذه الرسالة إلى أن يقال تم⁽¹⁾.

قيام رسول الله ﷺ بمهام النبوة الكبرى:

وبإمعانٍ مقاربٍ في مضمون الأمل⁽²⁾، الذي تحقق في رسول الله ﷺ الأجل، فكان بمقتضاه ﷺ سماءاً في الحكمة، وذروة في التزكية، ولم ينفك ﷺ مبلغاً الوحي المنزل، وشارحاً لبيانه المفصل، الذي عليه المعول، بإمعان النظر من أهل النظر في مضمون الأمل، يُدرك أنه ﷺ كان بحق الناهض للقيام بالمهام الأربعة العظام، ممثلةً في:

1. تَلَقَّى الوحي عن الله لتلاوته على الناس،

2. ثم يتولى شرحه وبيانه بكلمته وقدوته،

3. ويُباشِرُ تزكية من ينتسب إليه،

4. ثم تخريجه للحكماء الوارثين، «يعلمهم الكتاب والحكمة».

وفي مضمون الدعاء الذي يحيل عليه الأمل، نقرأ سمو مصدر هذه الشريعة تلقياً، يتلو عليهم آيات الله، كما نقرأ علو مصدرها تطهيراً بالعصمة، وتنويراً بالحكمة، كما نلاحظ اتضاح مطالبها بياناً من نفس المنزل عليه، ولعل ذلك هو

(1) بمعنى إلى يوم الدين.

(2) المقصود منه أمل الخليل عليه السلام الذي خلده القرآن في قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 128]

سر نجاح نبينا ﷺ في بناء الإنسان قلباً وقالبا، بوصله بالرحمان، وتطهيره من الاكدار والأدران، وتنويره ببصائر البينات والبرهان، وتمثلات النور والعرفان، يقول تعالى في آيات الفرقان: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَیْهِ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

مع المقام الرفیع لسیدنا ابراهيم عليه السلام :

معلوم أن الوالد إبراهيم الخليل - ﷺ - ما كان ليرغب إلى ربه فيمن يخلفه ويرث هذه الخلال الكريمة، ويتولى تلکم المهام العظيمة، إلا وهو ذاته علم فيها، ومنازة لا يخطئ رأيها، إضافة إلى إدراكه ضرورة هذه المبادئ وحاجة الأمة إليها، وأنه لا سبيل لإصلاحهم من دونها، ولعل ذلك هو السر في ذلكم الحضور المتميز لهذا السيد النبيل، المسمى إبراهيم الخليل، حضوره المتميز في القرآن، رسالة الله الخالدة، ووجه الثناء عليه من الله في الكتاب المجيد، ثناءً عطراً زكيّ التمجيد، حيث لا يخفى على دارس الكتاب بأدنى تصفح أن يقف عليه بلا ارتياب، نقرأ في القرآن في تزكية الله لإبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِلْنِّعَمِ إِيَّاهُ وَهُدًيًا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: 120 - 122]، ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي قدوة، أمة يمثل المنهج وحده، كمالاً وتاماً واستقامة، جامعاً لخصال الخير، كأنه أمة في تمام المكارم، ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، قانتا لله، القنوت غاية السكون لأمر الله وطاعته، حنيفاً ليس فيه أدنى ميل عن التوحيد إلى خلافه، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ثم يسجل القرآن شهادة الله فيه: ﴿شَاكِرًا لِلْنِّعَمِ﴾، تزكية ليس فوقها تزكية، شهادة من الله العلي الحميد، بأن إبراهيم ﷺ كان شاكراً لكل نعم الله، ﴿شَاكِرًا لِلْنِّعَمِ إِيَّاهُ وَهُدًيًا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ويقول تعالى: ﴿لَا إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 74]، حلیم فلا يعجل على مخالفه بالرد الأثيم، بل ولا بالمعاقبة بالمثل، يصبر على جهل الجاهلين، ويجادل في القوم المجرمين⁽¹⁾، فكان قَمَّةً في الرفق والتأني، وحسن التعاطي والمعالجة، كان إبراهيم حلیمًا وأواهاً، كثير التأوه حبًّا لله، وتعلقًا بكمالاته، وإجلالا لعظمته، وخوفا من عذابه ونقمته، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّيَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 76]، الزموا هذه الملة التي لا حرج فيها، وفيها غاية اليسر والموافقة للفترة الطاهرة الزكية، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، ألزموها ﴿هُوَ سَمَّيَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾، ويقول تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 66]، أي ما كان يهوديا كما يرغب اليهود في أن يكون على ملتهم، ولا نصرانيا كما يرغب النصارى بعد التحريف أن يكون على ملتهم ومرتضاهم ومشتهاهم، وإنما كان ﴿حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وكثيراً ما نجد في القرآن العناية الكبيرة بالمسلك الخليلي، والنهج الإبراهيمي، وأسلوب هذا السيد في البلاغ، وطرائقه في الحوار مع المخالفين.

نعم، ومن أدرانا، لعل لسان الصدق الذي رغب إبراهيم إلى ربه أن يجعله له من بعده في الغابرين، هو هذا السيد الوارث النبي محمد ﷺ، الذي امتطى ذروة سنام المكارم من بعد أبيه، وقد كان إبراهيم الخليل فعلاً سماءً في طهارة النفس والفؤاد من كل شبهة تصد عن التصديق، ومن كل شهوة تصرف عن حسن التطبيق، وشهد الله له بسلامة الفؤاد في قوله: ﴿وَلَنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَا إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(1) في إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَ تَهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 37].

[الصفات: 84]، فكان كمالاً في حكمة الخطاب ولين الجنب مع المخالفين وأهل الارتياب، وقد قص القرآن علينا أنواعاً من حواراته مع القريب ومع الغريب، مع الأفراد، ومع الجمهور من أهل العناد، من صابئة حران، وبتلة باب كنعان، وهذا حواراه مع ذوي القرابة الذين لهم السلطة المعنوية كأبيه، ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۚ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَا أَبَتِ إِنَّي فُذِّجْتُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۚ﴾ [مريم: 40 - 45]، وحواره مع الغريب ذي السلطة المادية، ملك بابل؛ النمرود: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِيءُ وَآمُتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۚ﴾ [البقرة: 257]، ربي الذي يهب، يُذكره أَنْ اسْتَحِ أَنْ تَدَّعِي الألوهية والربوبية، وأنت خلو من خصائص الألوهية والربوبية، ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فقال المدعي بغباء وبلادة: ﴿أَنَا أَحْيِيءُ وَآمُتُ﴾ وأحضر رجلين قتل أحدهما وسرَّح الآخر، فقال: هذا أحييته وهذا قتلته، فنقله إبراهيم برفقه إلى ما يُبَكِّتُه ويَبْهَتُه، ويقطع لسان احتجاجه ومعارضته، إذ علم أنه يريد التشغيب بمثل هذا المثال؛ إبراهيم يسأل عن خاصية الروح زرعاً ونزاعاً، وهو يمثل له بمثال من فتنة السلطة، قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وتطرَّد سُنَّةُ طلوعها على نمط من سننه الفائقة التسخيرية، فَجِئَ بها على خلاف مراد ربي، وأُطْلِعَهَا من غاربها مغرباً، فُبْهَتِ وانقطع، وسقط لسانه وتضعضع، وضاعت حجته. وكان إبراهيم قمة في العلم ورؤية الملكوت؛ يقول ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِيتُ إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوفِينَ﴾ [الأنعام: 76]، ويقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 84]،

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ-اتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51]، من قبل النبوة كان راشداً حكيماً، سديد القول والفعل، وتلك من عصمة الله وحفظه له قبل نبوءته.

وبشهادة الله لإبراهيم بقنوته وحنفيته، وشكره لأنعمه، وأنه كان سليم الصدر، حسن الطبعية، نَصَبَهُ بذلك واختاره إماماً؛ قال ﷺ: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 123]، اجتباه فنسي نفسه، سيدنا إبراهيم لم تذهله لذة المنحة عن أن يتذكر وارثه فقال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ يقول: أريد استمرار الإمامة في نسلي ونسبي، ﴿فَالْأَيَّالَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا منهم لن ينالهم عهد الله.

أسرار البشارة المزدوجة بنبينا ﷺ:

ونشير إلى أن العلاقة بين السيدين المذكورين في جملتي التعريف: «أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى» علاقة وطيدة ومتواطدة⁽¹⁾، إنهما معاً من أولي العزم بيقين، لنقرأ في مضمون البشارة عنوان مسلك رسول الله ﷺ في التدين، وأنه الترجمة الوافية بمطالب منهاجه في الإصلاح على وجه التيقن، «أنا بشارة عيسى»، لقد كان الخليل وصاحب الإنجيل معاً قِمَّةً في الرفق، وسماءاً في الصفح، انظر إلى قوليهما في دعائهما وقد سجله القرآن ليُحفظ ويُذكر، ويُتدبر وبه يُعتَبَر: ﴿لَا تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدَاكَ وَإِنْ تَغْضِبَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 120]، هذه مقالة سيدنا عيسى عليه السلام، ويقول سيدنا إبراهيم الخليل: ﴿رَبِّ إِنِّهٗنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ قَمَسَ تَبَعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 38]، هذه رحمة السيدين ورفقهما، وهاهو ربنا ينوه بصدقهما فيقول في حق الخليل: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 40 - 41]، ويشهد له بتصديق الرؤيا،

(1) قال صاحب القاموس، حرف الواو، مادة وطد: «المتواطد: الدائم الثابت الذي بعضه في إثر بعض».

حَبَّاً لِلَّهِ ﷺ وإيثاراً له على كل المحاب، ﴿وَنَدَيْنَهُ أَنْ يَلْبِزْهُمْ﴾ [105 - 104]، صدقت الرؤيا وآثرت حبنا على حب فلذة كبدي، ويقول في سيدنا عيسى وقد أخبرنا عن مقام حوار الله له وإشهاد إياه على ما كان منه ومن قومه في الدنيا: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَآلِيَّيَ الْهَيْمِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتَ فُلْتَهُ، بَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [116] مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَقَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّفِيقَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [119] إِنْ تَعَذَّلْتُمْ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغَيَّرْتُمْ عَنْهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [120] قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْقَبُورُ الْعَظِيمُ [المائدة: 118 - 121]، فشهد بصدق سيدنا عيسى الرسول، وأمه مريم الصديقة البتول.

مضمون البشارة في الجملة الثانية من جمل التعريف في الحديث الشريف، أن النبي ﷺ وُصِفَ في آخر الكتب قبله بوسم هو «الأحمد»، فقال عيسى عليه السلام كما خلد القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6].

لمح إلى معاني بعض أسماء رسول الله ﷺ :

إنه ﷺ أحمد، وأسماء رسول الله ﷺ كأسماء الله، وكأسماء القرآن، ليست أعلاماً محضة لا يُلاحظ فيها اشتقاقها، بل هي دلائل على صفات جلائل، وكمالات في أمهات الفضائل، وعلى ذلك ورد قول رسول الله ﷺ في أسماءه في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على

قدمي، وأنا العاقب الذي لا نبي بعدي»، فهو ﷺ الحاشر أي أنه يبعث أولاً وإن كان آخر الأنبياء، فيبعث ثم يبعث الناس على قدمه، والنبي ﷺ يشير إلى أن أسماء صفات لها دلالات على كمالات وخصائص، كقول الله على لسان عيسى: ﴿وَمُبَشِّرَ رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي بِأَسْمِهِ أَحْمَدٌ﴾ أي وَسْمُهُ ووصفه، فهو موصوف بالأحمدية نعتاً، والحمد هو الثناء على الله بالجميل باعتبار محاسنه وكمالاته، وفضائله وفواضله وإحساناته، على جهة التبجيل، الحمد ثمرة المعرفة، إذ لا يمكن أن تحمد ما لا تعرف ومن لا تعرف، ثم لا يمكن أن تحمد من لا تحب، فالحمد ثمرة المعرفة وقوامه الحب، وزينته الإجلال، لا يمكن أن تحمد من لا تجل إذ الحمد من غير حب وإجلال مجرد مدح زائف.

اسم رسول الله ﷺ «أحمد» يرشد إلى جوهر شريعته:

النبي ﷺ موصوف في الإنجيل بأنه الأحمد، أحمد الناس لربهم عملاً، وأحمد الناس في نفسه كملاً، لاستجماعه المحامد التي تمثل نور شريعته ومنهجه، فكانت مقومات الصلة التي جاءنا بها ﷺ ليقيمها بيننا وبين ربنا قائمة على هذه العناصر:

1. الحمد لله الذي يقوم على المعرفة والمحبة.

2. ويتجلى في الوقار والهيبة.

فلا خير في عبادة لا حمد فيها، يقول رسولنا ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، أي سورة الحمد، لا معنى لصلاة لا حمد فيها، ويقول الله ﷻ: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 63] أي بالعبادة، فالعبادة مظهر للحمد والشكر، ويقول ﷻ: وقد سأله سائل ورجاه مترج أن يرفق بنفسه من كثرة التهجد فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»، أي بهذا القيام وهذا التبتل، ولا

معنى لتَدِينُ مبناه على غير الحب، وعلى برود العاطفة، لا معنى له، إذ روح التدين الحب، وهو المنهج الخليلي الذي قرره القرآن: ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: 77]، وما قال: لا أعبد ولا أطيع، وإنما قال: لا أحب الآفلين، وقال وارث سر الخليل ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»، قِمَّةُ حُبٍ وقِمَّةُ إجلال.

إن العابد بحقٍ يعظم الحرمة، ويرعى الذمة، ويديم الخدمة، وكذلك كان سيد الحامدين، وإمام المحبين، وقدوة العابدين.

العبادة بحق هي حب مع إجلال، قائمان على معرفة محاسن المحمود وإحسانه، يقيمان صاحبهما مقام الثناء بلسان صدق.

تلكم هي الأحمدية التي كانت عنواناً للشرعة الخاتمة، في إنجيل عيسى الكلمة، عنوان الأحمدية أصدق عنوان على الشرعة الخاتمة، فأمة سيدنا رسول الله ﷺ تدعى: «الحمادون» واسم الحمادين ورد في الكتب السابقة وعلى لسان نبينا ﷺ، هو نبي الحمد كما سمي هو نفسه بنفسه، والحمد لوائه يوم المجد، وهو صاحب المقام المحمود، الموعود به في اليوم المشهود، ورسالته رسالة الحمد وأمّ سورها؛ أي أمّ الكتاب، سورة الحمد التي لخصت مطالب القرآن ثناءً وولاءً ودعاءً.

رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة تطهير بمنهاج العصمة، ورسالة تنوير ببصائر الحكمة :

وأعود إلى جملة التعريف، خشية أن نأتيها على منهاج التوصيف دون بلوغ الغاية في التوظيف، فنقول مستعينين بالله: إن رسالة رسولنا ﷺ رسالة تطهير ورسالة تنوير، رسالة تطهير بالتركية بمنهاج العصمة، وهي رسالة تنوير ببصائر الحكمة، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمْ يَضَلِّ مَيِّينَ ﴿ [الجمعة: 2]، هي رسالة تقيم الصلة بالله على الحمد الفائق، المترجم على الحب الصادق، والعلم الواثق، والإجلال الرائق.

أو قل: هي شرعة مثل النور في الظهور، وشرح الصدور، وإقرار الأمن وبث السرور، واستئصال الفتن ومحو الشرور، هي نور الدفء والسكينة، وسل سخائم الضغينة، هي عنوان النور المحض المخلص من قهر الظلام، واستبداد الطغام، والموصل للمقبلين إلى دار السلام.

رسالة رسول الله ﷺ أمل الخلاص، وبشارة الاختصاص، ونور الإرهاص:

من وحي التعريف بالنبي صاحب المقام الشريف بأنه:

1. أمل الخليل إبراهيم، عالم الحلم والرفق.
2. وأنه بشارة الإنجيل، إنجيل عيسى رمز الطهر والصدق.
3. وأنه نور الختم ومثال الفتح والنصر والعق.

من وحي التراجم الثلاثة، ندرك أن رسالة صاحب التعريف صلى الله عليه وعلى آله، تمثل أمل الخلاص للعالمين، وبشارة اختصاص للعارفين، ونور إرهاص للمتوسلين، تحمل في هديها وطبها وشرعتها سلاما للوجود، ورحمة تفيض بكل أنواع الجود، وكيف لا وقد وصف الله حاملها بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 106]، وقال فيها ذاتها واصفاً تعالىمها: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ [الدخان: 4-5]، وهذه سور الكتاب الكريم جميعها مفتحة بهذا العنوان الكريم المترجم عن مضامينها: ﴿يَسْمِ اللّٰهُ الرَّحْمٰنَ الرَّحِيْمَ﴾ عنوان كل سورة في الكتاب، تلفت النظر إلى أن الرحمة في هذا الدستور تمثل لحمته وسداه،

وابتدأهُ ومَدَاهُ، وكيف لا وقد قال فيه منزله: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُرَّانِ مَاءٌ شَيْبَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82].

لكن أصنافاً من أهل الصدود، أبوا إلا اعتراض هذا النور الذي هو عين الجود، فوقفوا في طريقه، يضعون الحوائل في مجراه حتى ينقطع عن الناس مدده، وتجف موارده، فيهلكوا بعيداً في أودية الظلال والحيرة، فلم يكن بُدُّ من مناهضتهم والتصدي لهم، حتى إذا فاءوا شملتهم الرحمة الجامعة، وكانت توبتهم لهم حسنة شافعة، يقول الله في الحديث القدسي: «إن رحمتي تغلب غضبي»، ويقول تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 156]، فلا قصور إذن في رحمة الله، وإنما القصور فيمن حُرِمَ أسبابها، وأغلق عن نفسه أبوابها وتحاشى رحابها، يقول ﷺ فيما أخرجه الامام البخاري: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قيل له من يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

الرحمة لا تعني تضييع العدل

وقد تأخذ الرحمة طابع الشدة والقسوة لا جوهرها، وإنما صورتها فحسب، وهي عين الرحمة، فمثلاً الطالب الصغير الذي لم يرقَ بعد إلى فهم قيمة الدرس، قد يساق إلى التحصيل كَرْهًا، ويحمل على حفظه زجراً⁽¹⁾، وعلى ما ينفعه قسراً، ولو تُرِكَ ومشتهاه لأضاع عمره وشَبَّ لا يحسن صنعا.

(1) منه قول أبي تمام:

فليقسُ أحياناً على من يرحم

فقساً ليزدجروا ومن يك حازماً

وقول أبي العلاء المعري:

ولا تقل هو طفل غير محتلم

نبه وليدك واحمله على رشد

وقس على نفع شقِّ الرأس في القلم

فرب شق رأسٍ جر منفعة

وها هو الطبيب الحكيم قد يجري بجسم مريضه - وهو أرفق الناس به - جراحة تمزق اللحم، بل وقد يحتاج إلى تحطيم بعض العظم وبتربعض العضو، يفعل كل ذلك وهو بمريضه رحيماً بشهادة العالمين.

فليست الرحمة إذن حناناً بلا عقل، وشفقةً وعاطفةً تجري على خلاف النظام والعدل، وقانون السماء الأجلّ، كلا، أنها عاطفة ترعى هذه الحقوق، وترعرع في ظلال هذه القيم.

إن مشهد إقامة حدٍّ من حدود الله، التي قد تبدو للرئين ذوي العواطف الطائشة أنها قاسيةٌ وملغيةٌ للإنسان وحقيقته، ومتناسيةٌ لجوهره الجميل، أبدأً؛ واضع هذه الحدود هو خالق هذا الإنسان، ورأسمه بهذه المواطن والحدود، إن مشهد إقامة حدٍّ من الحدود على قسوته قطعاً أو جلدًا أو رجماً، قد يستدرُّ عطف بعض الضعاف، ولو حصلت الاستجابة لهذا النزوع العاطفي الطائش، فأعفي عن القتلة، وعن المُنتَهبة، وعن السارقين، وأطلق سراح كل المعتدين، فستمتلئ الدنيا بفوضى لا حدود لها، وسيشقى الناس بغياب العدل الذي هو عين الرحمة في مثل هذه المواقف.

الرحمة الحقة إذن في مثل هذه المواقف هو كبت هذا الشعور، يقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْفَصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 178]، لا أصحاب العواطف، يا أولي الألباب الذين ينفذون إلى اللُّباب، إن القسوة التي ينكرها الإسلام هي القائمة على جفاف في النفس، وكزازة في الحس، تلکم التي لا ترتبط بمنطق ولا عدالة، تلکم التي هي مجرد نزوة فاجرة، تتطلب إشباعها في الإساءة والإيذاء، والتنفيس على المكبوتات المريضة، ولا ترقب في أحد إلا ولا ذمة، وتمتد منشرحة مع النزوع الأناني الطامح والهوى الشهواني الجامح.

أما الرحمة الحقّة، فهي فيضٌ من نفحات الله، وأثرٌ من آثار الله وجماله الباقي في طبائع الناس، يحذوهم إلى البر، ويدفعهم إلى حسن العشرة، ويهب عليهم في الأزمات الخانقة ريحا جليلة ترطب أجواء الحياة، وتنعش الصدور.

وهاهو سيدنا رسول الله ﷺ عين الرحمة ونبع الرأفة يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها، خشية أن تصيبه»، يا ما أرحمك يا رب، وفي مسلم أنه ﷺ وعلى آله قال: «إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»، ولا يهلك على الله إلا هالك.

اللهم إنا نسألك بوسيع رحمتك السابقة، وعظيم مننك اللاحقة، ونسألك بما أنك الأكرم الأرحم، أن تُمّن علينا بما يصلح شأننا، ويقيم أودنا، ويرد غائبنا، ويشيع الرحمة في أفئدتنا، اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى غيرك، وعليك نعتمد فلا تشغلنا بسواك، آمين والحمد لله رب العالمين.



(5) نبي المتاب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ

يستمر توسُّلنا بالاقتراب، من عظيم الجنب، زكي المعنى، رَضِيَ المبنى، سيدنا رسول الله ﷺ، من جَمَلَهُ الله بالنعوت الحُسنى، وخَلَّدَهَا آيات تُتلى، وبشأنه تُعنى، وبها عليه يُثنى، صلى الله عليه وعلى آله ما تَرَدَّدَت الأنفاس في الصدور، وما اتصلت العيون بالنور، صلاةً تكون لنا وُضلةً للخيرات والمبررات، ومنجاةً من الآفات والمعرَّات، في الحياة وبعد الممات، آمين آمين.

هذا وإن من الجلي الظاهر، في سيرة النبي المصطفى الطاهر، ﷺ وعلى آله، على ما مرَّ في الخطب السوائر واطر في الكتب والدفاتر؛ وفرة أسماءه الشريفة صلى الله عليه وعلى آله، وكثرة نعوته المنيفة، التي سُمِّيَ بها، وهو أمر يدل غايةً على شرف المسمى بها، كتعدد جوانب العظمة فيه، وقد ألمحنا إلى هذا مرات في مواطن مختلفة.

وتعاضُّم كلِّ جانبٍ دلَّت عليه الأسماء إلى الحد الذي اقتضى التعريف بها بإطلاق، للتنبيه على أن الوصف على جُزئيته حاز في المسمى حصة الاستغراق، فقد أشار ﷺ إلى جوامع أسماء الشريفة، التي تتفرع عنها وترجع إليها جميع صفاته ونعوته الجليلة، فقد أخرج الإمام مسلم وغيره عن سيدنا أبي موسى الأشعري أنه كان يقول: كان النبي صلى الله عليه وعلى آله يسمي لنا نفسه أسماءً فيقول: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا المقفِّي، وأنا الحاشر، وأنا نبي التوبة، وأنا نبي الملحمة، أو المرحمة».

ومعلوم للمطالع أن أسماء الرسول صلى الله عليه وعلى آله، هي مثل أسماء

مُرْسِلُهُ جَل فِي عُلَاهُ⁽¹⁾: الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الرَّؤُوفُ، الْعَظِيمُ، الْبَرُّ... وَمِثْلُ
أَسْمَاءِ الرِّسَالَةِ نَفْسُهَا: الْقُرْآنُ، الْكِتَابُ، الْهُدَى، النُّورُ، الْوَحْيُ، هَذِهِ الْأَسْمَاءُ
الشَّرِيفَةُ لَيْسَ أَعْلَامًا مُحَضَّةً كَأَسْمَاءِنَا، هَذَا زَيْدٌ وَهَذَا عَمْرُو، وَهَذَا عَلِيٌّ، فَهَذِهِ
أَسْمَاءٌ مُحَضَّةٌ لَيْسَ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى الْمَعْنَى، وَقَدْ نَسَمِي الْوَاحِدَ مَنَّا زَيْدًا وَلَيْسَ
فِيهِ مَعْنَى زِيَادَةٍ، وَيُقَالُ فِيهِ الْفَضْلُ وَلَا لِمَحِّ فِيهِ لِلْفَضْلِ، وَيُلْقَبُ بِالْقَابِ وَلَيْسَ
فِيهِ شَيْءٌ مِنْهَا.

أَمَّا أَسْمَاءُ اللَّهِ وَكِتَابُهُ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ أَعْلَامًا مُحَضَّةً، بِحَيْثُ لَا تَعْلَلُ وَلَا
تَلَاخُظُ فِيهَا مَعَانِيهَا وَدَلَالَاتُهَا؛ بَلْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تَمَامًا، فَهِيَ أَسْمَاءٌ تَدُلُّ
عَلَى مَعْنَى قَائِمَةٍ بِالْمُسَمَى⁽²⁾، فَائْتَقِ فِي مَعْنَاهَا الْمُتَمَنَّى إِلَيْهِ، بِمَا يَصَحُّ الْإِضَافَةُ
فِي الْإِطْلَاقِ، وَيُدْفَعُ شَائِبَةٌ وَهْنُ الْإِعْتِلَاقِ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ إِسْمُ النَّبِيِّ «مُحَمَّدٌ» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، الَّذِي
يَدُلُّ عَلَى صِفَاتٍ جَامِعَةٍ لِلْمُحَامِدِ؛ فَهُوَ جَامِعٌ لِلْمَكَارِمِ الْخَلْقِيَّةِ الَّتِي حُلِّيَ بِهَا،
وَالْخُلُقِيَّةِ الَّتِي تَحُلَّى بِهَا، وَالَّتِي بِهَا اسْتَحَقَّ أَنْ يُحْمَدَ ﷺ، وَيُثْنَى عَلَيْهِ وَيُمَجَّدَ،
وَيَسْتَمَرُّ ذِكْرُهُ وَيَخْلَدُ فِي سَمَاءِ الْمَكَارِمِ كُلِّهَا.

وَهُوَ ﷺ «أَحْمَدٌ» بِاسْمٍ عَلَى صِيغَةِ التَّفْضِيلِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ الْعِبَادِ حَمْدًا
لِلَّهِ رَبِّ الْعِبَادِ جَل فِي عُلَاهُ، وَأَسْبَقَهُمْ لِحَمْدِ مَوْلَاهُ، وَأَعْظَمَهُمْ شُكْرًا لِلَّهِ، فَهُوَ أَوَّلُ
الْحَامِدِينَ، وَأَوَّلُ الشَّاكِرِينَ، وَأَوَّلُ الْعَابِدِينَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، وَقَدْ قَالَ:
«أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً» وَهُمَا مَرَجِعُ السَّبْقِ فِي بَابِ الْحَمْدِ.

(1) يتكرر هذا المعنى كثيرا في أثناء كلام الشيخ حفظه الله، لأنه من المداخل الرئيسية في فهم الشريعة.

(2) وهذا مطرد في أسماء سائر الأنبياء ورسالاتهم، شريطة أن يرجع إلى معناها في أصل اللسان الذي
نزلت به، أو بعث به الرسول، مثل «إبراهيم» فإنها تعني بالعبرانية الإمام.

وهو ﷺ المقفَى، قَفَى الله به على آثار الأنبياء، فلا نبي من بعده، وختم به الرسل فلا رسول يجيء بإثره، مقفَى به، وهذا يدل على شيئين عظيمين: خلود رسالته وخاتمتها، وعمومها عالميتها.

وهو ﷺ الحاشر، ومن معانيه: أول من تنشق عليه الأرض يوم القيامة، يوم المحشر، ثم يُحْشَرُ الناس من بعدُ على قدمه، أي من وراءه وخلفه تصحيحاً لقوله ﷺ: «نحن الآخرون - أي في الزمان - الأولون يوم القيامة».

وهو ﷺ «نبي التوبة»، وهنا يجيء تساؤل يطرحه المطالع: إذا كانت الأعلام تُعرَّف بالمعلوم المسمى، فأَيُّ خصوصية في هذا الاسم بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله، مع العلم بأن التوبة توجد في كل رسائل الله، وهي مقام من مقامات الإقتراب، كما أنه في كل مشاريع الإصلاح وفي كل الوصايا الإلهية أمرٌ وترغيبٌ بالمتاب، فكيف صح تخصيص النبي صلى الله عليه وعلى آله بأنه نبي التوبة والمتاب، على النحو الذي يجعله عند التعيين والإطلاق، ينصرف إليه دون سواه من أنبياء الله؟.

لمح إلى سر ختم التنزيل بخاتمة سورة التوبة :

لا يتسع المقام للإحاطة بهذه النقطة، ولكن نكتفي بتوصيف المعالم، وأولها وأجلاها أن ننظر في الكتاب فرقاناً عندما تنزل، فنجد آخر سُورِهِ نزولاً سورة التوبة على ما وصفه جَمْع من الأئمة، ومِسْك ختامها وتمامها حديث عن سيدنا رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 129]. ختم الختم بمسكه توصيفاً للنبي ﷺ بما هو نعته، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، عاش النبي يدعو للتوبة لأنها الباب للرحمة، فالمسرفون والمصرّون، وذوو الأكدار وأصحاب

الأوزار، الموغلون في الإسراف، بُعداء عن الرحمة محجوبون عن أنوارها؛ والباب إذن للولوج بهم هو باب المتاب، وقد زُوِّد النبي ﷺ بهذه الأصول، وهذه المنازع: الرأفة لدفع المفسد، والرحمة لجلب المرشد، وهما أصول جالبة الخير ودافعية الضر في صلي الله عليه وعلى آله، وهذا الختم على هذا النحو يرشد إلى أن هذا المنعوت بسني الأوصاف، المسمى «محمداً» صلي الله عليه وعلى آله هو فعلاً نبي التوبة، ورسالته رسالة الأنوار ودوام الأذكار، والاعتسال وتصحيح الاتصال، يقول تعالى: ﴿فَدَجَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 17]، قال ابن جرير رحمه الله في التفسير: «النور محمد والكتاب رسالته»، صلي الله عليه وعلى آله.

نور الوصل بنبي الفضل:

في وصفه صلي الله عليه وعلى آله بالنور الذي يدفع الظلمة إشارة إلى أنه نبي المتاب، لأن التوبة تغسل الأوزار، وتزيل الأكدار، وترفع الأقدار، وفي كل هذه النعوت فتح لباب الارتفاع، والارتقاء إلى مقام الأحاب.

كيف لا يكون النبي ﷺ وعلى آله نبي التوبة بالتخصيص الزائد، وهو الذي يقرأ في ما تنزل على فؤاده، ويردده بليله تهجداً، ويتغنى به تلذذاً، ويستنبط منه الجواهر الفرائد فرداً فرداً، مما هو من جوانب التعريف، بالكمال الإلهي العلي اللطيف، في قوله ﷺ ﴿جَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ غَايِرِ الذَّنْبِ وَقَايِلِ النَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ [غافر: 1 - 2]، ويقرأ فيما يقرأ صلي الله عليه وعلى آله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 7]، برغم ظلمهم، ويقرأ: ﴿وَإِنِّي لَعَبَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ إِهْتَدَى﴾ [طه: 80]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ

أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ الْمُتَهَتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَتَّبِعُونَ ﴿[النجم: 31]﴾ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[البقرة: 216]﴾، وقد تكررت في الوحي المنزل على رسولنا ﷺ في غير ما سورة من سور الكتاب.

ويقرأ ﷺ فيما تنزل عليه، ويبشر به أمته ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 105]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: 10]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12].

وتصريف الأسماء مثل: «غفار» و«ذو مغفرة» و«واسع المغفرة»...، هو تماماً كتصريف الآيات وتقليبها على وجوه من البيان، وهو أسلوب قرآني مقصود، يرمي ويهدف إلى تعميق دلالات هذه المعاني في وجدان المتلقي، وتثبيت معانيها في عرفان المتدبر من أجل الترقى.

كيف لا يكون سيدنا رسول الله ﷺ نبي المتاب، وهو الذي علمنا من وصف ربنا مُحِبًّا لنا إياه جل في علاه بلاغا لهذا الجانب من كرمه وفضله، علمنا بأنه تعالى يفرح بتوبة التائب إليه فرحا لا يُقَادَرُ قدره، ولا يُدْرَى مقامه.

قال صلى الله عليه وعلى آله لسيدنا كعب بن مالك - وهو أحد الثلاثة الذين خُلِفُوا ثم تاب الله عليهم، وسجل توبتهم في سورة الختم، سورة التوبة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّجِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبَ بَرِيٍّ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118-119]، بَشَّرَ النَّبِيُّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ بِتُوبَةِ اللَّهِ حِينَ نَزَلَتْ، فَقَالَ ﷺ: «يَا كَعْبُ أَبْشِرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ طَلَعَتْ عَلَيْكَ شَمْسُهُ مِنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»، عيد الأعياد، وفرح الأفراح، وبشير المسرات، يوم قبول توبة الله لعبده التائب إليه.

أرجى آية في الكتاب، خصصت للبشارة بقبول المتاب⁽¹⁾ :

وأرجى آية في الكتاب هي آية المتاب: ﴿فَلْيَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾⁽⁵⁰⁾ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿51﴾ [الزمر: 50 - 51]، الله يقول وينادي على العباد: دونكم باب التوبة فاقصدوه، وهذه الآية الكريمة التي يُحس فيها المتدبر بمعنى الضم في مقام الفهم؛ «يا عبادي»، نداءً وفيه ضم العباد إليه، ما أخرجَتْهُمْ المعصية ولا المخالفة عن سر الإضافة؛ «قل»، بَلَّغْ وهو تلقينٌ باللفظ، قل لهم، واحمل البلاغ بالنص، ﴿فَلْيَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾، وهو ما جعل أحد العلماء الربانيين، وهو الإمام القاضي عياض رحمه الله يقول في زهو وانتعاش روحي غامر، يقول مفتخراً على الثريا في عليائها:

مما زادني عجاوتيها وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نيا
ونبينا ﷺ هو حامل هذا البلاغ، والمبلغ لهذه المسرة وتلكم البشارة السَّيِّئَةِ، وقد عاش صلى الله عليه وعلى آله عُمره الشريف يرغَّب في المتاب، ويرحب بالعائدين إلى الرحاب، ويفرح بكل عائد أواب، يرشد إلى الاغتسال، ويحث على التدارك، وَيُعَلِّمُ أُمَّتَهُ كيف تستغفر، وكيف تعتذر حين تُقَصِّرُ.

مقام التوبة هو أول المنازل وما بعده مبني عليه :

والتوبة عند نبي المتاب هي أول الأمر وآخره، يقول تعالى في الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم - وهذا مقام الثناء حيث أن الله اشترى - يجعل أول

(1) سبق القول بأن أرجى بية في القرآن الكريم هي آية العطاء في سورة الضحى، وهنا آية سورة الزمر، ومثل هذه الأمور لا تتعارض ولا تتزاحم كما يقول أهل العلم. هذا وإن بين الآيتين صلة واضحة يدركها المتدبر بمجرد الوصل بأنوار الكتاب.

صفاتهم التوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْبُزُّ الْعَظِيمُ ﴿١١٣﴾﴾ التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّابِقُونَ الزَّكَاةُ الْمَسْكُونُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 211 - 113]، فوصف هؤلاء القِمم بأنهم إنما دخلوا إليه ووفدوا عليه من باب التوبة، وهي أول المنازل، وما بعدها مبني عليها، ولا يستثنى منها أحد، يقول تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]، نعم - لعكم - ومن لم يتب، فيقول تعالى في حقه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَلَهُ وَكَفَّ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]، فليس هناك توسط بين التائب وغيره، هناك تائب وظالم، وليس بينهما قسم ثالث.

تأكيد النبي صلى الله عليه وسلم على الاستغفار في سيرته وشرعته :

كان صلى الله عليه وعلى آله في كل فرصة تسمح يقول: «توبوا إلى الله واستغفروه فإني - أنا رسول الله - أستغفر الله في اليوم مائة مرة»، وكان يُعَدُّ له في المجلس مائة استغفار، أو سبعون استغفاراً كما جاء في أحاديث كثيرة، ويقول صلى الله عليه وعلى آله: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وبالنهار ليتوب مسيء الليل»، ويقول صلى الله عليه وعلى آله: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا يقول - مرغباً في المتاب - هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فأعطيه»، يحث المشغرين على التدارك وتجاوز الأخطاء.

وظل صلى الله عليه وعلى آله يُعَلِّمُ أن التوبة لا تفوت، ولا تفلت من أيٍّ أحدٍ منا ما لم يغرغر حين يحضره الموت، ويقترب منه فينقطع أمله، ويقرر صلى الله

عليه وعلى آله أن للتوبة باباً لا يُغلق، يسير الراكب في عرضه مسيرة سبعين عاماً، ويقول صلى الله عليه وعلى آله: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»، وقوله ﷺ: «لو لم تذبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم آخرين يُذنبون فسيغفرون فيغفر لهم».

وما انفك النبي صلى الله عليه وعلى آله يُعلم أصحابه التوبة، ويُعرفهم بالمكفرات، «وأَتبع السيئة الحسنة تمحُّها»، متى ما بدرت منك مخالفة فأتبعها بالاغتسال، فإن الله لا يخلف وعده: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّكْرَيْنِ﴾ [هود: 114].

الإرشاد إلى ما به الاغتسال من الذنوب والقرب من علام الغيوب:

وظلَّ صلى الله عليه وعلى آله يمدح المغتسلات، ويمنح الفرص لمن قارف السيئات، ويقول ﷺ فيما أخرجه الترمذي من حديث انس ابن مالك رضي الله عنه: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء».

وظل صلى الله عليه وعلى آله يُلقِّنُ بسراجيته وربانيته، ويغرس عقيدة القرب والحب، ويحرك الأقدام إلى الأمام، لتصل إلى مقام الرضى بالتمام؛ يقول في الأحاديث التي رويت عن الله قدسية سنية: «من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ومن جاءني يمشي أتيته هرولة».

والتقرب بالشبر هو تقرب أصل المتاب، توجيه القدم إلى الإتجاه الصحيح، إلى قبلة العزم على الرجوع، هو تحريك قدم القلب، في إتجاه قابل التَّوب، «ومن تقرب مني ذراعاً»: خطوة في اتجاه فعل الواجب، أو ترك المحرم، «ومن جاءني يمشي»: حثُّ الخطى على إكتساب الخيرات والمبرات، وفضائل الطاعات.

كيف لا يكون ﷺ نبي المتاب وهو الذي عاش يُبَيِّن لأصحابه كيف أن الله جل في علاه يُعَدُّ بميزان اعتباره قطرة دمع من خاشع، ووجل قلب من خائف راجع، وزفرة كرب من مُتَنَدِّم على فوات طاعة أو فعل معصية فيما مضى من زمنه المتقدم، فهو يعلمنا أن تنهّدات الآسفين على التقصير، من سني القربات إلى الله جل في علاه؛ فكم من زفرة حرّى محا الله بها خطايا كبرى؛ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ فَلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، خافوا من جنائتهم وتأسّفوا على تقصيرهم، قال ﷺ: «لن يلج النار عبدٌ بكى من خشية الله». وقد حرم الله على النار عبداً دمعت عينه من خشية الله إذا كانت عند الله بمقام التقبل⁽¹⁾، وكم هي رائعة، وما أبردها على الكبد، كبد الوافد، الواقف بالباب، المشتهي للمتاب: تلکم الكلمات العذاب التي يرويها النبي الأواب عن ربه الكريم التواب الوهاب: «عبدى إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي» - لأن الله لا مستكره له - «عبدى عبدى لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»، ومن ثم كان من توسلات المتقربين: «يا غافر الذنب، يا عظيم المغفرة وواسعها، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك، إنك واسع المغفرة».

الحاجة إلى التوبة تعم الجميع، مقصرين ومرتقين؛

وبقدر ما يرتقي العبد عرفاناً وإيماناً وإحساناً، يُحس بالحاجة إلى التوبة، فليس المقصّرون والمُسْرِفون هم الذين يحتاجون إلى المتاب، بل إن حاجة المرتقين في معارج الاقتراب أؤكد في الباب، وقد سبق أن رسول الله ﷺ

(1) وهو ما نص عليه الحديث الصحيح كما عند أصحاب المسانيد والسنن، ونصه في سنن الترمذي، «رقم: 1639» عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

يستغفر إثر الصلوات، وليس إثر المعاصي؛ يسلم من الصلاة فيقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، مِمَّ يا رسول الله؟! مما يلاحظه من تقصير في جنب عبادة الله، لأنه من يبلغ مقام أن يحصي الثناء عليه جل في علاه؟! ومن يجيء بالخط الأوفر في مقام التقرب إليه؟! «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»، يقولها ﷺ، أو هي من توسلات الملائكة المقربين حملة العرش.

وهذا سيدنا رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنَا سيد الاستغفار، نختم به يومنا ليجيء في خاتمة الصفحة نوراً يمحو الله به كدر ما غَشَيْنَاهُ، «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

مقام توبة أئمة الهداية في القرآن الكريم:

كيف لا يكون سيدنا رسول الله ﷺ نبي المتاب وهو المؤدَّب بالكتاب، يُمِرُّ بآيات الاستغفار مُسَجَّلَةً في توبة الله على الهداة الأخيار، المأمور بإتباعهم في قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيُهُمْ افْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 91]، فتراه صلى الله عليه وعلى آله يسجد حيث سجد داوود في الآية التي تنص على توبته وإنابته: ﴿وَطَرَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [سورة ص: 23]، الله اكبر، فيسجد صلى الله عليه وعلى آله ويقول: «اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعل لي بها عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داوود»، اللهم صل على سيدنا محمد مُحِبِّ المتاب، ما خط كتاب، وارتفع سحاب، ورفع حجاب.

ويتلو من آيات العطف بالأجر على الوالد الأول: ﴿فَتَلَفَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ، كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 36]، ومن توبة سليمان ﴿وَلَفَذَ بَتْنَا سُلَيْمَانَ وَأَلْفَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ، جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [١١]، فَال رَبِّ بِغُفْرَتِهِ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿١٤﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَتْ ﴿[ص: 33 - 35].

وآية توبة الله على يونس: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا وَقَضَىٰ أَنَّ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 86 - 87]، ويعقب صلى الله عليه وعلى آله بقوله: «دعوة أخي يونس ذي النون ما دعا بها مسلم إلا استُجيبَ له»، أو كما قال صلى الله عليه وعلى آله.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد في الأولين وصلِّ عليه في الآخرين وصلِّ عليه في الملائكة الأعلیٰ إلى يوم الدين، اللهم تُب علينا توبة نصوحا تفتح الباب لرضاك، وتحقق المبتغى من جَدَاكَ، يا ذا الجلال والإكرام آمين آمين والحمد لله رب العالمين.

تنبيه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَدَلَائِلِ الْحَيَاةِ فِي الْأُمَّةِ :

وكما يفرح الله بتوبة التائبين، فإن الموفقين من أهل رحابه، والمنتسبين بصدقٍ لجنابه، يكون شأنهم الفرح بالعائدين، وإسعاف المصلحين، والأخذ بيد الحيارى والمترددين، والحسرة على فوات الفرصة من الهالكين.

وهذا واحد من سادات الصحب الكرام، بل سيدهم بشهادة خير الأنام، أحد خريجي مدرسة نبي المتاب، استوقفتني كلمةٌ له راشدة، إنها كلمة الصديق أبي بكر، الزكي الطاهر، التي نبه فيها إلى معالم الخير ودلائل الحياة في الأمة، ومعاقد الأمل فيها يقول: «لا خير في أمةٍ لا تفرح بتوبة العائد، ولا تأسف على تيه الشارد، ولا تسعف المصلح الرائد أو القائد».

أجل أيها الصديق، إنه لا يفي بحق الولاية التي من شأنها أن يتولى الكلُّ الكلَّ في تناغم تكاملي، يرى الواحد نفسه عضوا ضمن جسد الأمة، ولا يرى لنفسه

فضلا على الآخر، ولا يكون في قطيعة بحيث لا يتواصل معه، ولا يئن لأنيته، ولا يحس بحضوره وغيابه، من شأن الولاية التي هي في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 72]، الكل ينصر الكل، والكل يشرف على الكل، والكل في الكل، في تواصل تناغمي، هكذا يريد سيدنا رسول الله أن تكون الأمة.

إذا كانت الأمة تفسح المجال للعائد التائب، فلا تذكره بالذنب والخطيئة، بل تفرح بعودته، وتشجعه عليها، وترغبه فيها، وتقبله في رحاب المتطهرين، وتحتفي بكل من يريد الاغتسال، ويودع عالم الشر والأحوال، لأنه ينبغي لمن هذا شأنه أن يلقي ترحابا في مجتمع ينتسب لنبي المتاب، لا أن يقمع ويحاصر، وتظل وصمة التقصير تطارده، ويُنعت بنعت ما كان عليه، لا بوصف ما صار إليه، إذا كان النبي صلى الله عليه وعلى آله يفرح بتوبة التائب، فالمقتدون به يفرحون بعودة العائد، وفيئة الذي يفيء إلى الرشد.

بل إن من سمات الأمة الراشدة الحية، التي لها حضور وازن في البرية، ينبغي عليها أن لا تفرح فقط بعودة العائد، بل أن تسعى جاهدة لعودته، ترغبه فيها، وتقتحم على المنحرفين مواقعهم لتنتشلهم من هذه الأحوال والشرور، إلى مقام الاغتسال والنور، عينها على بعضها، كالواحد منا، لا يمكن أن يهمل ظفراً وقد تقيح، أبداً!! هو في شغل كلي من مُشاش رأسه إلى أخمص قدمه، كله حركة في اتجاه هذا العضو المئوف المصاب.

إذاً، على الأمة أن تسعى جاهدة بغاية الرفق المطلوب، والكلمة المرضية، لئیسر فيئة الشارد، وتكف ذي الشر عن شره، وتفتح له الباب بحسن الخطاب،

ولين الجناب، وبين عينيها قول نبيها ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس»، أي: خيرٌ من تحصيل الدنيا كلها، أن تجيئنا بواحدٍ من أمة محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله إلى رحاب العافية، إذا ما كان مُصاباً مؤوفاً. وثالث دعائم منهاج الرشد: ألا تدع الأمة المصلحين الذين برئت ذمُّهم من أن تتلوث بظلم، وسلمت أيديهم من أن تتلطح بإثم، هؤلاء لا بد من أن يجدوا في الأمة عوناً وتأييداً، فخذلان المصلحين من سيمًا خلل الأمة وضياع عقد اجتماعها⁽¹⁾.

ونُعِيد كلمة الصديق بعبارة أخرى: «الأمة التي لا تفرح بالمتطهر، ولا تنصح للعائر، ولا تؤيّد المصلح الصابر، أمةٌ لا خير فيها، تُؤدّع منها وأسلمت نفسها إلى حافة السعير».

إن الله لا يقدس أمةً لا يؤخذ للمُضَيِّعِ فيها حقُّه، وأضيع الضياع خلوا الأفتدة، من الأنوار المسعدة، والحيلولة بينها وبين النور المحيي في قوله ﷺ: ﴿أَوْ مَسَّكَانَ مَيْتًا فَأَخْيَتْهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ آكَرًا مُجْرِمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 123 - 124].



(1) حتى لا تكون كما قال الشاعر الجواهري، يشكو انقلاب الأوضاع وفساد الطباع:

أصلاح إنا رهن مجتمع	يخشى اللصوص فيذبح العسا
يزهى بفارسه إذا افترسا	وبضوء نجم ساطع طمسا
ونتاج زرع لا يداس به	إلا على زهره الذي غرسا

(6) الذِكر المُصَفَّى باصطفاء المصطفى

التكرار والاستمرار شرط الذِكر المُعتبر:

إذا كان للتكرار أسرار، فهي في الذِكر أوضح من ضوء النهار، وأجدر بالمراعاة والاعتبار.

فالذِكر كاسمه، إنما يتعلق بما هو حقيقٌ وجديرٌ بأن يذكر وأن يكرر، ولا يستحق هذا الاسم إلا ما كان موصوفاً بصفتي الاستحضار والاستمرار، تلك خاصيته، وفيها ما أرشد إليه النظر للمعاني التي يجليها والمضامين التي يمثلها ويحملها يقول ربنا ﷺ في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ذُكِّرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسِيِّحُوا بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 41 - 42]، فنبّه إلى أن الذِكر المطلوب، هو ما وُصفَ بصفتي الكثرة والاستمرار، فالكثير المنقطع ليس جديراً بوصف الذِكر المطلوب، والقليل المستمر أيضاً ليس جديراً بنعت الذِكر المطلوب.

وثانياً لأن الترقّي بالذِكر، والتزكي به عبر معراج قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 151]، - فالذِكر منا موجب لذكر ربنا، وما أجلّه من مقام - إن التزكي بالذِكر تطهيراً وتنويراً يتوقف على سر التكرار، سر الترداد لترسيخ المعاني المستفادة، وليحصل بإيقاع التواتر ما يعمق ويرسخ منسوب أنوار الذِكر، ولأن النسيان والذهول والغفلة والعشو⁽¹⁾ عن الذِكر، كلها موانع قاطعةٌ لمدد الفضل، وحواجب رافعةٌ لمعنى الوصل، وهي أعداءٌ لليقظة، يقظة الإنسان الذاكر التي هي باب سعادته واعتباره ولذته، والعجيب في باب الذِكر أن تكرر

(1) يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضْ لَهُ شَيْطَانُ أَهْوَاهُ ۖ فَرِيضٌ﴾ [الزخرف: 35].

يزيده جمالاً عند أهل الفهم، التكرار يزيد الذكر جمالاً وتألقاً وجلالاً، لا إملاً وضجراً وكلالاً، وتلك خاصية الذكر الأعظم، ممثلاً في القرآن الأحكم والكلام الأتم، الذي لا يخلق ولا يبلى على كثرة الرد، كما وصفه من تنزل إليه وهو سيدنا رسول الله ﷺ، لا يخلق على كثرة الرد؛ أي الترداد.

وهي خاصيةٌ تنسحب على كل ما له به صلة، وتطبع بسرٍّ وصلٍها كل ما له بها نسب، وبحسب مقام الذاكر يكون سر التكرار والترداد للذكر، حتى لربما كان لبعض الذاكرين في كل تكرارٍ معنى، وفي كل تردادٍ لوناً من ألوان الفهم، وطعماً من طعوم الإدراك والترقي.

وها هو سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله إمام الذاكرين، وقدوة المدرسين لأسرار التكرار، صح عنه في هذا الباب أنه بات ليلة من ليالي تهجده الشريف ﷺ يكرر قوله تعالى ويقوم به: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 120]، ليلة أو قل ثلثيها، يقوم ﷺ بآية واحدة يستحضر فيها مشاهد عبودية العباد، ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، ومشاهد رفق الله وعدالته في أقضيته، ويقرعه ﷺ ويدق باب الرجاء والعفو، بجميل الثناء على ربه بأسمى خطاب، أدبٍ نبويٍّ مع الحق ﷻ: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، أنت الملك والسيد، ولا يسأل السيد عبده فيما فعل، خصوصاً إذا كان مستحقاً، وإن تغفر لهم - والمقام مقام عزة - تغفر لهم عن عزةٍ وعلو مكانة، لا عن ضعفٍ ومهانة، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، سمع أحد أهل الفهم قارئاً يقرأ: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فقال: مثل هذا لا يدرك عن الله، فصحح بثاقب بصره النص القرآني المخطأ فيه.

ولعظيم معاني الذكر يقول المتدبرون والمتهجدون، من أمثال سيدنا عثمان رضي الله عنه - والذي كان يقوم الليل باستمرار، ويختتم القرآن في كل ليلة -

قال ما هو ظاهر من ترجمته ومنقبته: «لو طهرت قلوبنا ما شبت من كلام الله». يقول السيد عليه السلام: «ولا يشبع منه العلماء»، ولعل السرف في ذلك ما تُنبه إليه تسمية القرآن الذكر بـ «الروح»: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 49]، إذ من خصائص الروح، وما كان منها أو إليها بسبب، أنها لا يدركها البلى الذي يصيب الأجساد بطبع تعفنها⁽¹⁾، لا يخلق الروحاني، ولا يبلى ما به روح، والأرواح كما قال عليه السلام: «جنود مجندة»، يعني دائمة الجاهزية للارتقاء، فهي في مقام الجمع أدنى منها إلى مقام الفرق، كما يقول أهل العلم.

بركة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مع الذكر المصطفى ممثلاً في النبي المصطفى عليه السلام، وصلاً بما انقطع، وبين يديه في ربيع السعد، الذي خُصَّ بآيات الحمد، ودلائل المجد، نرفع شرائف صلوات الله، ونوامي بركات الله، إلى حضرة رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، راجين من ربنا الذي أحبه، وخلد ذكره وسره، صلاة برّ وهدية، ووصل وقربة، تدفع البأس والبأساء، وتدرأ الظلم والظلماء، عن أمة سيدنا رسول الله، صفى الله وخليل الله، اللهم بالصلاة عليه طهر قلوبنا، اللهم بمحبته فرج كربنا، اللهم بذكره أزل الأكدار عن باطننا وظاهرنا، خلصنا يا مولانا من الأكدار بفضل النبي المختار، واجعلنا يا مولانا في عداد الأبرار، آمين آمين.

المنة برسول الله علينا أعظم منة تستوجب الشكر، وقد قال ربنا عليه السلام: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَیْ ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، وقوله لقد من عليهم، أي قد تفضل عليهم غاية، غاية الفضل، الذي يوجب الشكر، شكره

(1) لأن أصلها من طين لازب، ومن حماء مسنون، ومن ماء مهين.

تعالى المنان المنعم، ومن مقتضيات الشكر - شكر النعمة - ذكرها، والتحدث بها، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11].

رفع هذا الذكر، ذكر رسول الله ﷺ، بما أنه مرفوع بإذن الله واسمه، بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4]، رفعنا لك ذكرك الذي لا ينبغي أن يوضع أو يُهدر، والثناء على صاحبه بما أنه مُثنى عليه من ربه جل في علاه، مُصَلَّى عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: 56]، مُثْنِي عليه، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 49]، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: 81]، ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ① مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 1 - 4].

ألوان من الثناء على سيدنا رسول الله من ربنا جل في علاه، وتخصيصه ﷺ بالسلام الأسمى، بما أنه مسلم عليه بعنوان الاصطفاء ضمن المصطفين في قوله ﷺ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ ④ اللَّهُ خَيْرُ أَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [النمل: 61]، ومنهم المصطفى صلى الله عليه وآله، ذلك المخصوص بعباء الكوثر، والموعود بتر العدو الأخسر، ﴿إِنَّا آَعْظِيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 1 - 3]، مبغضك وعدوك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ③ الأقطع الأخسر.

نجدد العهد بذكر المصطفى، لأن ذلك من الوفاء بذكرى المرفوع ذكره والمُثنى عليه، - ونفعل ذلك في ذكره التي تتجدد أيامها، وينبغي أن تنتهز فرصتها، للحديث عن صور اصطفاء الله واجتباؤه لنبه، وتجلية كماله الذي ينبغي أن يقتدى ويحتدى به.

ولن نعدو الحق إذا قلنا إن الانفصال عن هذه الأحوال معه ﷺ التي سمينها بعناوين الكتاب:

1. الرفع العلي المستمر

2. الثناء الزكي العطر.

3. والتسليم الجلي المتكرر.

إن الانفصال عن هذه الأحوال معه ﷺ مدرجة إلى القطيعة والجفاء، والنكوص وعدم الوفاء، وبالتالي فإنه «أي الانفصال» مدخل إلى الحرمان من بركات الله وصلاته وتسليمه، التي بها نخرج من ظلماتنا إلى نور ربنا، ظلمات الاثم والضّر والكرب، والاختلاف والتنازع والحرب، صلوات الله نحن بحاجة إليها في كل الأزمنة، فينبغي ألا نُودّع محرابها، ولاندع أسبابها، ولا نوصد أبوابها. ولنبدأ بما ينبغي البدء به فنقول: إن ربنا ﷺ اصطفى نبيه بشى صنوف الاصطفاء، وأحاطه بألوان من الاجتباء، اصطفاه، واصطفى له، واصطفى منه، واصطفى به، فهو ﷺ خيار من خيار، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح.

فالله ﷻ قد اصطفى نبيه واجتبه بعلم، فجاء ﷺ خياراً من خيار: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 73]، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

مظاهر الاصطفاء لنبي الصفاء:

المتابع لسيرة النبي ﷺ مطالعٌ لصنوفٍ من الذكر المحيي، يقرأ فيها ألواناً من الاجتباء، وصنوفاً من الاصطفاء، ويلمس طابع ذلك في كل حراكٍ للنبي، في كل ما حصل له، وما حصل منه ﷺ وعلى آله، ومن ذلك على سبيل المثال:

1. اصطفى الله لنبيه أصله ومحتده، فكان من خير النسب، لا يتهم في سبب ولا نسب.

2. واصطفى له صورته وخلقته الشريفة، فجاء ﷺ مثالا للاعتدال والاستواء والكمال، مما هو مشتهر ومقرر في صفته الخلقية، ولنا معها موقف إن شاء الله.
3. واصطفى له أزواجه المكرمات الطاهرات، حتى كُنَّ أمثلة لنساء أمته كُلِّ منهن جُلِّيَّ فيها مثال، فهذه المتبتلة، وهذه المتعفة، وهذه المنفقة السخية، وهذه المتعلمة الذكية المفتية، رضوان الله عليهن أجمعين.
4. كما اصطفى له مُهاجره إلى أرض طيبة، التي سماها الله في قديم الذكر «طابة»؛ يعني الطيبة.
5. واصطفى له أصحابه من أهل هجرته ونصرته، ومدحهم وأثنى عليهم في غير ما موضع من ديوان البصائر وبيناته.
6. واصطفى له ملاحمه الجهادية فكانت أشرف جهاد وأعظم فتوح.
7. بل إننا نجد ملامح الاصطفاء حتى في الأسماء التي أطلقت عليه وتسمى بها قبل نبوته ومن بعدها، تلك الأسماء التي تحمل عناوين صادقة على مُسمَّاهَا، ودلائل متحققة معانيها في ذات رسول الله ﷺ وفي أخلاقه.

اصطفاء الله جل في علاه لأسماء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

ونقف مع هذا المشهد الأخير الأقرب الذي نقرأ فيه صنوفاً من الاصطفاء الإلهي العلي لنبيه الكريم ﷺ؛ يقول ﷺ فيما أخرجه الإمام البخاري ومسلم: «لي خمسة أسماء» - لي - يعتز ﷺ ويُعرِّفُ وينتسب ويذكرُ؛ «لي خمسة أسماء، أنا محمد ﷺ، وأنا أحمد ﷺ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي لا نبي من بعدي»، ﷺ.

أسماءٌ خمسة، هي مراجع كل أسماء النبي، وهي مردُّ كل النعوت الشريفة المتعلقة به ﷺ، تلخص وتذكر بما هو مجمع الصدق والحق والمطابقة في

نعوت النبي المصطفى، لتجعل من أسمائه أصدق الأسماء وأحبها إلى من حلاه بها، وهو حسن الأسماء جل في علاه.

فاسمه «محمد» يفصح عن حلية النبي ﷺ وعلى آله وصفته، فهو محمد أي الموصوف بالمحامد، المحمود في الناس بسنيّ النعوت، لكمال خلاله، وما جمّله الله به ورفعَه إليه، فكان عليّاً في أخلاقه ومكارمه.

واسمه ﷺ «أحمد» يجلي نعتَه ووظيفته، فهو ﷺ أحمد الناس لربهم وأعبدهم له، والعبادة قمة حمد؛ ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 63]، وما حمد الله ولا شكره من لم يعبدَه، فأحمد الناس لربهم سيدنا محمد رسول الله ﷺ، يقول القرآن مقرراً هاته الحقيقة: ﴿بَإِنَّا أَوَّلَ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: 81].

واسمه الشريف «الماحي»، يذكر بِمُهمَّته التي بعثه الله لها، لِيَمْحُوَ به صور الظلمات بجميع أنواعها، ظلماً، وكفراً، ونكراً، وغدراً، وليقرر به ألوان النور المرتقي، وليبدل بأنوار رسالته وشرعته، وحليته وأسوته وقدوته، كل بؤر الظلم والظلام؛ ﴿فَدَجَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 17]، يمحو به الله الظلمة؛ فحين قال ﷺ: «وأنا الماحي»، معناه: تلك مهمتي، ولذلك يكره النبي أهل الظلمات، وأهل الظلم، الذين يسرقون في الظلام، ويعبثون في الظلام، ويكدرّون عيش الأنام، ويصيدون في الماء العكر القذر، الذين يكرهون النور ويكرهون الصفاء، اللهم صل على روح النبي ﷺ في الأرواح.

واسمه الشريف «الحاشر» ينبه على رتبته ﷺ وعلى آله، فهو أول الناس بعثاً يوم القيامة، وأول من يُسْتَقْبَلُ في عالم الخلود، وأول من تنشق عليه الأرض، رغم أنه وأُمته الآخريّن، قال ﷺ منبهاً على رتبته هو وأُمته: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة». وهذا تنبيه غاية على الرتبة العلية، التي تترتب عليها المرتبة السنية، وهي أنه ﷺ أول من يفتح له باب الرضوان، باب الجنة ويقول

الملك - خازنها - أمرت ألا أفتح لأحد قبلك، اللهم صلّ عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم البعث والنشور.

واسمه الشريف «العاقب أو الْمُقَفِّي أو الْمُقَفِّي به»، تنبيه على ميزته التي هي ميزة الختم، ولا يُخْتَم إلا بالمسك في الأرقى، الختم يكون بالأعم الأتم، والله ختم بالنبي ﷺ فجعله الله كاملاً، وختم به فجعله عاماً لكل الناس، رسالته عامة، ونبوءته تامة، فرسالته ليست بحاجة إلى من يعقب عليها من أنبياء الله، وليس عصره الشريف بحاجة إلى أن تتعدد النبوءات فيه، فهو ﷺ خاتم، واحد وخالد، واحد برسالته ﷺ وحليته ﷺ.

أسماء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدخل لمعرفة:

خلاصة المستفاد هو أن المدخل لمعرفة رسول الله ﷺ - الواجبة والمتعينة على كل منتسب بصدق - ، هو معرفة أسمائه الشريفة أولاً، ثم مطالعة تجلياتها في سيرته، فرسولنا ﷺ محمدٌ وأحمد، تلك حليته وتلك صفته، صفةٌ فيه وصفةٌ منه، الصفة التي فيه كمال محموديته، والصفة التي منه كمال أحمديته لربه، وهو الماحي، وتلك مهمته يمحو الله به الكفر، بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالحسنى، ثم وضع السيف بعد كماله، أي رفعه ليكون في مقام ترهيب من لا تنفعه الحكمة ولا الموعظة الحسنة ولا الجدال بالحسنى. وصدق القائل فيه:

تأمل أخِي سُمي المصطفى	تَجِدْ وصفه قد بدا بؤفا
فهو أحمد الناس أعبدهم	محمدٌ ممجدٌ علا وصفا
مقفى به الرسل خاتمهم	وماحٍ به الله كفرأ جفا
وحاشرهم سابق في الخروج	ليوم معادٍ به يحتفى

فصل اللهم عليه صلاةً تليق به وسلاماً كفى
وأهلٍ له قد زكوا محتداً وطابت مناقبهم شرفاً.

وهكذا يقف النبي الكريم ﷺ شامخاً، متألقاً بأسماءه المجلية لنعته بسني المناقب، فيتجلى كالنجم الثاقب، يقف ﷺ وعلى آله بركاته وبراءته، وطهارته وسمو شمائله، مثلاً للنور كالشمس في ضحاها، وتهاوى متساقطة دون كماله بين يدي سموه، القصائد العصماء مُستحِيةً أن يكون لها مقامٌ في الثناء عليه، إذ كيف يُثنى عليه وقد أثنى عليه الله في علياء السماء: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَمَلِكُكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]، صلى الله عليه وعلى آله كما يليق بمقامه، ويرحم الله القائل:

أخْلَائي من يُحصي مديح محمد في مدحه كتب من الله تقرأ
أيمدح من أثنى الإله بنفسه عليه فكيف المدح من بعد ينشأ.

أما الأقزام المجاهيل، الذين يطاولون السماء، ويحاولون النيل منها بمثل النباح والعواء، فأمرهم كما قال الله فيهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8]، يريدون ليطفئوا نور الله، بنفخ من أفواه أئمة في قرابٍ مُخرقة، صنيع الأحمق الذي يريد إطفاء نور الشمس بالنفخ، رغم بعد المسافة وقوة الضياء، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله وعد - والوعد منه لا يتخلف - متم نوره ولو كره الكافرون.

المقاصد المرجوة من ذكر المخصوص بختم النبوة:

سبق القول وتكرر بأن ذكرى رسول الله ﷺ يجب أن تضل حاضرة في نفوس المؤمنين، فلا تذكر لتضمر، ولا تروى لتطوى، شأن الذكر من أهل الإيمان، من أجل أن تضل شعلته حيةً وفاعلة، يجب أن يتصل فيذكر ويستمر، ولا يروى

من أجل أن يطوى وينعمر، فلذلك نعيد القول بأننا من أجل أن تظل ذكرى رسول الله ﷺ حية وموصولة منّا، ينبغي أن تكون متوخيةً هذه المقاصد الأربعة: وأولها التّولي، وثانيها التحلي، وثالثها التسلي، ورابعها التملّي، وهي بأربعتها صورٌ للاحتفاء به ﷺ، وعناوين صحيحة للخط الرّافع للمنتسب إليه.

مقصد التولي:

أن يتولى المنتسب ابتداءً لرسول الله ﷺ، تولية غيرة وعزة وانتساب، يتولاه بالاعتزاز وبالنصرة والاقبال عليه، ولا يتولى عنه إعراضاً ونفوراً وتخلياً ونسيان ذكر، تتولى نبيك، لأنه المظهر الأول للاحتفاء.

مقصد التحلي:

أن تتحلى مُتَجَمِّلاً بمكارمه الشريفة، وفضائله المنيفة، على قدر استطاعتك، متوسلاً بها إليه وُضلةً وشفاعة.

مقصد التسلي:

ونعني بالتسلي به ﷺ: التسلي بمواقفه، والتعزي بما حصل له رغم مقامه العلي، تتعزى بذلك وتصبر كصبره، وتثبت كثباته، وتحلم كحلمه، وتعفو كعفوه، ولك في رسول الله أسوة صلى الله عليه وعلى آله.

مقصد التملّي:

والمقصود بالتملّي: هو الامتلاء الارتواء بمحبته الشريفة صلى الله عليه وعلى آله، وبكثرة ذكره ومطالعة شمائله وسيرته، والوقوف على كمالاته الشريفة من أجل تغذية القلب بهذا اللون من ألوان الحب، وذلك حتى تكون هذه التجليات الاحتفائية حقاً تؤكد صلتك التي لا خلاف عليها برسول الله ﷺ، سني الخصال والخلال وبذلك ينقطع الجدل من أهل الخبال في مسألة الصلة برسول الله ﷺ.

تلكم هي كبرى تجليات الاحتفال الحق، المؤكّد بالصلة المثل لنينا ﷺ.

في بيان تولي الله تعالى بنفسه الدفاع عن نبيه الكريم

وإن تعجب - أخي القارئ الكريم - فاعجب أن يظل في دنيا الكتاب، وفي دنيا المعرفة، أو في دنيا ما يسمى بفن الجمال، أن يظل مُتَسَكِّعٌ يكتبون عن جوهره الكمال سيدنا رسول الله ﷺ بلغة الافتراء، ولحن الطعن والاجتراء، ويرسمون عنه بقلم البهتان والزور، ما هو الغاية في خسران الميزان، نعوذ بالله من غضبه وعقابه.

وصدق الله جل في جلاله وعلاه، صدق إذ خلّد في الذكر الحكيم سورة تحمل اسم المسد: - والمسد الحديد المحمي - في رمز للجزاء المُعَدّ للذين يفترون عن النبي الكريم؛ سورة تبت وخسرت يدا ولسان وقلم من أساء إلى الجناب الشريف ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1]، في إشارة قوية إلى استمرار وجود نظراء لهذا الحقد الأسود إزاء كل كمال محمدي، وفيه تشنيع صريح بهذا التصرف على هذا النحو الدنيء، مع التنبيه على غاية أمره وعقابه، التي هي عقبى التباب والخسر والدمار.

تبت يدا أبي لهب التي باشرت الإيذاء، وتب كله وجميعه وجملته، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ٢٠ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، بِأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ [هود: 120 - 121] صدق الله العظيم. والحمد لله رب العالمين، اللهم صل على سيدنا محمد في الأولين وصل على سيدنا محمد في الآخرين وصل على سيدنا محمد في الملا الأعلى إلى يوم الدين.

اللهم الحقنا بنسبه، وحققنا بحسبه، وبلغنا إياه، وانقلنا إلى شريعته وهدايته، واجعلنا من أهل شفاعته آمين آمين والحمد لله رب العالمين.

من الاسم الشريف إلى الوصف المنيف:

قسم التكريم في سورة القلم على تمام البراءة وجزالة العطاء لصاحب الخلق العظيم:

من اسمه الشريف إلى وسمه المنيف، لنطالع فيه صوراً أخرى من الاجتباء والاصطفاء، ومع أول قسم من التنزيل يجلي مقام النبي بغاية التبجيل، يقول ربنا في ثان سور الذكر المنزلة - ثاني سورة نزلت - تعجيلُ بهذا الشاء المثبت المطمئن المَعْرِفَ لرسول الله بمقامه عند ربه، ولهذا التوقيت دلالة، ثاني آيات تنزل تذكر النبي بمقامه عند ربه ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ① مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَنَاصِرٌ خَلِيٌّ عَظِيمٌ ④ [القلم: 1 - 4]، صدق الله العظيم؛ والقسم هنا - كما نبهنا مرارا - بأدواة العلم والمعرفة، فمن معاني «نون» الدواة والمحبرة، الدواة التي يوضع فيها الحبر والمداد، وعاء المداد، «والقلم» الذي يكتب به «وما يسطرون» يسطرون عليه، قد يراد به الورق، أي ما يكتب عليه، ويراد به العلم المكتوب نفسه، فهو قسم بأدوات المعرفة قلما ودواة وورقة، هذه الأقلام التي تخلد المعرفة، وكُتبت بها الكتب المشرفة، وخُلِّدت بها المعارف والعلوم، قَسَمٌ بثلاثة من أدوات المعرفة على أمور ثلاثة، كلها تدل على الوصل التام الذي لا ينقطع:

1. قسم على براءة رسول الله من الجنة واختبال العقل.

2. وقسمٌ بكونه موصولاً بغاية المِنَّة، المنة عليه لا تنقطع.

3. وقسم على كونه مُكَمَّلًا بمكارم تنقطع دونها الأعنة.

وفي هذا القسم بالقلم على علو مقدار سابق القَدَم، سيد العرب والعجم، نبي القيم ﷺ؛ فيه مناسبات بين المُقَسَّم به والمقسم عليه، ومن أقربها الإشارة إلى أن الذين يعرفون قدر رسول الله هم أصحاب هذه الأقلام، وأهل العلم المعرفة بحق.

إن الذين يُسَمَّح لهم بالولوج إلى رياض الكمال النبوي المحمدي، ومن ثمَّ العروج إلى سماء الإدراك للنور السرمدي، الذين يُسَمَّح لهم بالولوج ابتداءً، والعُروج انتهاءً في مقام إدراك الكمال المحمدي، هم أصحاب الأقلام الشريفة. أهل المعرفة هم المؤهلون لإدراك السِّر المصون، وإزاحة ما علق به من تُهَمِ أهل الفُتُون، أما هواة الظلام، وأعداء المعرفة، والمتاجرون باليراع، الذين يُحوِّلون المعرفة في شرفها إلى حِرْفَةِ الكَلَالِ - ثقافة الرعي -، هؤلاء بينهم وبين رسول الله ﷺ حجاب، بل بينهم وبين كُلِّ كمالٍ إنسانيٍّ عِلْيٌّ موانعٌ قاطعة، فلم يدخلوا من الباب، وكيف للأعمى أن يُقيم الدَّلِيلَ على ضياء الشمس، ولذلك صرح الله جلَّ في عُلاه، وهو العليم بأسرار الأنفس، وما انطَوَّت عليه من استعدادٍ للارتقاء إلى كمال القدس، صرَّح فيمن اختاره مُتَمِّمًا للختم - ختم رسالة الهداية للعالمين - بأنه إمامٌ وقُدوةٌ وإِسوةٌ وكمالٌ لعشاقِ هذا الكمال من أهل الاختصاص، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]، فهو ﷺ كمال في كل المكارم، وقمة في دفع المآثم وجلب المراحم، أي هو ﷺ قمةٌ في كمال مما ينبغي أن يُقتدى به فيه.

في بيان المؤهلين لمعرفة مقدار رسول الله صلى الله عليه وسلم :

والآية قَبْلُ شهادة من الله قاطعة لكل لسان، فالنبي ﷺ قدوة كمالٍ في كل كمال، ولكن السؤال هو: لمن؟ من يكون النبي قدوته؟ قال تعالى «لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا»، إنهم أهل القلوب الحية العامرة بالرجاء أملًا، والخوف خشيةً ورقابةً، واستعدادًا لما ينتظرهم في اليوم الآخر، وهم أهل الذكر الكثير، وكلها معانٍ قلبيةٍ لأصحاب القلوب اليقظة، وعشاق الكمال المحمدي، الذين يبحثون عنه في سيرته، وفي مواقفه، وفي ملاحمه، وفي

مراحمه، في إشاراته وفي كلماته، وهو ما يترجم بصدق عن محبتهم وتعلقهم، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره؛ والذين تَعُمَّرُ قلوبهم هذه المعاني من محبة ورجاء ورقابة، هم الذين يبصرون هذا الكمال الأحمدى، وهم الذين يُيسِّرُ الله عليهم متابعة نبيه، والاقتفاء لأثره، والاقتداء به في كُليَّته، إِتِّسَاءً باطنياً قبل أن يكون الاقتفاء ظاهرياً، وهؤلاء هم الذين يقفون على شاهد صدق قول الله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: 125]، الله أعلم بالمكان المناسب لهذا الختم، وأنه الإنسان الكامل محمد ﷺ.

إن الذين يقفون على سر التخصيص - تخصيص المصطفى ﷺ - فلا يتحدثون بعنوان البشرية على أنه مثل الناس، وإنما يلجون من ذلك إلى تخصيص هذا «النبي: الإنسان، البشر، الرسول»، الذي هو خير خلق الله كلهم، وهذه الخيرية أساسها النبوة، هؤلاء هم الذين تجدهم يتأدبون في حضرته العلية بما أمرهم به رافع ذكره، وشارح صدره، وواضع وزره، ومعلي قدره، يقول ربنا ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2]، ويقول جل في علاه: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ [النور: 61]. إن له لمقاماً مخصوصاً به، وإنما نُبِّهَ على بشريته في الكتاب، لأنها كانت مُعْتَمَدَةً لمن ينكرون نبوءته من المشركين الذين يقولون: إنه بشر، وبالتالي لن يكون نبياً، وحكى القرآن تلك المقالة على لسان الكافرين حيث قالوا: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّثْلَنَا وَاجِدْنَا نَبِيَّكُمْ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: 24]. وإلا فأنى لبشرٍ عادي أن يكون واسطة الوصل بين السماء والأرض.

نعم، لقد كان ﷺ وعلى آله منارةً للمهتدين، وسراجاً منيراً للسائرين، يُغري الناس إلى احتذاء منواله، بحاله قبل أن يدعوهم بلسان مقاله.

ذكر معاهد الثناء وموارد الاقتداء فيما يتصل برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

سنذكر على سبيل الاجتزاء، بعضا مما هو مَعْقَدٌ للثناء، ومورد للاقتداء، فقد كان ﷺ مثالا لكل خلق كريم:

مرحمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

كان ﷺ منبعا للمرحمة والرفق، والعفو عن المسيء بكمال الرحمة التي أودعها فؤاده الشريف، والمنبه عليها بقول الله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]، وقال ﷺ واصفاً حاله: «لَمْ أُبْعَثْ لَعَنًا»، حين قيل له: إلعن بني فلان وبني فلان، فردَّ عليهم قال: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت معلما داعيا هاديا» ﷺ.

وتراه ﷺ في إحدى مغازيه يمسح الدم عن جبينه الشريف، وقد أصيب فيها من أهل الكفر ويقول: «اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون»، لا يعلمون نفاسة الرسالة، ولا عظمة الهبة التي يحملها إليهم، ولا قيمة الخلاص الذي يُبشِّرُ به، فتراهم بجهلهم يُسيئون إليه، وكأنه يعتذر عنهم ﷺ، ويعتذر لهم: «اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون»، ويقول: «إني أريد أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله» يوحد الله ويعبده، وقد تحقَّق رجاء النبي ﷺ وعلى آله، فكان من أئمة الكفر أبناءً وحفدة حملوا رسالة الإسلام إلى مغارب الشمس ومشارقها.

جوده وكرمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

كان ﷺ مثالا للجود والكرم، «أجود بالخير من الريح المرسلة»، لا يُسأل شيئا إلا أعطاه، يقول فيه من جاء يتفحص أحواله: «رأيتُه يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر أبدا»، وكيف يخشاه وقد سماه الله في الكتب المتقدمة «المتوكل»، وفي نصِّ التوراة التي انتهت إلى أهل العلم ووقفوا عليها: «أنت عبي ورسولي

سميتك المتوكل»، والتوكل قِمَّةُ التوحيد؛ المتوكل يعتمد بالقلب على الرب، ولو باشر الأسباب فهو لا يرى منها ولا من خلالها إلا مُسَبِّها العزيز الأعلى.

زهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حال السعة والوجد والحاجة والفقد⁽¹⁾ :

كان ﷺ مثالا للزهد مع الوجد، لا مع الفقد، فما أيسر ما يزهد الإنسان حين يفقد، ولكنَّ الزهد حين تَجِد، قيل للأمام أحمد رضي الله عنه: أيكون الرجل زاهدا وعنده ألف دينار ذهبيا؟ قال: نعم، إذا كان لا يغضب إذا نَقَصَتْ ولا يفرح إذا زادت. تلك علامة الزهد القلبي الحقيقي.

كان صلى الله عليه وسلم وعلى آله يقول متوسلا لربه: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا»، وقد عُرِضَتْ عليه بطحاء مكة ذهباً فأراها من نفسه الشَّمَم ارتفعا عليها صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وقال: «بحسب ابن آدم لُقِيَمَاتٍ يُقْمَنَ صُلبه».

تعلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالله في كل حين وعلى كل حال :

كان وَلَعه وظمأه إلى الحُب الإلهي والمعرفة الإلهية، وكان غذاءه الشهي أن يتلقى هذه الأطباق الغنية الشَّهِيَّة من يَد مولاه، تَزَكِيَّة للروح، وتقوية لِسِنْد المعنى، ولكلِّ غذاءٍ مما يهوى وينتسب إليه.

كان ﷺ قِمَّةً في خشية الله، والعلم بالآلاء وآياته، يقول ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»، وقد سُمِعَ بصدِّره الشَّريف وهو يُصَلِّي أزيزٌ كأزيز المرجل، صوت كصوت موقد النار حين تشتعل به من شدة خوفه من ربه.

(1) كان ﷺ في تمام الزهد، ذلك أنه عرضت عليه الدنيا بأسرها، ولم يلتفت إليها رغم أنه كان فيما يبدو في حاجة إلى مدد من مال وثروة يسد بها خلة أتباعه، ولكن صدق فيه قول مادحه:

وكيف تدعو على الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

كان ﷺ مثلاً للخاشع الذي يفعل للمواعظ المذكرة، فإذا سمع الرعد قال «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك»، وإذا هبت الريح القوية الشديدة تراه يتحرك يَمَنَّةً وَيَسْرَةً، ترتعد فرائصه، وقد اصفرَّ وجهه الشريف ﷺ، كان يفعل لآيات الله سواء كانت آيات نفحات أم لفحات، يُحسُّ بالقرب من الله وِوَلَايته، كان يحسّر عن ذراعه الثوب لِيَسْتَقْبِلَ قطرات المطر الأولى ويقول في استبشار: «إنها حديثه عهدٍ بالله ربنا».

وكان ﷺ إذا هبت النسائم المنعشة المُحيية قال لأصحابه: «تلك نفحات من أنفاس الرحمان» أي اشرحوا لها صدوركم، هكذا كان ﷺ يعيش بروح ذاكرة مستحضرة، موصولة بالله وبآياته.

حسن عشرته صلى الله عليه وسلم

وكان ﷺ أسوة للزوج الكريم في حسن عشرته لزوجته، ورفقه بأهله، وعدم نسيانه للفضل فيما بينه وبين زوجته، ويقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، ما مدَّ يده ليضرب امرأة من نساءه ولا لغيرهن، ولا ليصفع وجه صبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

كان أسوة للأستاذ في صدقه وأدبه، ونصحه لطلبته يشرح بالمثال، ويتأنى في السؤال، ويكرر المقال ﷺ.

كان أسوة للقائد في تفانيه، وجهده وشفافيته، ومشاورته لحواشييه، وتفطنه وحسن تدبيره، وعدم اغتراره بالموقع والمنصب، تواضع في قمة الشرف، كان مثلاً للأب في دأبه على إصلاح ذريته، وسعيه عليهم بما يُعفُّهم ويكفيهم، ويصونهم عن مواطن الابتذال والابتلاء والامتهان.

كان مثلاً للحاكم في أمانته، وعدالته وطهارته، وصيانتته وخوفه من ربه في رعيته، وحفظه لرعاياه اتّقاءً لمولاه جل في علاه.

كان مثلاً للعامل في جدّه، ووفاءه لمستأجره، وأداءه لما طلب منه، ومراعاته لمسؤولياته.

كان ﷺ كل ذلك وفوق ذلك، فهلمّوا معاشر الباحثين على الكمال، هلمّوا معاشر المحبين إلى هذا البحر الزخار، لتغترفوا في حدود مستطاعكم مما يسر الله لكم، من معاني الخير والكمال، وصدق الله العظيم إذ يقول في نبيه مُثْنِياً عليه، ومرشداً إلى سبيل الوصول إليه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21].

اللهم اجعلنا من أهل المعرفة، واجعلنا يا مولانا من المستعدين لاتباعه في كمال الصفة، اللهم صل عليه صلاتك التي صليت عليه، وسلم عليه سلامك الذي سلمت عليه، واجعلنا من خير المصلين والمسلمين عليه، ومن خير المقربين منه الواردين عليه، وفرحنا به في عرصات القيامة، واجعله لنا دليلاً إلى جنات النعيم، بلا مؤونةٍ ولا مشقةٍ ولا مناقشة الحساب، واجعله مقبلاً علينا، ولا تجعله غاضباً علينا، برحمتك يا أرحم الراحمين، اللهم انفعنا بمحبته، وأحينا على سنته، وأمّتنا على ملته، واجعلنا من أهل شفاعته، ولا تحرمنا من يده الشريفة شربة لا نظماً بعدها أبداً، آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.





المحور الثاني:

نور السراج في حديث الإسراء والمعراج



الاسراء والمعراج

ثالث⁽¹⁾ الأطوار الكبرى في حياة صاحب الشريعة اليسرى

الاسراء والمعراج، ثالث الأطوار الكبرى في حياة صاحب الشريعة اليسرى: من أطوار رسول الله ﷺ العظمى، وانتقالاته الكبرى، مسراه ومعراجه، وهو ثالث انتقالاته وأطواره ﷺ، والحدث هذا وإن اختلفَ في ظرفه وزمانه، أي في ذات الشهر الذي أسري فيه برسول الله ﷺ، فمن قائل بأنه في ربيع الأول، وهو الراجح كما ذهب إليه الحافظ وغيره، ومن قائل إنه في رجب الفرد، وذهب إلى ذلك الإمام النووي في روضته، وقطع بذلك الرافي.

وإن اختلف في ظرفه، أي في شهره، فقد حصل الاتفاق بين أئمة السير على أن مسراه ومعراجه ﷺ حدث بعد بعثته وقبل هجرته، والراجح أنه كان قبل الهجرة بنحو سنة أو تزيد قليلا، والذي يهمنا من هذا الحدث العظيم دلالاته وحكمته والعبرة منه، وهذا بعض البيان لما يتصل به مما هو سبيل إلى تجديد الإيمان، وتعميق المعرفة المؤكدة للوصل بالمصطفى ﷺ.

المقصود بالاسراء والمعراج:

يقصد بالاسراء تلكم الرحلة العجيبة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة، إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف.

ويقصد بالمعراج ما أعقب هذه الرحلة الأرضية، من ارتفاع في طباق السماوات العلى، حتى الوصول إلى مستوى تنتهي عنده عموم الخلائق، ولا يدري كنهه أحد، وهو المشار إليه بسدرة المنتهى، ثم الأوبة من ثم، والعودة

(1) الطور الأول: هو طور الميلاد، والطور الثاني: هو بعثته لهداية العباد.

من هناك إلى المسجد الحرام، وقد كانت الرحلة الأولى الأرضية على البراق، والرحلة السماوية المسماة بالمعراج كما صححها أصحاب أئمة السير، وقد أشار القرآن الكريم إلى الرحلتين في سورتين مختلفتين منفصلتين، فذكر قصة الإسراء وحكمته بالنص الصريح في سورة الإسراء، بقوله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِّنَ الْآيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1]، وذكر قصة المعراج بدلالة التلميح، وبين غايته في سورة النجم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ هَاجِئَةِ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِّنَ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: 13 - 18]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أي جبريل على الراجح، ولقد رآه؛ أي رأى محمد ﷺ جبريل، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ هَاجِئَةِ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِّنَ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ.

وإنما قلنا بدلالة التلميح لأن رؤيا رسول الله ﷺ لجبريل عند سدره المنتهى يلزم منه صعوده إلى السماوات العلا وعُروجه إلى هناك، ولحكمة لم يذكر النص بالمعراج في القرآن، وإنما ذكر الإسراء بنصه الصريح، حتى قال أهل العلم: الإجماع على تكفير من أنكر الإسراء، والخلاف فيمن أنكر المعراج بجسد رسول الله ﷺ، وتعليل الإسراء والحكمة منه كما نصت عليه آياته، أن الله ﷻ يريد أن يري عبده محمدا ﷺ بعض آياته، وقد أوضحت آية المعراج أنه فعلا شهد ﷺ من آيات ربه الكبرى.

في كون الإسراء والمعراج كان بشخص رسول الله ﷺ روحا وجسداً؛

نعم؛ لقد كانت الرحلتان معاً - الأرضية والسماوية - بشخص رسول الله ﷺ الكريم، روحا وجسداً على الصحيح، وهو ما يستفاد من قوله تعالى في نص

القرآن: «بعده»، وإلا لما كانت الرحلة معجزة؛ أي إذا كانت مناما أو شبهه، أو انتقالا روحيا لما كان الحدث معجزة، ولَمَّا كان خبره فتنة وامتحانا.

لقد أسرى الرب ﷻ وعرج بنبيه تكريما له، والفاعل هنا الله سبحانه الذي عرج بنبيه، هو الرب ﷻ، وحين يفعل الله أو يتحدث عن فعله، فضع أخي المؤمن معايير ومقاييسك وموازينك، إن القدرة الإلهية تختزن كل ذلك وتربوا عليه.

كيفية الإسراء والمعراج:

حدث الإسراء والمعراج حين بعث الله إلى نبيه براق خارق، بكائن معجزة في ذاته، براق مع روح القدس جبريل ﷻ، والبراق كما حدثتنا السيرة دابة تضع خطوها عند أقصى نظرها، وكأنها تمشي بسرعة الضوء، وكلمة «براق»، هذا الاسم المطلق عليه يشير باشتقاقه إلى البرق، وكأن قوة الكهرباء سخرت في هذه الرحلة الكريمة المباركة، جسد رسول الله ﷺ جسد بشري، لا يقوى في الحالة الاعتيادية على أن يتنقل بهذه السرعة، إذ لا بد أن يعد لذلك إعدادا خاصا يحصن أجهزته، ويصون قدراته في هذا السفر الغريب، ولعل ما صح من شق صدر رسول الله ﷺ وحشوه بالإيمان والحكمة وهو على أبواب هذه الرحلة، إن هو إلا رمز لهذا الإعداد المحتوم.

الرموز والدلالات المصاحبة لرحلة الإسراء والمعراج:

رحلة الإسراء والمعراج غنية بالرموز ذات الدلالة التي تدقُّ على فهم البسطاء والسذج، ولذلك فإننا لن نستطيع أن نستوعب الحدث بكل معانيه بهذه العجالة، ولا يمكن أن نوفيه ما يستحق لما يكتنفه من الجلالة وعمق الدلالة، فالفاعل فيه هو الله رب العالمين، ومتعلقه أطهر قلب وأفضل خلق، وهو سيد المرسلين ﷺ، وحسبنا من مثل هذه الرموز، تلكم المعالم المتصلة بالإسلام باعتباره رسالة خاتمة وخالدة ووارثة، ومن ذلك ما يلي:

في كونه من البيت الحرام إلا المسجد الأقصى ثم إلى السماوات العلا :

ونتساءل لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ابتداء ولم تبدأ من المسجد الحرام رأساً إلى السماوات العلا؟ إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم، فقد ظلت النبوات دهوراً طويلاً وهي وقف وحبس على بني إسرائيل، وظل بيت المقدس مهبط الوحي ومشرق أنواره على الأرض، فلما أهدر اليهود كرامة وحي الله، وأسقطوا أحكام السماء، حلت بهم لعنة الله ﷻ، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، وأن يحرموا من هذه الكرامة، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى رسول الله ﷺ انتقالاتاً فعلياً وحقيقياً بالقيادة الروحية في العالم من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وقد كان غضب اليهود مشتعلًا لهذا التحول، مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره، يقول الله ﷻ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءٌ وَيَغْضِبُ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: 89]، ولكن إرادة الله مضت، وحملت الأمة الجديدة رسالتها، وورث النبي العربي ﷺ تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وقام ﷺ يجاهد لنشرها وجمع الناس عليها، فكان من وصل الحاضر بالماضي، وإدماج الكل في حقيقة واحدة هي حقيقة الإسلام الخاتم، كان مما يدل على ذلك أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام، وأن ينتقل إليه الرسول ﷺ في أسرائه أولاً قبل معراجته، وأن يعد شد الرحال إليه والاعتكاف به من شعائر هذا الدين، إذن في هذا الانتقال برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى تقدير بلغ الغاية للإيمان الذي كان ثم، أي للإيمان الذي درج قديماً في رحاب المسجد الأقصى، ومن هنا جمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في الأرض ليستقبلوا صاحب الرسالة الوارثة، ذلك أن النبوات يصدق بعضها بعضاً، ويقدم السابق منها

اللاحق، وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بني إسرائيل في قوله: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَاءَ اتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 80]، وصح عنه ﷺ أنه صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين بالمسجد الأقصى، فكانت هذه الإمامة إقراراً مبيناً بأن الإسلام كلمة الله الخاتمة إلى خلقه، أخذت تمامها على يد رسول الله ﷺ، بعد أن وطأً وقدم لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين.

رحلة الإسراء والمعراج برد يقين على فؤاد رسول الله ﷺ وتخفيف لما لاقاه من صنوف الاعتداء والبغضاء والافتراء؛

إن الكشف عن منزلة رسول الله ﷺ ومكانة دينه ليس مدحا جزافا يساق في حفل تكريم، بل هو حقيقة مقررة في عالم الهداية منذ تولت السماء أرجاء الأرض، ولكنه هذه المرة جاء في إبانة المناسب تماما غاية المناسبة والإعجاز، ذلكم أن حمل الدعوة الذي حمّله رسول الله ﷺ على كاهله عَرَضَهُ لعواصف عاتية من الاعتداء والبغضاء والافتراء، ومزق شمل أتباعه، فما ذاقوا منذ آمنوا به راحة الركون إلى الأهل والمال، وقد كان آخر عهدٍ (أي، العهد بميثاق الدعوة الكبرى) طرد ثقيف لرسول الله ﷺ من الطائف، ثم رجوعه منها ﷺ ليدخل البلد الحرام في جوار رجل مشرك، هو المطعم بن عدي، إضافة إلى ما فقدته صلى الله عليه من السكن الذي كان له في بيته بموت خديجة رضي الله عنها، وما فقدته من الحماية ممثلة في عمه أبي طالب.

إن هوانه ﷺ على الناس جعله يجأر إلى الله فرارا من الناس إلى رب الناس، شاكيا راجيا يقول: «إلى من تكلني إلى من تكلني»، فمن تفضيل الله ﷺ،

ومن نعمائه عليه أن يهيئ له هذه الرحلة المزدوجة ليمسح فؤاده المعنى ببرد الراحة واليقين، وليشعر بأنه بعين الله ورعايته منذ قام يوحدته ويعبده، وينشر في العالمين نور هدايته، ليلتها أي ليلة إسرائه ومعراجة علم ﷺ أن حظه من رضوان الله جزيل عظيم، وعلم يقينا أن مكانته بين المصطفين الأخيار مكانة موطدة مقدمة، وصدق الله وعده لنبيه بتواتر اليسر مع كل معسرة، شرحا للصدر، ورفعاً للذكر، ووضعاً للوزر مصداقا لقوله المجيد: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنفَضْ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [سورة الشرح].

لقد كان الحدث العظيم عنوانا لمحبة الله لأهل ولايته ومحبته، وهدية ومكرمة لأهل طاعته وخدمته، وهو جل في علاه القائل في محكم آياته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسِعًا ۖ لَمْ يَغْنَصْهَا أَفْدَالًا لَّهُمْ ۖ وَالنَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ صَلَوةُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ هُوَ الْمَخْصُوصُ بِأَعْظَمِ حُبٍّ، وَالْمُمِيزُ بِأَفْضَلِ قَرَبٍ.

في مجيء حدث الإسراء والمعراج منصفاً لعمر الدعوة النبوية :

وقع حدث الإسراء والمعراج في تاريخ الدعوة قريبا من منتصف فترتها التي امتدت قرابة ثلاثة وعشرين عاما، وبذلك جاء علاجا ربانيا مسح متاعب الماضي عن صدر رسول الله ﷺ والثلة المؤمنة، ووضع بذور النجاح لمستقبل الدعوة المحمدية، ذلك أن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السماوات والأرض، ومطالعة الغيب شهادة له أثره الحاسم في دعم اليقين، وتوهين كيد الكافرين، وتصغير جموعهم، ومعرفة عقباهم ومصيرهم، وقد علم ﷺ يقينا بعد هذه الرحلة المباركة أنه بصدق هو الوارث الموعود به في النبوات السابقة.

دلالة رؤية رسول الله ﷺ للنيل والفرات في الجنة ضمن مشاهد الرحلة العزيزة:

من الدلالات اللاحبة في رحلة الإسراء والمعراج أن رسالة الإسلام ستنتسح في الأرض، وتتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات، وستنتزع هذه البقاع من ماجوسية الفرس وتثليث الروم، لتضطبع الأرض بصبغة الله وفطرته، وليرفع لواء التوحيد في الخافقين، وليمكن شرع الله في العالمين، بل إن أهل هذه الأودية سيكونون فعلا حملة الإسلام جيلا في أعقاب جيل، وهذا معنى ما ترمز إليه رؤية النيل والفرات في الجنة ضمن مشاهد هذه الرحلة العزيزة الغريبة، إذ رأى رسول الله ﷺ في الجنة النيل والفرات ينبوعا من الجنة وفيه رمز لهذه المعاني.

دلالة ما قدم للرسول الله من الأشربة وهو على أبواب العروج:

ورد في سياق الحدث أن الله تعالى أكرم نبيه ابتداءً بِقَرَى ممثلا فيما قدم له ﷺ من الأشربة المختلفة، فقد صح أنه ﷺ أوتي بإناء من خمر وإناء من لبن، وخَيْرٌ في أن يأخذ أيهما شاء، ولمَّا يُحَرِّم الخمر بعد، إذ لم ينزل دليل التحريم قبل، خَيْرٌ في أن يأخذ أحدهما، فامتدت يد رسول الله ﷺ إلى اللبن، فقال له جبريل عليه السلام: «هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك» وفي رواية: «لو أخذت الخمر لغَوَيْتَ ولغَوَتْ أمتك»، في دلالة رمزية تؤكد على الصفة الأولى لهذا الدين، وأنه دين الفطرة، جاء ليهذبها ويكملها، ويبني على أساسها، ويرقى بها إلى تمام كمالها، فمثال الفطرة اللبن في صفائه ونفعه، وغذائته ومناسبته للتنشئة، إن سلامة الفطرة هي لب الإسلام، ويستحيل أن تُفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة عليل الفؤاد، إن الفطرة الرديئة ساقطة كالعين الحمئة، لا تسيل إلا قدرا وسوادا، وربما اختفى هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية ومظاهر خداعة، بيد

أن ما ينطوي على الناس لا يندفع به رب الناس العليم الحكيم، وحين تصبح العبادة التي جاءت لتبني على أساس الفطرة والبحث على تكميلها، حين تصبح ستارا لفطرة فاسدة، فإنها تعد بصدق أنزل رتبة من المعاصي الفاجرة، ورحم الله القائل:

إذا رام بالصلاة مكرًا مقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقرب.
والناس كلما تقدمت بهم المدينيات تعمقوا في التكلف والمصانعة والرياء، وابتعدوا عن الفطرة وسوائها وعفويتها، وقيدوا أنفسهم بقيود جعلوها من دين الله، ودين الله منها براء، وهذه التكلفات كلها حجب تطمس وهج الفطرة وتعكر نقاوتها وطلاقتها.

**منحة الواهب الكريم ممثلة في فرض الصلاة على رسول الله وعلى أمته
صلى الله عليه وسلم وعلى آله.**

في المعراج أيضاً شرعت الصلوات الخمس، والتي هي منحة من الله ﷻ لأمة رسول الله ﷺ، وفيها طُوِيَت صورة المعراج الذي هو وسيلة للتقرب، فكأن الإله عرج بنبيه وقال له: خذ إلى أمتك معراجهم إلي.

شرعت الصلوات الخمس في السماء لتكون معراجاً يرقى بالناس كلما هبطت بهم شهوات النفس وأغراض الدنيا الدنيئة، ومن ثم قرن القرآن بين السجود والقرب قال تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: 20]، وقال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

وفي الصلاة مناجاة، ولا ينجي الإنسان إلا القريب منه، إنما يُخَاطَبُ سِرًّا القريب، ففيها إشعار بالقرب، قال ﷺ: «المصلي يناجي ربه».

إن الصلوات التي شرع الله لتكون معراجاً إليه، هي غير هذه الصلوات التي

يؤديها الكثير منا، إن علامة صدق الصلاة ووقوعها مواقعها أن تعصم المصلي صاحبها من السقوط في الدنأيا، وتجعله على الأقل يخجل حين يُلمُّ ببعضها من أن يقيم عليها، ﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45] فإذا كانت هذه الصلاة المعراج مع تكرارها لا ترفع صاحبها إلى هذه الدرجة، فإنما هي - والعياذ بالله - صلاة زور، وشعار غرور.

إن الصلاة طهور كما أشار ﷺ في قوله: «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه خمس مرات في اليوم هل يبقى ن درنه ووسخه شيء؟ قالوا: لا يا رسول الله، فقال ﷺ: فكَذَلِكَ الصَّلَاةُ الْخَمْسُ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَ الْخَطَايَا». إلا أن الصلاة طهور فعلا للإنسان الحي أو القريب من الحياة، أولئك هم الذين تطهرهم الصلاة.

أما الذين هم في حكم الجثة العفنة الآسنة، من أصحاب القلوب الميتة، فلا تُجديهم الصلاة فتىلا، ولن يزالوا كذلك حتى تحيي قلوبهم أو يوارىها الثرى.



المحور الثالث:

دروس الاعتبار والانتصار للنبي المختار

- بصائر الهجرة النبوية في المواقف اللاحبة والأحداث المصاحبة.
- بصائر الهجرة النبوية في الدوافع المُرْتَبّة والمنافع المُتَرْتِّبة.
- بصائر الهجرة النبوية من بناء الساجد إلى بناء المساجد.
- بصائر الهجرة النبوية في بناء دولة الإسلام على أسس الدوام ودعائم القوام ومناهج التمام.
- بصائر الهجرة النبوية في كونها أَلَم المحاصر المتحمل، وأَمَل الصابر المتجمل وأَفَق الواثق المؤمل.
- تجليات السُنن الإلهية في أحداث الهجرة النبوية.

(1) بصائر الهجرة النبوية في المواقف اللاحبة والأحداث المصاحبة

يذكر المؤمنون في مستهل عامهم الهجري، حدثاً عظيماً فاصلاً من أيام رسول الله ﷺ التي هي من أيام الله، والتي ينبغي تذكرها والتذكير بها لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 7]، وهي أيضاً من آيات حمد الله التي أَرانا الله إياها في حياة رسول الله ﷺ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرَبِّكُمْ دَاءِ آيَاتِهِ بَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 95].

إنه يوم هجرة رسول الله ﷺ، وإنجاء الله له؛ إنجاء الله نبيه الخاتم مما دبره الماكرون، وأرادوه من الإجهاز عليه، وتبيت اغتياله في فراشه وسكنه ﷺ وعلى آله، وذلك منهم كآخر محاولة في سلسلة المكر المقيت من أعداء النور، وسدنة الظلم، ودعاة الشبور، يقول الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُتَّقِلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

كيف بك أخي المؤمن لو رأيت حبك المصطفى ﷺ وعلى آله، وهو مُسَجَّى بثوبه على فراشه، وسيوف الكفرة تنتظره مُشْهَرَةً للانقضاض عليه، وفق ما دبره المكرة في دار ندوتهم بفتوى شقيهم.

كيف بك أخي المؤمن إذا رأيت المصطفى المجتبي من الله، - عليه أفضل الصلاة والسلام - وهو بغار ثور يتخفى، وعيون الرصد تكاد تقع عليه، وليس بينه وبين واضع اليد عليه إلا حجاب لطف وستر، تمثل في حشرة ترد مكر المكرة.

كيف بك لو رأيت المجتبي المصطفى سيدنا رسول الله ﷺ وهو يقطع الفيافي؛

فيا في البيد في صحراء ممتدة عارية، وجبال صلبة تحت شمس محرقة، لا زاد كاف، ولا حراسة وافية، ولكن عين الله التي لا تدع نبيه في مهب رماح الرماة من المكرة، ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: 46]، الله جل في علاه يقول له: أنت مرئي ومحفوف بالطفانا.

وهو ﷺ في كل تلکم المواقف والمواقع، يحس بأنه مهاجر إلى ربه، عن إذنه وبأمر منه، محفوف من لدنه بالطفاه، ثابت الفؤاد بالسكينة المتنزلة عليه، مؤيدٌ بجنود غير مرئية.

والقرآن الكريم حين يتحدث عن هذا الحدث العظيم، الأغر الكريم؛ يتحدث عنه بعنوان النصر: ﴿الْأَتَتْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40]، أنجاه الله حين أخرجه الذين كفروا بعنوان نصرٍ لدني مسندٍ إليه تعالى باسم الجلالة؛ «فقد نصره الله»، وسر اختيار الله لهذا العنوان لتلكم الرحلة، هو دفع كل ما يُظنُّ أو يُتوهم من قارئٍ لسيرة رسول الله ﷺ من أن هذه الهجرة كانت فرار مُتَصَعِّفٍ مُضْطَهَّدٍ، أو خروج مهزومٍ فاقد للسند، الحديث عنها بعنوان النصر لدفع ما يُتوهم من أنها كانت من مظاهر الاستكانة، أو اليأس من مواجهة الطغيان الذي طال ليله من غير استبانة.

نعم، لقد كانت هجرة نبينا ﷺ بداية الانتصار على قوى الاستكبار، وكانت كما سماها القرآن «مخرج صدق»، كما رجاها رسول الله ﷺ وكما لقنه الله في دعائه، وهو على أبواب هجرته: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ [الإسراء: 80]، والصدق يراد به هنا غاية الرضى

والقبول، إذا كان خروجي خروجاً في محل الرضى منك فلا أبالي، إذا كان طردي من هنا محلاً لرضوانك فليست أبالي.

ولأن الهجرة كانت خروجاً عن إذن الله، وبأمر الله، فهي بذلك واقعة منه موقع طاعته ورضاه، لم تكن خروج مُغاضِبٍ، ولا خروج مُنكَبٍّ، ولا خروج مستثقلٍ للتبعات، ولا مُطالِبٍ بجريرةٍ أو مُتنصِّلٍ من تبعة.

خروج المصطفى مهاجراً من مكة إلى المدينة إحياء لسنة الهجرة إلى الله :

لقد أحياء ﷺ بهجرته سنة الهجرة إلى الله، التي أعلنها الخليل الأول أبو الأنبياء في قوله فيما حكاه القرآن عنه: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: 25]، ولوط ابن أخت إبراهيم، قال إبراهيم: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾.

هاجر ﷺ إحياء لهذه السنة، بعد أن قررت عصابة الكفر الإجهاز عليه في دار ندوتها، وسجل القرآن - كما مر - مؤامرتهم وما بيتوه، وما تداولوه من صنوف الغدر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

التضحية والبذل أساس نوال الترقية والفضل :

وأول دروس الاعتبار، الاستفادة من ذكرى هجرة الانتصار، - حيث مضت هجرة رسول الله ﷺ وبقيت معانيها - أن التضحية والفداء والبذل، أمورٌ لا مندوحة عنها، ولا غنى عنها لأصحاب المبادئ ومُرِيدِي الإصلاح؛ هي أثمانٌ للجواهر الحسان، وقديماً قال الحكماء:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام.

وقالوا:

«ومن خطب الحسناء لم يُغْلِه المهر».

فها هو رسول رب العالمين صلى الله عليه وعلى آله وهو المؤيد بالتمكين، يخرج من بلدته، مسقط رأسه ومحل نشأته، خرج من مكة بعد أن قضى فيها أزيد من خمسين عاما من عمره، خرج مهاجراً في سبيل دعوته، ارتحالا بها وبغراسها إلى حيث التربة الطيبة، ليكتمل نموها هناك، بعد أن استبان أن مكة لا تصلح لبناء الكيان.

لم تكن هجرة رسول الله ﷺ رحلة مريحة، ولا سفراً قاصداً قريباً، ولم تكن رحلة استطلاع أو استمتاع، وإنما كانت ارتحالاً مُضنياً، وضرباً في بيداء محفوفة بالمخاطر والأهوال.

فأية قوة تلكم التي كانت تمسك بقلب المهاجر العظيم، وتسندوه وهو يركب متن الصحراء، متعرضاً لحرها وأخطارها، في فقرٍ من مالٍ وقلّة من رجال، ونقصٍ من عدة، وكبرٍ من سنّ، ومطاردة مستميتة من أعتى أعدائه وخصومه، وقد كان بإمكانه ﷺ أن يحضى بالعيش الهنيء والمُقام الراغد والجاه العريض، لو قبل بما عرضته عليه قريش، تنازلاً عن رسالته وقبولاً بالباطل والإفك المتفق عليه، ولكنه ﷺ أبى إلا أن يعلن براءته ومفاصلته كما لقنه القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ أَنِّي بَرَاءٌ لِّمَا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ، فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ [هود: 54].

إنه الثبات على المبادئ في أجلى صوره وأفصح أشكاله، إن نبينا صلى الله عليه وعلى آله يريد لهجرته، لِمَا تحمله من معاني خالدة وأسرارٍ مُتفرّدة، فداءً ووثباتاً، وصموداً وتوكلاً، وصدقاً ويقيناً وتحملاً؛ يريد لها أن تستمر بهذه المعاني

فِي أُمَّتِهِ الْكَرِيمَةِ، وَفِي أَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ ﷺ وَعَلَى آلِهِ: «الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ».

إِنَّ التَّحَوُّلَ عَنِ الْإِثْمِ، وَالانْحِرَافَ وَالْوَهْمَ، وَالْبَعْدَ عَنِ الْبَغْيِ وَالْإِسْرَافِ وَالظُّلْمِ، وَالْفِئْتَةَ إِلَى رَحَابِ الْاسْتِقَامَةِ وَالثَّبَاتِ، هَجْرَةٌ مَرْضِيَّةٌ، بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ يَجْعَلُ الْعِبَادَةَ فِي الْهَرَجِ، وَالْاسْتِقَامَةَ فِي زَمَنِ الْفِتْنَةِ، هَجْرَةٌ إِلَيْهِ تَحْدِيدًا، وَهِيَ بَاقِيَةٌ وَدَائِمَةٌ مَا دَامَ فِي أُمَّتِهِ قَابِضُونَ عَلَى الْجَمْرِ، وَمُسْتَمْسِكُونَ بِالْحَقِّ فِي أَزْمَنَةِ الْغَدْرِ.

التَّأْرِيخُ بِعَنْوَانِ الْهَجْرَةِ إِرْشَادٌ إِلَى مَلَاذِمَةِ أَسْبَابِ الْعِزِّ وَالنَّصْرَةِ؛

لَقَدْ فَهَمَ الصَّحَابَةُ الْكِبَارُ هَذَا الدَّرْسَ عَنْ نَبِيِّهِمُ الْكَرِيمِ، حِينَ وَافَقُوا الْفَارُوقَ سَيِّدَنَا عَمْرًا عَلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنْ ذِكْرِ الْهَجْرَةِ وَحْدُثِهَا مَبْدَأً لِلتَّأْرِيخِ الْإِسْلَامِيِّ تَخْلِيدًا لِهَذِهِ الْقِيَمِ الْأُصُولِ، الَّتِي فَاحَ شَذَاهَا مِنْ خِلَالِ ذِكْرَاهَا، وَأَيْضًا تَفَاوُلًا بِأَطْرَادِ النَّصْرِ فِي حَرَكَةِ التَّأْرِيخِ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَكَأَنَّ التَّأْرِيخَ بِالْهَجْرَةِ إِرْشَادٌ لِمَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، إِلَى أَنَّهُ لَا تَأْرِيخَ لِلأُمَّةِ يُعْتَدُّ بِهِ وَيُشَدُّ عَلَيْهِ، وَيَسْتَحَقُّ أَنْ يَكْتُبَ إِلَّا مَنْ خِلَالِ حَرَكَةِ ارْتِقَائِهَا وَتَحَوُّلِهَا نَحْوَ الْأَفْضَلِ، هَذَا الْحَقِيقُ بِأَنْ يَكْتُبَ تَأْرِيخًا، وَإِلَّا فَحَرَكَةُ الْانْحِدَارِ وَالْهَبُوطِ، وَالتَّدْنِي وَالسَّقُوطِ، لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تَسْجَلَ بِمَدَادِ الْهَجْرَةِ.

إِنَّ حَرَكَةَ التَّأْرِيخِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُؤَرِّخُ لَهُ بِالْهَجْرَةِ، عَنْوَانُ الظُّفْرِ وَالنَّصْرِ، مُشْرُوطَةٌ أَنْ تَكُونَ وَجْهَتَهَا الْحَقُّ، وَمَنْهَجُهَا الصَّدْقُ وَالرَّفْقُ، وَأَمْلُهَا فِي غَدِّ وَاعْدِ مَشْرِقٍ، يَنْطَلِقُ الْمُسْلِمُ بِإِرَادَةٍ فِي الْإِصْلَاحِ لَا يَعْتَرِيهِ الْمَلَلُ، وَبِبَصِيرَةٍ يَتَّقَى بِهَا مَوَاقِعَ الزَّلَلِ.

المهاجر من هجر ما نهى الله عنه :

إن عزم المؤمن على ترك الإثم، درس شخصي من هجرة رسول الله ﷺ، إن عزمك على ترك الإثم والظلم الذي أنت عليه جزئياً أو كلياً، والكل مخاطب ما دام ينتسب إلى الإسلام في أية دائرة من دوائر الانتساب:

• إن عزمك على ترك الإثم والظلم، وتجاوز الوهم بحسن العلم والفهم، هو هجرة مُتَقَبَّلَةٌ منك.

• إن حرصك على أن تظل نظيف اليد واللسان، عفيف الفرج والجنان في ظروف الافتتان، هجرة مرضية محمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

• إن إصرارك أخي المسلم على الاستمرار في نهج الصلاح والاستقامة، والبناء المرضي من الله من غير التفات لعتاب ولا ملامة، هو هجرة على صراط الله المستقيم.

وبهذا العزم المستمر على الارتقاء، نكون بحول الله أهلاً لعناية الله ونصرته، وتوالي فتوحه وولايته، مصداقاً لقوله المجيد: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 38]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

أول وصية لرسول الله ﷺ بعد وصوله إلى المدينة المنورة :

أخرج الإمام الترمذي بسند صحيح عن سيدنا عبد الله بن سلام قال: «أول ما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس إليه - أي هرولوا نحوه - قال: فكنت ممن جاءه فلما تأملت وجهه واستثبته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب»، صلى الله عليه وعلى آله، قال: «وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام».

أول خطبة لرسول الله ﷺ على أبواب طيبة، وبعد هذا العناء، وهذا الجهد، وذلكم التآمر لإخراجه، يتحدث ﷺ بهذا القلب النبوي الراقي، لا يذكر شيئاً مما قد يسميه البعض ثأراً، لم يحرك هؤلاء الأنصار للثأر لأول لحظة، وإنما أراد أن يبني العنصر الأساس في بناء الكيان، كيان الأمة الخاتمة، هذا الإنسان الخليفة، وأراد أن يوطد أسس الثبات والبناء على مستوى قلوب أهل النصرة.

التوجيه النبوي الأول: «أفشوا السلام»:

في إشارة إلى أن طيب الكلام يُمكن لأسباب المحبة، وليس المراد بإفشاء السلام إفشاء كلمته ولفظه، ولكن إفشاء معناه وسره؛ أي ليكن بعضكم على بعض سِلماً، كلكم سلم لإخوانكم حرب على عدوكم، ومن معاني الإفشاء التكثير، «أفشوا السلام»، أي أكثره وأعلنوه، وليس مراداً به التعبد باللفظ، فيحسب الواحد أنه يؤجر على اللفظ بلا معنى، إن السلام الحقيقي الذي أراده رسول الله هو أن يكون قلبك سليماً لإخوانك في الدين، لا يُطوى على ضغينة، ولا تحركه الأحقاد الدفينة.

التوجيه النبوي الثاني: «وأطعموا الطعام»:

إطعام الطعام، وبذل القرى لذوي الحاجة إحساناً للإخوان وإكراماً للخلان، وفيه فتح لأسباب الود وتمكينها في قلوب الناس.

التوجيه النبوي الثالث: «وصلوا بالليل والناس نيام»:

بعدما أرشد ﷺ إلى بذل الاحسان من اليد واللسان، أرشد إلى ما به توطيد الصلة بالله؛ «وصلوا بالليل والناس نيام»، صدق الصلة بالله، بعبادة التبتل والإخلاص له، والوقوف بليلٍ حيث تغيب الأعين وهي راقدة نائمة، وأنت موصول بالله ذكراً.

الصدق مع الله هو الأساس الأول، وصدق الود مع الإخوان هو الأساس الثاني للبناء، بهذه الكلمات دشن ﷺ عهد النصر بعد مَحَنِ الهجرة، وكان ما قبل الهجرة مُقَدِّمَةً لها، وما بعدها ثمرات لهذه الرحلة المباركة.

مظاهر حب الأنصار للنبي المختار ومن هاجر معه من الأخيار:

إن حب أنصار رسول الله ﷺ لرسول الله، وللذين هاجروا معه، حب تجاوز كل الحدود، وسجله القرآن بمداد الاعتبار والفخر، تخليدا لهذا العمق والبعد الإيماني، ولهذه اللحمة الربانية التي كانت انتصارا للإسلام فيما بعد، يقول تعالى مثنيا غاية الثناء على الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَوَاقٍ وَلَكَ هُمْ الْمُبْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]، ومن هنا كان حب الأنصار علامة الإيمان، كما سائر أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ، وكان بغضهم نفاقا بيّنا، نعوذ بالله من الخذلان.

بهذا الالتفاف من الأنصار حول رسول الله ﷺ، وهذا الحب المكين لإخوانهم في الدين، بدأ بناء دولة الإسلام بالقلب، بالحب، وبالصدق، وبالصلة بالله، وجاءت نتائج هذا البناء كما حدّث التاريخ عن الدولة الإسلامية الأولى.

من دروس الهجرة دوام استعداد المنتسبين لجناح رسول الله ﷺ لتحمل كل الصعاب:

تمضي هجرة رسول الله ﷺ المحمدية، ويبقى الدرس للأمة الوارثة المصطفوية، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِرُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32]، يبقى الدرس ليحفظ وليعيه الواعون، حتى لا يفاجأ أحد بمحنة، ولا بفتنة ولا باضطهاد، ولا بتحدي.

إن التاريخ بالهجرة يجعل الأمة متيقضة لكل ما مر به ﷺ، من فتن الامتحان والحصار، والاضطهاد والاستكبار، حتى تُوطَّن نفسها على فهم سنن الله، وأولها سنته في ابتلاء النخبة، ومنهم رسول الله ﷺ؛ قال الله تعالى في الحديث القدسي في صحيح مسلم: «إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء» تقرأه يقضانا ونائما.

وإنما جرت هذه السنة الإلهية في ابتلاء النخبة لتأهيلها لمزيد من الاجتباء والاصطفاء، ونقرأ في كتاب الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذَنَّ مِنَّا بَأُولِيَّ إِلَهِهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وَلَنُكِنِّيَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِي ﴿ [إبراهيم: 16 - 17].

في أن الصلة بالله شرط النصر، وأن الابتلاء منه محفوف باللطاف، ومُنْتَهَى إلى سني القطاف؛

مما نقرأه من معاني الهجرة أن هذا الابتلاء من الله لنبية محفوف باللطاف تنتهي بقطاف؛ محفوف باللطاف سنية، تنتهي بقطاف ثمرات هنية، يقول تعالى: ﴿وَلِيكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِمْ يَهْدِيهِمْ إِبْتَدَاهُ فَلَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 91].

ونقرأ أيضا أن سند المدد، في أزمنة المكر والنكد، السند الذي يعول عليه المؤمنون في حركة تاريخهم، وتحديدًا في أزمنة الفتنة، معية الله وتوثيق الصلة به، ووصل القلب بالرب، ونقرأ في قول النبي ﷺ لصاحبه وقد انتابته المخاوف بصحبته، وسجله القرآن بمداد الخلود، مع ما صرفه عنه من كيد أهل الكفر والصدود: ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: 40]، «لا تحزن»، لا تظنني أنا الوحيد معك، «لا تحزن إن الله معنا»، بمعية الله تنتهي المخاوف كلها، إنها ثمرات وسرها معية الله، ونتيجة وسببها تأييده، إن معية الله تنهي المخاوف كلها، وتفتح الباب لتنزلات من السكينة والمدد العلي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَبُورٍ﴾ [الحج: 36]، تبقى لنا هذه المعاني لنستحضرها في أزمنة يتلى فيها المؤمنون بالمحن، وتسلب الأعداء، وقلة النصراء، ووهن الجار، وتآمر الصغار والكبار، وضروب الحصار، وتكرار التقطيع والتجويع، لغاية الإقرار على التوقيع، وتوقعات الإكراه لاغية، إذ فقدت شرط الطوعية كما يقول فقهاؤنا.

من لطيف ما نقرأه في هجرة رسولنا صلى الله عليه وعلى آله أنه ﷺ خرج أعزل لا يحمل سلاحا، ولا ما شاببه، ولم يثبت في السيرة أنه حمل ولا عصى واحدة فضلا عن سيف، وفي خروجه أعزل ﷺ قمة تحد للعدو الأرذل، خرج ﷺ من تحت السيوف والرماح، من غير سلاح، وهي قمة وثوق بالله، واستهانة بالقوة الغاشمة الآثمة.

خرج ﷺ وكله أمل في أن يعود، وهي قمة إصرار على الاستمرار، وفي أذنه قول ربه له: ﴿إِنَّ الَّذِي بَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَسْجِدَ الْهَيْدَىٰ وَمَنْ هُوَ ضَلَّلَ مُبِينٌ﴾ [القصص: 85]، ومن ثم قدم ﷺ الدخول على الخروج في قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ رَاجِعًا إِلَىٰ مَكَّةَ مُدْخِلَ صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، وكان ﷺ متأكداً من أنه سيعود، إن خروجه للعودة وليس خروجاً لنقض الصلة.



(2) بصائر الهجرة النبوية في الدوافع المُرتبة والمنافع المُرتبة

حديثنا موصول عن المهاجر العظيم، سيدنا رسول الله، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، في ذكرى إنجاء الله إياه من مكر الظلمة، والعتاة من عِداه، نستلهم من هذه الذكرى، ومن خطوات صاحبها المباركة المسددة على درب التحرير من ذل الطغيان وقهر الهوان، ما يكون نبراسا في أزمنة العتَمات، وأنسا في عالم الاغتراب والنكسات.

ما أحوجنا في أزمنة الوهن، وتألق الفتن، إلى أن نحتفي بهذه الذكريات على نحو يجدد الروح، ويبعث الأمل، ويعيد إلى دنيانا عبق تلك المثل التي أسست لظهور مجتمع العدل، مجتمع الفضل والنبل. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْشِئُ بِهِ، فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 119].

في أن الهجرة مخرج صدق ومدخل صدق:

أجل لقد خرج سيدنا رسول الله ﷺ من أم القرى، مخرج صدق كما رغب إلى ربه أن يكون، خرج خروجا بعيدا عن أن يكون مدانا بتهمة، أو متابعا بريية، كان خروجه خروج صدقٍ مطابق لمراد الله، مبرأ من كل وصمة، من أي جهة نظرت إليه ذلك على صاحبه سيدنا رسول الله ﷺ، حامل الرسالة، والمؤيد بنعت الجلالة، لا يتحرك عن هوى ولا زيغ ولا ضلالة.

خرج ﷺ ليلة الخامس من ربيع الأول إلى غار بجبل ثور، ليقضي هناك ثلاث ليالٍ ريثما يسكن طلب الرصد، ليستأنف من بعدها رحلته الطويلة، في بيدا ضاربة في اتجاه طيبة، وعلى امتداد خمس مئة كيلومتر، يُقَطِّعُهَا ﷺ وَيَقْطَعُهَا فِي اثْنِي عَشْرَةَ لَيْلَةً مَسْبَحاً مَهْلَلاً حَامِداً - على بعد الشقة -، ولربه الكريم راکعاً وساجداً، ليدخل المدينة مدخل صدق كما خرج من مكة مخرج صدق.

دخل المدينة ﷺ منصوراً مؤيداً، متلقياً بالأحضان في دار الإيمان، لقد غادر ﷺ مكة وفي قلبه لوعة الفراق لوطن غالٍ لديه، تربي في ظلاله، وغذي بلبانه وغلاله، ولكن تنكر فيه أهله لمبعوث العناية الإلهية، ولم يسألهم أجراً ولا طلبهم بمغرم مثقل غادر، ﷺ وبين حنايا صدره أسف الإشفاق على قوم جهلاء، ضيعوا جوهرة الكمال، وكَبُرَ على كُبَرَائِهِمْ أَنْ يُخَصَّ بهذا المقام عزيز المنال، فقال قائلهم: ﴿قَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَبِئْهُ ضَلَالٌ وَسُعْرٌ﴾ [القمر: 24]، ﴿وَإِذَا جَاءَ نُهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَوْ أَنَّا نُؤْمِنُ حَتَّى تَوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ أَفَلَنُؤْمِنُ بِهِ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: 125].

خرج ﷺ، وفي فؤاده جراح الأسى على أقرباء تائهين، اشتروا الضلالة بالهدى، ومن فرط أسفه عليهم كاد ﷺ يقتل نفسه، فَرَجَّاهُ الْوَحْيُ أَنْ يَخْفَفَ مِنْ هَذَا الْحَرَصِ عَلَيْهِمْ قَائِلًا: ﴿لَعَلَّكَ بِاِخْتِغَابِكَ النَّفْسَ الْيَاكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 2].

وخروجه ﷺ يذكر بما دار بينه وبين ورقة بن نوفل وهو على عتبات النبوة حين قال له مستغرباً: «ليتني فيها جدعا إذ يخرجك قومك»، فقال ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِيَّ هُمْ»، إذ لم يكن يدور في خلد ﷺ وهو الأمين فيهم، المكينُ عندهم قبل أن يُنبأ، لم يكن يدور بخلد ﷺ أن ينقلب الإخوة الأوداء إلى أعداء ألداء.

الهجرة عنوان تدافع الحق والباطل، وصراع الخير والشر:

نتساءل هنا للاعتبار؛ هل كان في خلق رسول الله ﷺ جفاءً مستنكر أو طبعٌ مستقذر أو سلوكٌ مستنفر؟ هل كان في خطابه ﷺ ما يدعو إلى إقصاء المخالف تبعاً للهوى الجارف؟ هل كان في برنامجه أو في دعوته ما يستدعي تنامي هذا الحقد الأسود عليه؟ الحقد الذي لا مبرر له ولا مسوغ؟! أم أنه ليس في الأمر سوى ما سجله القرآن فاضحاً لهذا النزوع المقيت فيهم إلى إخراج أهل الإيمان: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دِفْعُ اللَّهِ لِلنَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 38].

أثره ﷺ زاحمهم أو نافسهم على دنيا زائفة مؤثرة، وهو الذي كان يقول من دعائه لربه «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا واجعل قوتهم كفافا»، وقوله ﷺ «اللهم احيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشني في زمرة المساكين»، وكان من تعاليم الوحي له: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28]. وصية الله له بالكون مع ضعاف المؤمنين، وقال ﷺ: «أبغوني الضعفاء»، أي اطلبوني تجدوني فيهم وبينهم أو من بينهم.

نبي كريم، زكى الله منه كل شيء، نطقه وخلقه، بصره وصدره، فؤاده وسره، وأقسم على ذلك بالقسم العلي: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ① مَا أَتَى بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ [القلم: 1 - 4]، ويقول تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④﴾

بأبي هو وأمي ﷺ، أي شيء منه يمكن أن يتحفظ منه أو عليه، أو يشار إليه بالنقص فيه؟ حاشاه ﷺ، ولكن حاله وحال خصومه كما قال القائل.

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغيا أنه لذييم.
إنه ﷺ كان يتحمل الأذى من قومه إلى غاية التحمل، بل نزل الكتاب أمراً من معه من الثلة المؤمنة المستضعفة، التي هي محل لغاية العسف والعنف من قومها وأهلها، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ فِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: 76]، ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي عن أذى هؤلاء، لا تردوا بالمثل ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وكان ﷺ يمر على المعذيين من أهل الإيمان ومن أرق يقول لبعضهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة».

برغم كل ذلك، إلا أن أهل قریش كبر عليهم ما كان يدعوهم إليه، سنة الله التي أفصح عنها قوله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَهَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: 31].

التضاد في الحال والأحوال، هو الذي دعا إلى هذا اللون من ألوان التقابل، ذلك أن:

- الظلمة لا تجتمع مع النور.
- وإن الصدق لا يجامع الكذب.
- وإن الحق لا يجتمع مع الزور.
- وإن العفة لا تقبل الفجور.
- وإن النصيح الأصرح لا يحتمل الغش الأقرح الأترح.
- وإن الأمانة لا تعانق الخيانة.

هذه سنة الله الماضية التي أقام عليها الوجود الذي يقضي بتعاقب المختلفات، والتدافع بين المتضادات لغاية التمحيص والتخليص.

دعوة المصطفى ﷺ تبشير بالرفق المطلوب لجمع القلوب:

لقد بشر ﷺ حين بعثه الله بهذه الرسالة بمبادئ عالية، وأنذر بغاية النصح المطلوب، والرفق المحبوب، وشرع في بناء جيل قوامه أصناف من ذوي القلوب المتحدة على المعاني، أمشاج أناس لا يجمعهم عرق ولا نسب، ولا لون ولا وظيفة ولا طبقة، الجامع بينهم هو ما وَعَتُهُ قلوبهم من الحق المنزل، والخُلُقُ الأمثل، فهذا بلال الحبشي الأحمر، وهذا صهيب الرومي الأشقر، وهذا أبو بكر الصديق القرشي الأزهر، تناغمت هذه الألوان في بوتقة الإيمان، ووراءها قلوب تحمل ثلاث صفات:

- صفاء لله في الولاة.
- وصلابة في التمسك بالحق ومهاجمة ومقاومة الأعداء.
- ورقة في التراحم وتعهد الإخاء.

صفاء وصلابة ورقة، وقد جاء في الأثر: «أحَبُّ القلوب إلى الله أصفها وأصلبها وأرقها»، كالزجاج الراقي الذي اجتمعت فيه الثلاثة؛ صفاءً إلى صلابة إلى رقة، وبمثل هذه القلوب التي أضاءت بنور الإيمان، بنى النبي ﷺ دولة الإيمان في دار الإيمان، وما نَقَمَ المَكِّيُّونَ بنبيهم، وكبر على أكابرهم ومجرميهم إلا هذه المعاني التي لم يكونوا منها على نسبة، أو يتصلون بها بسبب، حتى بدت لهم منه ﷺ العافية حَرَبًا، والسلامة حَرَبًا فكانوا كما قال الله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 39].

حاجة البشرية إلى بصائر الهجرة المرشدة:

ما أشبه اليوم بالبارحة، فها نحن نعيش في عالم يقوده جنون الاستبداد، وسعار الأثرة وطيش الاستفراد، ويتحكم به هوى الاستتباع، ويتداعى فيه المتنفذة لبسط سلطان القهر في كل قطاع.

وفي عالم يتراجع فيه العقل المُسَدَّد، وينحصر فيه صوت الوحي المُرَشَّد، وتغيب قيم الميزان، التي عليها قيام الكون والإنسان، ويصبح المعيار الوحيد، المُحَكَّم في رقاب العبيد، هو القوة في أحسن صورها، قوة القهر والهدر والكسر، وأصبحت وقد تجردت من زينتها وحليتها، وتخلت عن موقعها باعتبارها دعامة لموازن الاعتبار، ومواقع الاقتدار؛ فغدت «القوة» مخلبا في يد نسر، أو نابا في فم سبع أو نمر.

في عالم غدا فيه العلم التسخيري، - الذي كان منة - غدا بكل فتوحاته فتنة ومحنة وبلاء.

في واقع غدت فيه الثقافة مُنْكَبَّةً على وجهها، فإذا هي رجعت وصدى في مواقع الاستضعاف، تلهث للمواكبة، وتمجد الرذل والسفل.

في عالم هذه سماته وتلك قسماته، وفي أوضاع كهذه يكون الناس أحوج ما يكونون إلى صوت البصائر، ليعيد للعقل عافيته لإيقاظه من سكرة ما عراه، ويكونون أحوج ما يكونون إلى وقدة الضمائر، لأنهاض الروح العطر، وتلكم رسالة الدين وضرورته.

إن تجديد الوعي وبعث الروح، يكون من خلال تكرار تعميق هذا الوعي بربطه بهذه الأصول من الذكرى، ذكرى هجرة نبي البشرى ﷺ، خصوصا حين يتوالى في زمن الكدح ما من شأنه أن يلحق بهذين الجوهرين، «العقل والروح»، حين يلحق بهما ما يعطل أو يقلل من مفعولهما في القيام بأمانة الاستخلاف.

من دروس الهجرة أن الباطل إلى زوال بمقتضى سنة الله ذي الجلال :

على الأمة أن تتذكر وفي طليعتها أهل الإيمان بخاتمة الأديان المرضي، عليهم أن يتذكروا أن الباطل مهما انتعش ومهما انتفش، فهو آيل إلى زوال محقق، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُحَاءً وَأَمَّا مَا يَبْعَثُ النَّاسُ يَمَكْتُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 19]، مصيره إلى تلاش، والباطل ما أقيم على غير حق أو مستحق، إن وجود الباطل إلى زوال، بقانون وسنة الله ذي الجلال شديد المحال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81]، الباطل زهوق لا روح فيه، متهالك لا قيام له من ذاته، ولا سند له من الوجود، وقد يعجل تحرك المد من تحته بزواله، أو بقذفات للحق تتوالى فتأتي على ظلاله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 18]، أي مما تقررون وتشيعون من ثبات الباطل أو ثبوته وبقائه.

في أن سمات رسالة الدين صدق ورفق وعمق :

ليتذكر أهل الإيمان أن رسالة الدين المحيية الباعثة، سماتها المميزة التي لا تلبس بغيرها ثلاثة:

- صدق الانتماء؛ صدق يتنافى مع كل بهتان، أو زور أو نفاق، أو تحايل في الانتساب إلى رسالة الدين قولا وفعلا.
- وعمق في الفهم؛ عمق يتجافى مع كل سطحية وحرفية وظاهرية وصورية تهمل المقاصد، وتنسى المعاهد، وتبني على نُتَافٍ من المعرفة، وتقدر الجزئي بدل الكلي، وتنسى ترتيب أولوياتها.
- ورفق في الأداء؛ رفق يتنافى مع القهر والعسف، وتجاوز المراحل، رفق يتناسب مع التآني، ويتمشى مع التدرج، وينبع من الحكمة المرادة، الرفق

الذي يزدان به كل شيء، الرفق في الأداء عدل وقصد وقوام، ﴿وَلَا تَسْتَوِ
الْحُسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾
[فصلت: 33]، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ﴾
[النحل: 125]، ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَآكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24]، ﴿وَلَا تَجِدُ لَوْأَ
أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بِآلَتِهِ هِيَ اَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46].

لا بد للأمة من قوة تصون الكرامة من أن تهدر وتحمي الصفو من أن يكدر؛

لا خير في منهاج قوامه الحلم والعمق والرفق، ما لم تكن له بواد من
قوة تحمي صفوه أن يكدر، وتصون كرامته من أن تهدر، لا بد لهذه الأصول
والمبادئ من قوة تحمي الحق حتى لا تداس مقدساته، ولا تمتهن كرامته، ولا
تضعف شوكته، إن الإسلام ما سلَّ سيفه حتى سُلت عليه السيوف كلها، وقد
رأيتم في خروجه ﷺ وهجرته، لم يخرج ولو بعضا أمام سيوف مشهرة، وإنما
خرج بحكمة الله وستره، ووضع التراب على رؤوس أعدائه والمتربصين به،
ليقول لهم إنكم على باطل، وإن ما تحاولون من التعزز بالجاهلية آيل إلى تراب،
إنكم تراب، وقوتكم لا شيء، وهذه رؤوسكم، امسحوها للتأكدوا من الحقيقة.
لكن عندما يتجاوز الظلمة حدهم، ترفع السواعد المؤمنة سيوف الحق
مشتهرة ومنتصرة، تحمي الحمى، وتصد العادي، وبين عينيها قول الله جل في
علاه: ﴿إِذْ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 37]، لا بد
من قوة ترد على الغشم والظلم، بل إننا حتى في أوضاع السلم شرعت لنا
المرابطة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! صَبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُبْلَغُونَ﴾ [آل عمران: 200]،
تحسبا لكل محتمل من عدوٍ أو مباغت، ومن الحكم المحفوظة لأئمتنا «اعرف
عدوك ولا تهوَّك»؛ كن فطنا يقظا، «إذا كان عدوك نملة فلا تنم له»، وها هو ربنا ﷺ

يقول محذراً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوِ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 101]، الأسلحة القوة والعتاد، والأمتعة المدخرات والطاقات والإمكانات، وما هياً الله للأمة من أرصدة الكمال.

وتؤيد الشواهد صدقية هذه الحقائق، حكماً وأمثالا، ويتجلى سر تخليد الله لهذه المطالب في فاتحة الكتاب المقروءة منا فرضاً في كل صلاة مكتوبة، نقرأ: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 5 - 7].

العزة الإيمانية ثمرة الانتماء الراشد:

من دروس الهجرة النبوية الكريمة، أن العزة الإيمانية ثمرة الانتماء الراشد ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]، فبقدر ما يكون انتمائك وسندك وتوكلك، بقدر ما يكون المدد منه جل في علاه، وإن المحن بشائر بين يدي المنن، فكم من محنة انقلبت منحة، وقد قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وإن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»، وتتأكد هذه الحقيقة، وتلكم العقيدة، وهذا الشعور في فترات الكرب، وفي الأزمنة العصيبة، وهو ما أمر به الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139].

لا ينبغي للمؤمن المنتسب للنبي المهاجر أن تضعف ثقته بربه، ويضطرب إيمانه بصدق وعده، وإنه لمأجور في كل الأحوال، ما دام موصولاً بالله ذي الجلال، يقول ربنا ﷻ: ﴿بَاصِرِينَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَحْجِبَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوَفُّونَ﴾ [الروم: 59]، ﴿وَاصِرِينَ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: 46]، وها هو أحد الأعلام في أمتنا وقد ابتلي يقول - ومثال الواحد، مثال الجماعة، مثال الأمة - يقول:

«زمن الابتلاء ضيف قرأه الصبر، وتحفته انشراح الصدر بقرب فرج النصر، وأنشد قائلًا:

وخفف عني البلوى علمي بأنك المبتلي».

وقد علمنا القرآن الكريم أن يقرأ المؤمن مع آيات الابتلاء، آيات الاعتناء، وأن يذكر أن القائل جل في علاه: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: 30] هو نفسه تقدست أسماؤه القائل: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: 17]، تلکم نصوص الدين العظيم، وبصائر الدستور الحكيم، الذي يشد القلوب بالله، أما المستعجلة والمنفعلة، فإنهم أناس لا يفهمون عن الله، ولا يدرون مقادير أحكام الله، وأنها تجري على سننه في أيامه، يقول تعالى في الذين يستعجلون العذاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: 45]، وعده بإنزال العذاب على المكذبين والمجرمين آت لا محالة، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: 53]، إلا أن أزمة مقادير الله ليست كأزمة المستعجلة، «إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم» كما في الحديث.

اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنا هُذْنَا إِلَيْكَ، واجعلنا من أهل القبول والرضوان لديك، والحمد لله رب العالمين.



(3) بصائر الهجرة النبوية في الانتقال من بناء المساجد، ومن تربية الإنسان إلى تأسيس الكيان

نواصل الحديث عن ذكرى نبي البشرى، سيدنا رسول الله ﷺ، ذكرى هجرته من البلد الحرام، مكة أم القرى، إلى طيبة دار الإيمان وتنزل البركات تترى، نقبس من أنوار هذه الذكرى، البصائر الهادية، ونتنسم من أنفاسها النسمات المُحيية، اعتباراً لكون حدث الهجرة العظيم يوماً من أيام الله المقدسة، التي تقتضي من أهل الذكر والشكر والصبر، وقفات مطولة للإذكار والاستبصار، مصداقاً لقول الله العزيز الغفار: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 7].

لقد سمى الله العليمُ حدث الهجرة في كتابه الكريم نصراً أسنده إلى جنابه العظيم، فقال ﷺ: ﴿الْأَتَتُّرُوهَ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

سر مجيء الهجرة في منتصف عقد جهاد النبوة:

كما جعلها ﷺ بِقَدَرِهِ تنتصف عقد جهاد النبوة، لقد حدثت الهجرة في واسطة عقد حياة رسول الله ﷺ، فجاءت مؤذنة ومعلنة بالانتقال من مرحلة بناء الإنسان، إلى مرحلة بناء أمة القرآن ودولة الإيمان، وهي ثاني المراحل الكبرى في بناء أمة رسول الله ﷺ، ذلكم أن إسلامنا العظيم، جاء لِيَتِمَثَّلَهُ الناس في دنياهم من خلال دوائر ثلاث، تتداخل وتتوحد وتتواصل، وتنزاح لتمتد أروقتها الوارفة الممتدة على الوجود كله بلا حدود:

- من دائرة بناء الإنسان،
- إلى دائرة بناء الدولة،
- إلى دائرة بناء حضارة الإسلام الكبرى.

لقد اجتاز الإسلام فعلا في مكة أم القرى مرحلته الأولى، ثم ما لبثت العوائق المختلفة أن صَدَّتْهُ عن المضي نحو مرحلته الثانية، حيث الدولة، إذ بدونها يستحيل استمراره، فالنواة - نواة النشأة - لا بد لها من جدار يحميها، وإلا فستظل مفتوحة على الخارج المضاد، بكل أثقاله وأحماله، وضغوطه وإكراهاته، ولن يستطيع الفرد أو الجماعة التي لا تحميها الدولة أن تمارس دورها حتى النهاية، لا سيما إذا كانت هذه الجماعة، تنادي بقيم تمثل رفضا باتا وحاسما للواقع المعيش.

الهجرة بحث عن أرضية صالحة لحركة الأمة الناشئة :

لا بد إذا من إيجاد أرضية صالحة لحركة الأمة وحركة الجماعة، قبل أن تسحقها العوادي وتجرفها الجوارف، فهجرة سيدنا رسول الله ﷺ، بدأت فعلاً منذ أدرك ﷺ أن مكة بلد نشأته، لا تصلح لقيام الدولة، فواديها التي تحاصره الجبال، وكعبتها التي تعج بالأوثان، وعصبيتها المتعمقة والمتجدرة المقيمة، وولاءاتها المتشرذمة والمختلفة، كل أولئك لا يؤهلها لأن تكون الوطن الأول لبناء دولة الإسلام، ومن ثم راح رسول السلام يجاهد باسم الله وإذنه من أجل الهجرة، التي تمنح المسلمين دولة ووطنا، وتحيط كيانهم الغصن الطري بسياج من إمكانات القوة التي يراغمون بها أعداءهم، بسنة الله المعلنة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغْمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 99]، الهجرة إلى الله رحلة رابحة رغم كل الاحتمالات.

وقد تصدى رسول الله ﷺ منذ وطئت قدماه أرض طيبة دار الإيمان، تصدى

لإنجاز المهمة العظمى ممثلة في إنشاء دولة الحق والقسط، التي هي الغاية من بعثة الأنبياء، يقول ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 24].

محاور الاعتماد في جهود النبي بعد الهجرة:

وهكذا انبرى رسول الله ﷺ لإنشاء دولة الحق والقسط على أسس راسخة، ودعائم قويمه، منطلقاً مسجده ﷺ⁽¹⁾، فقد كان الخطوة الأولى على طريق بناء دولة الإسلام، وغايتها تحرير الإنسان، ومناهضة الظلم والطغيان في كل مكان، ودعامتها المُسَدَّدة دستورٌ أعلى يتضمن التعاليم التي يتم التحاكم إليها لفض النزاع، وتسديد الخطى، وإخاء أكبر وأسمى، يمثل الضمان لقيام دولة الأمان. ومن ثم كانت جهود النبوة في هذه المرحلة المباركة، منصرفةً لأُمور أربعة:

1. بناء المسجد الجامع.
2. ووضع الترتيبات الأولى للمنظمة لكيان الأمة الناشئة.
3. وتعميق الإخاء بين أهل الجهاد وأهل النصر.
4. وتأسيس قوة لحماية المكتسب ورد المغتصب.

وقد سجل القرآن الكريم ثناءه العطر على أول خطوة في هذا الإنجاز العظيم في طريق بناء أول دولة في الإسلام؛ قال ﷺ: ﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ يَحِبُّ الْمَظْهَرِ﴾ [التوبة: 109].

كما وصف ﷺ الرحم الإيمانية التي نشأت بين أهل الهجرة وأهل النصر، وصفا يكشف عن عمقها، ومدى تجذرها في الأنفس المتحابية بروح الله، يقول ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ

(1) أول عمل قام به النبي ﷺ بمجرد وصوله إلى مشارف المدينة هو بناء مسجد قباء، ثم بمجرد ما وصل إلى المدينة المنورة أمر ببناء المسجد النبوي الشريف حيث بركت ناقته المباركة.

حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: 9].

آيات التوفيق في اختيار حدث الهجرة عنوانا لتاريخ المسلمين:

لَعَمْرُ الحق، لقد وفق المسلمون - بإرشاد سيدنا عمر الفاروق الملهم - لاختيار حدث الهجرة بداية لتاريخ المسلمين دون سائرهما من حوادث الإسلام، كحدث الميلاد، وحدث البعثة، وحدث الوفاة، ولماذا؟ إن هذه الحوادث..، بعضاً منها كان مقدمة وإرهاصاً للهجرة. وبعضاً منها كان من نتائج الهجرة وثمراتها.

إن أية محاولة لربط الإسلام بغير هجرته - هجرة نبيه العظيم - هو مؤامرة عليه، ومحاولة لإخلاء تاريخه «تاريخ الإسلام» من كل المعاني التي ترشد إليها الهجرة، وتؤدي إلى حقائقها لإتخاذها منارات للسير والاقتفاء.

فإذا كانت هجرة الرسول ﷺ، حركة إيمانية قاصدة ومسئولة، وكانت تتطلب توضيحات غالية، فهكذا ينبغي أن يكون تاريخ الإسلام والمسلمين، تاريخ حركة ارتقاء مستمر، وجهاد مُصرٍّ، من أجل غد أفضل، تظله شريعة الله، التي هي شريعة الرحمة والشفاء.

وإذا كانت هجرة رسول الله ﷺ نصراً سجله القرآن بمداد الفخر، وأضافه إلى الله ﷻ مسنداً «فقد نصره الله»، فإن في ذلك إرشادٌ إلى ما ينبغي أن يكون عليه تاريخ المسلمين، إن تاريخهم ينبغي أن يكون تاريخ بطولات خالدة، وانتصارات مبينة مجيدة، تاريخ إنجاز العظماء يُخلدُون إرثهم في تاريخ الأمة الوارثة، لترسم الأجيال اللاحقة خطاهم، وتقتفي آثارهم.

إذا كانت الهجرة خِطَّةً وتوكلاً على الله، وكانت جهاداً واعتقاداً، فهكذا ينبغي أن يكون تاريخ المسلمين، تاريخا يستقي من ذات معين هذه القيم،

ينطبع ويصطبغ بصبغتها، لِيَذْكُرَ المسلمون جميعاً أن هجرة نبيهم التي جُعِلَتْ بدءاً لتاريخهم، هي مثالٌ للتجرد والإخلاص لله، والفداء والتضحية في سبيله. وهكذا ينبغي أن يكون تاريخهم، خالياً تماماً من كل أنواع الأنانيات المفرقة، والمقاصد الفاسدة المُحرقة والمُغرقة والمُهْلَكة.

إن هجرة الرسول ﷺ، كانت هجرةً تُذكرُ بقيم الإخاء، إخاء أمةِ الجسدِ الواحد، أمةِ الإسلام الأولى، التي كانت مؤسسة لدولة الرحماء والرشداء. إذا كانت هجرة رسول الله ﷺ منطلقها رحاب مسجد قباء، فينبغي أن يكون تاريخ المسلمين تاريخاً يتحرك في رحاب الطهر، ويستهدي بروح الذكر، ويوثق الصلة بالله، ولا يرضى بغير العزة التي تجعل له المكانة الأولى في الأرض.

الهجرة تؤكد على ضرورة توثيق صلة الناس بربهم معرفة وإيماناً، وبكتابهم مدارس وتبياناً، و ببعضهم مودة وإحساناً؛

ونعم، ينبغي للمؤمنين ألا ينسوا هذه المعاني وهم يستقبلون في كل عام ذكرى الهجرة، هجرة رسولنا ﷺ، ويجب عليهم أن يوطنوا أنفسهم، وأن يكون سعيهم في حياتهم لتحصيل أسباب الارتقاء، المؤسَّس على توثيق الصلات وخصوصاً هذه الثلاث:

توثيق الصلة بالله ﷻ، ذكراً ومعرفةً وإيماناً.

1. توثيق الصلة بالله تبارك وتعالى، ذكراً ومعرفةً وإيماناً.

2. توثيق صلتهم بإخوانهم مودةً وصلّةً وإحساناً.

3. توثيق صلتهم بكتابهم مدارس وتنزيلاً وقياماً.

وبتلكم الوشائج والصلات يتعرضون لتنزل البركات، عسى ربهم أن يرحمهم، ويخلصهم من ذلّ طال أمده، أنه ولي ذلك والقادر عليه.

في فضل يوم عاشوراء وما حدث فيه من صنوف الاجتباء لجلة من الأنبياء

في مطلع كل عام، وفي عاشر محرم الحرام، والمسلمون يتذكرون هجرة نبيهم العظيم، ويستبشرون بإنجاء الله له ونصره بمقتضى وعده الكريم، يستقبل أهل الإيمان، يوماً عظيماً من أيام الله، يوماً له حرمة وفضيلته، إنه يوم عاشوراء، وقد دأب الأنبياء على صيامه شكراً لله، على ما أولى فيه من نعم، وما دفع فيه من الكروب والنقم، له الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شاء من شيء بعد.

فقد صح عن رسول الله ﷺ، أن ربنا أنجى في هذا اليوم نبيه الكليم، موسى عليه السلام من فرعون وجنوده، بمعجزة ظلت آية خالدة مدى الدهر، حيث أغرقه الله ﷻ في ذات اليمّ والبحر الذي كان يتعالى عليه قائلاً فيما سجله القرآن: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَلْفُومُ آلِيَّ مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 50]، حتى إذا أدركه الغرق، وأدرك ساعتها أنه العبد الحقير للملك العلي الكبير، نادى قائلاً - ولات ساعة مندم - : ﴿وَجَوْزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْعُرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ، بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

كما ورد أن الله ﷻ نصر فيه عبده الشكور، أول رسله من أولي العزم: سيدنا نوح عليه السلام، حين نادى ربه ودعا، قال رب انصرني بما كذبون، إني مغلوب فانتصر، فاستوت في هذا اليوم سفينته على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين، وذلك بعد أن عم الأرض الطوفان، مثلما عمها الطغيان، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

بل ورد أن في هذا اليوم تاب الله على سيدنا آدم ﷺ، وفيه تلقى الكلمات من لدن ربه الرحيم، فلهج بالدعاء العظيم: ﴿فَلَا زَيْنًا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 22].

ولهذا كان النبي ﷺ يتحرى صيام هذا اليوم، مثل تحريه لصيام رمضان، وكان ﷺ يرغب في صومه بفضيلة التكفير، وبنبه ﷺ على أن أمته أحق وأولى بأنبياء الله من أقوامهم، بما أنها الأمة الوارثة بحق لبصائر الرسل الماضين، وكتابها هو المهيمن على رسائلهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 67].

ورغب ﷺ في التشريع الأكمل، فعزم على أن يضم إلى صيام عاشوراء صوم يوم قبله أو يوم بعده لمخالفة اليهود، حتى لا يظنوا أننا بصوم ذلك اليوم نتبعهم ونقتفي آثارهم.

فضل صوم يوم عاشوراء:

وهذه جملة أحاديث توثق ما ذكر من حقائق الإيمان وبصائره:

ففي الصحيحين عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه: أنه سئل عن يوم عاشوراء فقال: «ما رأيت النبي ﷺ يصوم يوماً تحرى فضله على الأيام إلا هذا اليوم - يعني عاشوراء - وهذا الشهر أي رمضان».

وخرج الإمام بقي مخرجه في مسنده عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عاشوراء كانت تصومه الأنبياء، فصوموه أنتم».

وفي الصحيحين أنه ﷺ قدم المدينة، ووجد اليهود صياما، فقال لهم ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟»، قالوا: يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه،

وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم»، فصامه وأمر بصيامه.

وأخرج الإمام أحمد أنه ﷺ قال: «هذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي - أي سفينة نوح - فصامه نوح شكراً لله، فنحن أحق بصيامه»، أو كما قال ﷺ.

وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة. أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن صيام عاشوراء، فقال ﷺ: «أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله».

وفي المسند عنه ﷺ قال: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا اليهود، صوموا قبله أو بعده يوماً».

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ لما صام عاشوراء قالوا له: إنه يوم تُعظمه اليهود والنصارى، فقال ﷺ: «إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع - أي مع العاشر - مخالفة لهم»، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ.

فلا تفوتك أخي المؤمن هذه الفرصة الغالية، والنفحة الربانية المواتية، جدد توبتك في هذه الأيام لربك، فهي أخرى وأحق بالقبول منه. وقد مر معنا قبل أن الله ربنا يبسط في هذه الأيام يده للمثوبة مزيد بسط، إذ فيه تلقى والدنا الأول البشري الإلهية بقبول توبته، وعَفْر حوبته. فلهج بالدعاء قائلاً مع زوجته: ﴿فَاَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 22].

فلنردد مبتهلين، وإلى ربنا راغبين، نفس الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه الرحيم قائلين: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، ومرددين كذلك مع نوح عليه السلام، أول رسل الله إلى أرض الله استغفاره: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: 47].

ولنبتهل إلى الله بابتهاال موسى واستغفاره ونحن في ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْمِرْ لِي بِغَمْرِ لَهٗ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: 15].

ولنختم باستغفار نبى التمام ومسك الختام نبينا محمد عليه أزكى الصلاة والسلام: «سبحانك اللهم بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءا فظلمت نفسي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».



(4) بصائر الهجرة النبوية في بناء دولة الإسلام على أسس الدوام ودعائم القوام ومناهج التمام

لا نزال مع ذكرى هجرة نبي البشرى سيدنا رسول الله ﷺ، من مكة أم القرى إلى طيبة الطيبة، لنقتبس من أنوارها البصائر الهادية، ونتنسم من أنفاسها النفحات المحيية، اعتباراً لكون حَدَّثَهَا يوماً من أيام الله العظيمة الجليلة، يوماً من أيام المِنَّنِ، مِنْنِ الله علينا وعلى نبيه الكريم بتخليصه من مكر الماكرين، وكيد الكائدين، فقد خرج ليلتها ﷺ من تحت سيوف الماكرين المشهورة، وهو يحثوا التراب على رؤوسهم قائلاً: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ يَدَيْهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا أَعْبَسْنَاهُمْ فَبِهِمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 8].

يحثوا التراب عليهم استسخاراً بهم، وهُزْءاً وتذكيراً لهم بأن من شأنهم أن يَلْتَفِتُوا إِلَى أَصْلِهِمُ التُّرَابِي، فَأَنَّى لَهُمْ أَنْ يَرْتَقُوا إِلَى مَا فَوْقَ السَّحَابِ، وَأَنْ يُخَاطَبُوا رَبُّ الْأَرْبَابِ، وَأَنْ يَكُونُوا ضِدًّا عَلَى إِرَادَةِ اللَّهِ فِي نَصْرِ نَبِيِّهِ وَتَعْزِيزِهِ.

الهجرة يوم من أيام الله :

يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ يَسْتَدْعِي مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ وَقِفَاتٍ مَطْوَلَةٍ لِلإِذْكَارِ وَالِاسْتَبْصَارِ، ذَلِكُمْ أَنَّ رَبَّنَا ﷺ خَلَّدَ فِي كِتَابِهِ حَدَّثَ الْهَجْرَةِ بِاسْمِ النَّصْرِ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]؛ طَوَّحَ بِالْحُزْنِ وَكُلِّ الْمَخَافِ مِنْ خَلْفِكَ ظَهْرِيًّا، فَإِنَّكَ بَعَيْنُ اللَّهِ وَتَحْتَ نَظَرِهِ، وَكُلُّ جُنُودِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ فِي خِدْمَةِ النَّبِيِّ الْعَلِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ.

وقد جاء حَدَّثُ الْهَجْرَةِ مُنْصَفًا لِحَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَيِ فِي مُتَنَصِفِ حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ

صلى الله عليه وعلى آله، وفي ذلك دلالة على أنه يُمثَّل واسطة العقد⁽¹⁾ في سلسلة الأحداث العظيمة في حياة النبوة الخاتمة، وأنه مُؤذِن بالانتقال من مرحلة بناء الإنسان، إلى مرحلة بناء الكيان أمة ودولة.

الصدق منطلق الإسلام وغايته :

لقد اهتدى الرُّشْداء إلى أن يجعلوا حدث الهجرة مبدءاً لتاريخ المسلمين، أملاً في أن يفهموا معاني الهجرة، وما تَضَمَّنَتْه من الدَّلالات والعِبَر والمبادئ الخالدة، وأنه لا تاريخ لهم بغير أن يسلكوا على منهاج رسولنا صلى الله عليه وعلى آله في مَخْرَجِ الصِّدْقِ وَمَدْخَلِ الصِّدْقِ، الذي خلده القرآن في دعاء رسول الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقِي وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: 80].

فالصِّدْقُ مُنْطَلَقُهُ، والصِّدْقُ غَايَتُهُ، وإذا تجاوزنا الصِّدْقَ في مبادئنا ومواقفنا، وفي إعلاناتنا وبرامجنا، فإننا سنتجاوز روح هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

في أن الإسلام جاء لبناء الإنسان وتأسيس الكيان وتشديد العمران

إن الإسلام جاء ليكون؛ أي جاء ليوجد في عالم الناس، وليُثَمِّلَ واقعا في دُنياهم، وذلك من خلال دوائر ثلاثة كما سبق وأن ذكرت، تنزاح وتتداخل في اتجاه الخارج وصوبه، مارة بالإنسان الذي اهتم به الإسلام ابتداءً بترسيخ العقائد والأخلاق والمنطلقات، وإِعْلَاءَ لِهِمَّتِهِ بِبَيَانِ مَنْصِبِ اسْتِخْلَافِهِ وَرِسَالَتِهِ الْعَالَمِيَّةِ، إلى مرحلة بناء الدولة الأولى، فمرحلة بناء أمة القرآن الأمة العالمية، وذلك بتشديد العمران البشري على أسس من هداية الوحي الإلهي، ونور من بصائر الحكمة النبوية.

(1) يقال: (واسطة العقد) للؤلؤة التي تتوسط عقد الحسناء، دلالة على فائقيته، اجتماعاً وصفاءً واكتمالاً.

في أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاجر بعدما صدته العوائق عن إقامة صرح دولة العدل الفائق؛

اجتاز النبي بالمسلمين الأوائل في مكة أصول بنائهم النفسي والروحي، والخلقي والعبادي، وتوثيق صلتهم بالله ﷻ وإيمانهم برسالتهم، ولكنه صلى الله عليه وعلى آله ما لبث أن وجد العوائق تصدده عن المضي في الاتجاه نحو المرحلة التالية؛ مرحلة بناء الكيان، ذلكم أن البذرة لكي تنمو وتستوي على سوقها لا بد من أن تُوفّر لها التربة المناسبة، والظروف المهيأة المسعفة، فإذا فقدت النواة جدارها الحامي، فإنها ستظل مفتوحة على الخارج المضاد بكل أثقاله، وضغوطه وإكراهاته، ولن يستطيع الفرد بل ولا الجماعة أن تمارس دورها حتى النهاية، ولا سيما إذا كانت الرسالة تُبشّر بقيم تمثل رفضاً كلياً وحاسماً للواقع المعيش، فلا بُدَّ لها إذن من إيجاد أرضية صالحة لحركتها حتى تنمو وتنجو من أن تجرفها الجوارف وتسحقها العوادي.

فلذلك نجد أن سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله بدأ هجرته منذ أدرك أن مكة لا يصلح فضاءها لقيام الدولة؛ فحمية أهلها للموروث الجاهلي، وتوزعها للولاءات القبليّة، وموقعها المحاصر بالجبال، وكعبتها التي تعجّ بالأوثان، كلّها عوامل لا تُسعف بأن تكون - أي مكة - وهي على هذا الوضع وطناً لدعوة عالمية، روحها وريحانها «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله».

ومن ثمّ سلك صلى الله عليه وآله وسلم سبيل الله ﷻ في الأرض مرغماً كثيراً وسعةً ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: 99]؛ أي يجد موطناً يُراغم به عدوّه، ويتحدّى به خصمه، ويثبت له أن بالإمكان إيجاد مكان غير هذا المكان الذي تريدون فيه وئد الدعوة ورسالتها.

وقد انبرى صلى الله عليه وعلى آله منذ وطأت قدمه الشريفة طيبة الطيبة لإنجاز المهمة العظمى، مهمة إقامة دولة القسط التي جاء لها الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 24].

انبرى صلى الله عليه وعلى آله لإقامة دولته وترسيخها على أُسُسٍ أنبل وأدوم، ودعائهم أعدل أقوم، ومناهج أكمل وأتم، مُنطلقاً الأقوى، بناء مسجد التقوى، وغايتها تحرير الإنسان، أي إنسان، ومناهضة الظلم والطغيان في كل مكان، ودعامتها المسددة دستورٌ مُفصلٌ لتعاليم الإسلام التي يجب اعتبارها، والتحاكم إليها لضبط الخطى، وفُضّ النزاع، وإخاء أسمى وأكمل يُمثل اللحمية الإيمانية بين أهل الهجرة وأهل النُصرة، وقد تمّ للنبي صلى الله عليه وعلى آله ما أراد بجهاذه المبارك، وتوفيق من لدن الله له ﷺ.

ونال ذلكم المسجد الذي بناه وأقامه على أُسُسِ التَّقْوَى، ونال قاصدوه وعُمَّارُهُ، وأَوَّلَ خُطْوَةٍ وُضِعَ لَهَا، كل أولئك نال الثناء الحميد من الرب المجيد:

﴿لَمَسْجِدُ اسَّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾

[التوبة: 109].

وأثنى الله ﷻ على اللّٰحمة التي انتهى حالها بالمهاجرين والأنصار إلى ما قال ربنا:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا بِنَفْسِهِ بِغَاوٍ وَلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

المسجد الجامع مكان الوظائف الجوامع:

بنی النبی صلی اللہ علیہ وعلى آلہ المسجد الجامع وأقام فیہ الوظائف الجوامع، فكان ملتقىً للمسلمین، ومَجْمَعاً للشوری، ومَوَئِلاً للضعاف من أهل الصُّفَّة، یَتَحَاتُّ فیہ المؤمنون بمحبة الله، ویجتمعون بروحه وعلى حبِّه، كان

المسجد مدرسة، وكان مشعلا نورانياً، ولم يكن مسجداً مُعطلَّ الوظائف.
وانبرى منه «من المسجد»، انبرى صلى الله عليه وعلى آله إلى بناء القوة التي
تحمي المكتسب، وتردُّ المغتصب.

فَلَعَمْرُ الْحَقِّ، إِنَّ الْهَجْرَةَ كَانَتْ فَصْلاً مُمْتَزِئاً فِي تَارِيخِ رَسُولِنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ، الَّذِي هُوَ مُسْتَهْلُ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ وَمُطْلِعُهُ الْمَجِيدِ، فَكَانَ التَّارِيخُ
وَحَرَكَتُهُ هَجْرَةً وَمَا قَبْلُهَا مَقْدَمَةٌ وَاسْتِعْدَادٌ، وَكَانَ مَا بَعْدَهَا نَتَائِجُ وَثَمَارُ وَأَثَارُ
لِلْإِسْتِمْدَادِ.

**يجب على المسلمين أن يأخذوا بأسباب النصر التي يحملها حدث الهجرة
في دلالاته؛**

وعلى المسلمين أن لا ينسوا في ذكراهم وذكرى هجرة نبيهم، ونحن حقيقون
بالتذكر المستمر، لأننا أصبنا في ذاكرتنا بثقوب في الجمجمة، بعدما أصابتها
سهام المستهدين والمغرضين، وضربنا في أصول الفهم، على المسلمين أن
يتذكروا ويعلموا أن رسالة المهاجر العظيم كلها ذكر وتذكير: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ
كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10] وغاية الذكرى تحصيل النفع:
﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55]، وإنما جاء النبي للتذكير:
﴿بَذَكِّرَ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21]؛ تلك وظيفتك ومهمتك.

ينبغي على المؤمنين أن لا ينسوا هذه المعاني وهم يحتفلون بذكرى هجرة
النبي صلى الله عليه وعلى آله، وأن يوطنوا أنفسهم على أن يأخذوا بأسباب
الارتقاء والتخلص من العوائق، والانطلاق نحو الأفق الأرحب الأوسع
المتألق، والمتناسب مع منصب الخلافة عن الله، ومع منصب الرسالة العالمية
في سماحتها وتوازنها وإنسانيتها، وتخليدها للقيم العليا، وتحذيرها من القيم

الصغرى التي تُغير على قيم الأصول، وتحاول الإطاحة بها، وذلك بتوثيق صلة المسلمين بربهم ابتداءً إيماناً و عرفاناً، وتوثيق صلتهم ببعضهم مودةً وصلةً وإحساناً، وتوثيق صلتهم بالكتاب مُدارسةً وتعميقَ فهمٍ وتبياناً، عسى الله جلَّ في علاه أن يرحمنا ويُخلصنا من ظلمٍ طالت ظلمته، ومن شقوة أناخت بكلِّكُلها على صدور الأمة، إنه ﷺ وَلِيُّ ذَلِكَ والقادرُ عليه. جعلني الله وإياكم ممن ذُكِرَ فنفعته الذكرى، وأخلص لله عمله سرا وجهراً، آمين آمين والحمد لله رب العالمين.

الهجرة كانت منطلق تاريخ أمة نبي الرحمة للعالمين:

في ذكرى المهاجر العظيم سيدنا رسول الله ﷺ نبي الختم الأتم، والخلق الأكرم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، في ذكرى هجرته التي هي عنوان النصر الأتم، ومخرج الصدق والرضا الأعم، ومنطلق تاريخ أمة نبي كانت بعثته رحمةً للعالمين، وكانت رسالته نوراً وخلاصاً للناس أجمعين من الظلم والظلمة إلى يوم الدين، يقول تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْبَرِّ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 1]، ويقول تعالى: ﴿فَدَجَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [يهدى به الله من يتبع رضوانه، سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] [المائدة: 17 - 18]، ويقول تعالى: ﴿لَفَدَجَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٢٩] فَإِنْ تَوَلَّوْاْ بَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129 - 130].

في ذكرى كان من الحق، بل من الواجب أن يقف العالم كله، بكل دُوله وشعوبه - لو أنصف في لحظة - أن يقف مُشيداً ومنوهاً، ومُكبراً ومستلهماً، ومتلمذاً على سيد الأساتذة رسول الله ﷺ وعلى آله، الذي شهد بجدارته لذلك

حتى أعداءه وأعداء الثقافة الإسلامية المعاصرة، من مستشرقين وغيرهم، ممن أنصفوا بعدما عرفوا الحق.

بعض شهادات المستشرقين وغير المسلمين في حق الإسلام ونبي السلام:

وهذا سيد فرنسي يقول: «لولا العرب والمسلمون لما كان لأوروبا شأنًا يذكر في التاريخ المعاصر» بعد أن كتب كتابه «حضارة الإسلام» وقال في خاتمتها ذلك، وقال مستشرق ألماني: «لولا الإسلام ونبيه لما سطع الشمس على أوروبا، ولظلت في ظلامها الدامس وفي عصورها الوسطى».

الإساءة إلى الجناب النبوي العلي من بعض أصحاب الخلق الرديّ الدني:

في يومٍ كنا ننتظر أن يقف الجميع لإكبار هذا النبي وإعجازه، إذا بنا نفاجأ، بل نصفع من أحسَاء أراذل، وسُفهاء أسافل، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، يسيئون إلى الجناب الطاهر العلي، وهم في ذلك يثبتون صلتهم ونسبهم إلى الجاهلية القديمة، غير عابئين بمشاعر مَنْ هم بينهم من المسلمين وما يجاورهم من ديارهم، بل ومن يستفيدون منهم، بل ويعيشون ويقتاتون على مقدراتهم، وغير متحرزين ولا محترمين لمقدسات غيرهم، يَحْكُون خِسَّةَ المسلك، وِحْطَةَ الشعور، ودناءة الخلق، ووقاحةً بالغةً منتهاها.

وكأنني بهم يُذَكَّرُوننا بما كانت تضربه الجاهلية من أمثال للنبي صلى الله عليه وعلى آله حين كانت تبحث له عن عنوان يتناسب مع جهلها، تقول هذا كاهن، ومرة ساحر، ومرة مجنون، ويقول تعالى يُعَجِّبُنَا مِنْ آرَائِهِمْ: ﴿نَظَرَكَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 48]، ضلوا الحقيقة وسبيلها، وما أصابوا ولا وُفَّقوا في هذا الحكم الذي حكموه عليه، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، لا سبيل لهم إلى إطفاء نور الشمس، ولا إلى تزوير الحقيقة، ولا إلى تبديل

الضياء بالظلمة، ولا إلى مسح النور بالعتمة، فالنور يظل نوراً، والصبح صباحاً، والضحي ضحى، والحقائق لا تزول ولا تتغير بإنكار أهل الأمراض والأغراض: قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

فالعلة فيهم، وقد كان صلى الله عليه وعلى آله يواجههم ساعتها بقوله لأصحابه «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش وتعييرها: يشتمون مذمما وأنا محمد»، صلى الله عليه وعلى آله «سماني الله كذلك»؛ اسم على مسمى، محمود الخلق، محمود الضمير، محمود المسالك، محمود الآثار، محمود الغرائز، محمود المنهاج، محمود الكلمة، كله ذكر، وكله هدى ونور.

وقد التزم صلى الله عليه وعلى آله ما لقنه الوحي تأديباً مع مقادير الله في الابتلاء، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 97 - 99]، إذ الذكي النقي يضيق بالوسخ حين ينعته بدنيء الصفات، يقول تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لا تعبث بهزئهم، لا تضق بهم، فإن الكون كله يعرفك ويسبح الله ويذكرك بنعت الرسالة، فقد كان صلى الله عليه وعلى آله من آياته أن سمع وأسمع الصحابة تسبيح الطعام في كفه الشريفة، وتسليم الحصى والحجر عليه بوصف الرسالة، وقد كفاه الله أمر المستهزئين فأبادهم، أباد خضرائهم، وكسر شوكتهم وأفنى طواغيتهم، قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: 95]، وكتب الله لنبه العلو والنصر، والخلود ورفع الذكرى، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4]، فوعده باطراد النصر، واطراد الشأن، وبقاء الأثر نسباً وسبباً، سبباً بكثرة أتباعه، ونسباً بكثرة أشياعه واستمرار نسله الشريف إلى قيام الساعة.

وتوعد الله ﷻ شأني نبيه ومُتَنَقِّصَه ومُبْغِضَه، والنائل منه بقطع الدابر، واستئصاله على الآخر، يقول تعالى: ﴿إِنَّا آَعَطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1]،

أي الخير الكثير الذي لا ينقطع، فأتباعه منذ خمسة عشر قرناً إلى يوم الناس وسيظلون، ولا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة كما صح عن رسول الله ﷺ وعلى آله، ﴿لَا شَأْنِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 3]، مبغضك والحاقد عليك والمتنقص منك، هو هو الأبر المقطوع، إن عاجلاً وإن آجلاً ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حَيٍّ﴾ [ص: 86].

ونستفيد من الحدث آية من آيات تصديق الكتاب، ببقاء هذا النوع من الكلاب النابحة التي مآلها إلى خسر وتباب، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَرِيسِكُمْ إِنْ إِسْتَطْعُوا﴾ [البقرة: 215]، استهواء القتال بجميع الأشكال، وفي جميع الأحوال، ومنه استعمال الأدوات الساخرة، والقتال الإعلامي، وقتال بالترويج للإفك والكذب، وإثارة الشبهات، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾ بأساليب تختلف باختلاف الظروف والملابسات، ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَرِيسِكُمْ إِنْ إِسْتَطْعُوا﴾، هدفهم الصد عن الدين، والتمكين للكفر والضلال المبين، وفي التعليق بـ: ﴿إِنْ إِسْتَطْعُوا﴾ ما يؤذن بالشك في قدرتهم على ذلك، لأن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

ويقول: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا بِتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: 88]، أي سواءً في الكفر لا في الحقوق، سواءً في الدناءة فتشيع دناءتهم فيكم، وفيه ردٌ صريحٌ على من يروج لفكرة انتهاء زمن الأحقاد وطبيها إلى الأبد، وذلك أن الذين يروجون بيننا أن العالم في رشد متزايد، وأنه يُقَرُّ السُّلم إلى الأبد، إنما يروجون لخدعةٍ نُستدرج بها نحن المسلمون، لقبول الأمر الواقع، وللدينونة لعالم الطغيان.

أسباب جراحة أهل التباب على رفيع الجناب:

ونتساءل، من الذي جرَّ هؤلاء الكلاب على سنيّ الجناب سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله؟ أهو تفاهتنا؟ أهو استهتارهم بنا واستخفافهم بشأننا؟ إذ لا وجود

لنا ولا اعتبار في عالم الكبار، أم هو ما أخبر عنه النبي بعنوان التداعي «توشك أن تتداعي عليكم الأمم كتداعي الأكلة على قصعتها»؟ القصعة الجاهزة.

وما أشبه واقع المسلمين في خيراتهم ومدخراتهم بالقصعة الجاهزة في الوليمة الرخيصة، وأَعْلَهُ⁽¹⁾ صلى الله عليه وعلى آله بالوهن، الذي ضرب القلوب، والناجم عن التخلي عن الأصول، والاشتغال بالفضول، والانكفاف حول الفحول، مما أضعف شأننا، وأوصلنا إلى هذا الحضيض المرذول.

أم أن ذلك الاجترأ كان لتقصيرنا في تقديم صورة مُشرِّفة لديننا، ونُصِبِ مثاله الأنفَسِ المُسَكِّتِ لكل محاول متطاول، مما يفرض اعتبارنا بجدارة، ومحو الصورة الشوهاء التي يقدمها الأدياء ومن لف لفهم من أعداء الأمس وأعداء اليوم.

ونستغل الفرصة - فرصة الحدث⁽²⁾ - لإعادة النظر في مواقفنا، وأن نحاول تجاوز موجبات ضعفنا، وقد منحنا القدر العلي كل أسباب التجاوز كما وكيفاً فلا عُذر لمعتذر.

وفرصة أخرى أيضاً لاستئناف دور الحَمَلَةِ العُدول، الذين ينفون عن الدين تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، كما أخبرنا النبي صلى الله عليه وعلى آله بذلك منوها ومشيدا بمقامهم ودورهم.

الحرية مقدورة ومعتبرة بشرط المسؤولية وفق القواعد المقررة:

وكلمة نقولها للذين يتعللون بمبدأ الحرية، وأن مبدئها يُعطي الحق لمن شاء أن يقول ما شاء، نقول لهم بالمثل فلنعطي للآخر المعتدّي عليه وعلى الأقل حسب تصوُّره أن يتصرف مع هذا المتحرر بمبدأ الحرية فيقف منه الموقف الذي يشاء أيضاً.

(1) أي جعل علته الوهن.

(2) كان هذا القول بمناسبة ما عرف بالرسوم المسيئة لسيدنا رسول الله،

والصواب على ما علّمنا الكتاب أن الحرية إنما كانت مقدورةً ومعتبرةً ولها شأن، لأن فضاءها هو أنسب الأجواء في الالتزام، وتحمل المسؤولية من متحملها على الاختيار بوعي مسؤول بالكامل، بما أنه حر، الحرية أكبر ضمانٍ للتحمل الراشد، يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ فَدَتَّبِيعَ الرُّشْدِ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 255]، فجعل التبيين والتمكين شرطان أساسيان للتحمل في الدين، لأن المكره كلاً أو جزءاً يمكن أن يتعلل بشتى التعلات، ويتحلل من كل التبعات، فقطعا لكل اعتذارٍ أو تنصّل، كانت الحرية في الدين أنسب فضاء للالتزام، يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]، صدق الله العظيم.

فتوى الإمام مالك رضي الله عنه فيمن تطاول على رسول الله ﷺ، وأنه لا بقاء للأمة بعد شتم نبيها :

سأل الخليفة هارون الرشيد رحمه الله الإمام مالك رضي الله عنه في رجل، أو عن رجل شتم النبي صلى الله عليه وعلى آله، وذكر - أي الخليفة - أن فقهاء العراق أفتوه بجلده، فغضب الإمام مالك منتفضاً وقال: «ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها؟! ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها؟!»، من شتم النبي قُتل ولو أعلن التوبة، ومن سبَّ صحبه جُلد».

تلكم فتوى الإمام مالك رضي الله عنه وأرضاه؛ ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها؟! إذا طُعن في أصولك، وتُنقَص من دينك، ومن نسبك الأعلى، وليس من نسب الأرض والدم فقط، من نسبك الأعلى، نسب الخلود، فما بقاءك؟ لِمَ تبقى إذا؟ لأن الغيرة تتبع المحبة قوة وضعفاً، وهي دليل صدقها، إذا وُجدت وجد أثرها، فالذي لا يغار في مثل هذه المواقف، فاقد لكل اعتبار.

في أنه لا يتنقص الكمال ولا يعيب الجمال إلا مجرمٌ وخسيس سيئ الخصال؛

وأخرى لا بد من التذكير بها، وهي أن الذين يعيبون الجمال، ويتنقصون من الكمال، إنما يدُلُّون على مقدار القبح والنقص الذي اجتمع فيهم وصدق القائل:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فتك الشهادة لي بأنِّي كامل.

وقال آخر:

كضرائر للحسنة قلن لوجهها حسدا وبغيا أنه لذميم.

وهي حيلة القاصر العاجز في مطاولة ومصاولة القادر المتعزز، إذ يلجأ إلى الكذب والاستصغار، من غير ما حياء ولا اعتذار، محاولاً أن ينقص من ذلك الجمال، وأنَّى للتراب أن ينال الثريا، يقول تعالى مذكراً بصورة تختزل هذا الحدث: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 29]، والإجرام هو الظلم عن سابق إصرار، إنه احتراف الظلم والعدوان، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ من الطغاة ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، عنوان انتمائهم أنهم أهل إيمان، الذين يحيون تحت شعار الأمن والسلام، إنهم هؤلاء الضعاف من المؤمنين الموجهين برسالة الخلق والرِّفق، كان الذين أجمروا من الذين آمنوا يضحكون، وهو استهزاء بالصوت والقهقهة للفت في عضدهم، وإيقاف حركتهم، وهي حرب نفسية، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: 30]، وهذه سخرية بالإشارة بالحواسب والنواظر والعيون، ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: 31]، في تجمعاتهم في نواديهم، انقلبوا فاكهين، يتفكهون ويتلذذون بحديث التعيب والسخرية، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ فَالَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُونَ﴾ [المطففين: 32]، إذا رأوا الذين آمنوا في عبادتهم وصلاتهم، وعزوفهم عن الفساد والخسة، يقولون إن هؤلاء لصالون، ضالون لأنهم تاركون للنعم في نظرهم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: 33]، لم يرسل الله هؤلاء لكي يقوموا هؤلاء بالميزان الذي يروِّنه ويعتبرونه، لأنه ميزان

جاهلي، ولذلك تولى القرآن الإجابة بأنه لا بد من يوم يملكه الله مالك يوم الدين، ﴿قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 34]، جزاءاً وفاقاً، لأنه العدل الذي قامت به الأرض والسماء، وهو مستمر وخالد إلى أبد الدهر، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ ٥٦ هَلْ تُوْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٧﴾ [المطففين: 35 - 36] الجواب نعم؛ لقد تُوبَ وجُزِيَ الكفار بما كانوا يفعلون.

الغيرة على الحرمات النبوية من علامة الإيمان :

وثالثة نقولها للذين يغارون لنبيهم، إنه ينبغي أن تظلَّ الغيرة مُشتعلة في النفوس والأفئدة، ومنتقلة من جيل إلى جيل، ومن جماعة إلى أخرى، وأن تشمل كل ما يتصل بالجناب الشريف، فكل إساءة ماسة بشخصه الشريف، أو برسالته، أو بمنهجه، أو بأحكام دينه، أو بخلقه الشريف، وسواء كان التطاول عليه أو على غراسه المباركة من صحبه ووُراثِ علمه، إنها في ميزان السوء سواء، وإن اختلفت درجات النكر والقبح؛ فليس الذين يسخرون أو يتشككون في عالمية الإسلام وخاتمية نبيه صلى الله عليه وعلى آله، أو الذين يسخرون من صلاح الشريعة في كل زمان ومكان، أو الذين يتنقصون من منهج النبوة، ليس هؤلاء بأقلَّ استسخاراً واهتزازاً من أولئك الذين نشروا تلكم الرسوم من أهل الإجرام، خصوصاً إذا كان هؤلاء أو أولئك من المحسوبين على الإسلام، والناشئين في دياره والمنتسبين في الجملة لمِلَّته.

فالواجب كل الواجب تذكيرهم ابتداءً، وتعريفهم ثم استتابتهم بعد ذلك، وتبين دعاويهم، وكشف شبههم، وترتيب الأحكام في حقهم وشأنهم، بحسب الدوافع جهلاً وشبهة، ومحاولة لإثارة الفتنة، وممارسة الإغراض والإبطال.

وحتى تكون الغيرة مُرَشَّدةً وفاعلةً ومتوازنةً، ينبغي ألا تكون مجرد وَحْمٍ كذاك الذي يصيب النساء الحوامل، وليس مرضاً تُغذِّيهِ العصبيات، وتُثيره الأغراض،

وتوظف لمقاصد غير شريفة ولا بريئة، وحتى لا يصدق فينا قول القائل محققاً:
إذا رام مكرًا بالصلاة مُقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقرب

وقد ذم الله جل في علاه مسجد الضرار، وهو مسجد جامع أُسس في الظاهر للصلاة، وتقام فيه الشعائر باستمرار، وظاهره الصلاح يقول تعالى ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيفًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِلْمَن حَارِبَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ مِّن قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 108].

من الإساءة للنبي ﷺ إشاعة الفرقة بين أبناء أمته :

ألا فليعلم الذين يسيئون للجناب الشريف في أمته، بإشاعة الفرقة بين أبنائها، ويسوءهم أن تجتمع كلمتها، وأن يتحد صفها وترتفع راياتها، وينشرون فيها الطائفية والعنصرية، ويدبِّحون الأمة تحت شتى الذرائع، فليعلم هؤلاء أن النبي منهم بريء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ بَرَّفُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 160]، أنت لست منهم ولا هم منك في شيء، إن أمر أولئك المفرقة للدين، والمشتتة لشملة المسلمين، أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يعملون.

تسليط العدوان وتكريس الحرمان خصومة نبي الأمان ﷺ :

ألا فليعلم الذين يسيئون للضعاف بتكريس حرمانهم، وتسليط العدوان عليهم، وجعلهم في مُلتقط التهميش باستمرار، ليعلم هؤلاء أنهم خصوم للنبي صلى الله عليه وعلى آله، وأنهم يسيئون له غاية الإساءة، يقول صلى الله عليه وعلى آله: «ابغوني الضعفاء»؛ أي اطلبوني واطلبوا محبتي في نصرتهم وخدمتهم، ومد اليد إليهم، وإياكم أن تنسوا المستضعفين فيكم، «فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم».

(5) بصائر الهجرة النبوية في كونها «ألم المحاصر المتحمّل، وأمل الصابر المتحمّل، وأفق الواثق المؤمل»

لا نزال مع أيام رسول الله ﷺ التي حفظت في سيرته وسنته، وتحديدًا مع يوم هجرته الشريفة، ولأن عظمة الذكرى تتمثل في الدروس المستفادة منها، والتي ينبغي حفظها ورعيها من الأمة، وتعميقًا لدلالات هذا اليوم العظيم من أيام سيرة رسول الله ﷺ، اختيرَ بإجماعٍ من المسلمين ليكون مبدأً للتاريخ، ليؤرِّخَ بها المسلمون، وذلك تنبيهًا إلى أن هذه الذكرى ينبغي أن تظل حاضرةً بمعانيها ومغازيها، ومراميها المُلَخَّصة في شيئين عظيمين؛

1. أولهما: أنها تحمّل ألم الداعية.

2. وثانيهما: أنها تحمل في ذات الوقت أمله في الفرج القريب.

فلها دلالة من جهتين، هي ألم إخراج الطرد إبعاداً وإقصاءً، لقد أُخرج ﷺ من أحب بلاد الله إليه، خرج ﷺ وهو كاره، ولذلك أمره الله أن يقول: رب أعني على هذا الخروج فأخرجني مخرج صدق، أي أخرجني وأنا راضٍ بقدرك، أخرجني مخرج الرضى، لقد خرج النبي ﷺ وهو يلتفت إلى أم القرى، مسقط رأسه، ومُهاجر جده النبي الخليل الأول صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى نبينا وعلى آلهما.

ثناثة الأمل والأمل في تاريخ الأمة :

لقد رُفِعَت هذه الهجرة بأحداثها إلى عنوان التاريخ، للتنبيه إلى أن تاريخ الأمة تاريخ أمل وتاريخ أمل، كما هي الهجرة تماما، فليس التاريخ سلسلة أمال تتحقق، ووعود مُنجزَة، ولكنه مزيج من ألم وقَرْح، وأمل وفرج وفرح، التاريخ جهادٌ وحصاد، التاريخ توَسَّل وتوكل؛ توَسَّل بالأسباب الممكنة، وتوكل على رب الأرباب ومسبب الأسباب.

بالحجرة تحول النبي ﷺ من مُطارِد مُهدد، إلى مرحب به ومنصور مؤيد

فبينما نجد في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ، والتي سجلها القرآن في قوله تعالى: ﴿إِذَا خَرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: 40]. وبينما يُطرد ﷺ ويُطارِد مطلوباً من رموز الفساد حياً وميتاً، بينما هو كذلك إذا هو يُسْتَقْبَلُ بأنشودة الودِّ من أحبَّته الأنصار في دار النصرَة، أَلَمْ يَعْقِبْهُ أَمَلٌ، وبينما هو ﷺ يخرج خائفاً يترقب، كأخيه موسى الذي هاجر من مصر إلى مدين، إذا به قائداً يُنصَّب، ومن القلوب يُقَرَّبُ ويُحَبَّبُ في ديار الأنصار.

ويربط القرآن الكريم بين هذا الحدث وبين يقين صاحبه، بين الهجرة والمهاجر، فينطق ﷺ وهو على أبواب الهجرة بما كان يحسه وما كان يعتقد، وما كان في قرارة وجدانه من معية الله وصحبته التي هي قمة الذكر والإيمان، والتي بسببها تنزل السكينة، ومُكِّنَ من الأسباب المتينة، وجاءه التأكيد على التأييد بجند غير مرئية: ﴿لَا تَتَضَرَّوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّبُلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيَّةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40]، فلم يقل ﷺ: إن الله مؤيدنا، ولم يقل: ممدنا أو معيننا، قال ﷺ: «إن الله معنا»، فالقدرة كلها بمنتهاها وصفاً لله تعالى، والرحمة كلها بمنتهاها معنا، ونحن في كنف الله مغمورين بتأييده وعنايته، يقول تعالى مرتباً على هذا الاعتقاد

من هذا المهاجر العظيم: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، السكينة تدفع كل قلق وكل ارتعاب، وكل ارتجاج وكل توجس، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾، إرادتهم ومكرهم، وكيدهم الممثل في كلمتهم وفعلهم، جعله الله الأسفل غاية السفلى ذلة وانتكاساً وارتكاساً، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ في القضاء والإمضاء، وهو ما قررته آيات أخر من مثل قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ فِي الْأَذِلَّةِ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 20]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَلْبُونَ﴾ [الصافات: 173]. فليس الأمر أكثر من انتظار سنة الله وموعدها الذي حدده الله بمشيئته وقدرته.

دروس الهجرة هداية وتسديد على طريق الوراثة الحق:

عظمة هذه الأحداث وسر خلودها أنها قد تتكرر، بل تتكرر فعلا في أثواب شتى، وبالتالي يجد أهل الصلة بالله فيما سبق من أحداث لرسول الله ﷺ ما يهديهم ويسددهم على حد قول الله: ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيَّ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَنْثِي بِهِ، فَوَادَّكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 119]، الفائدة الأولى التسكين وذلك في قوله: «ما نثيت به فؤادك»، والفائد الثانية: التبيين وذلك في قوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ووجه التثبيت في مثل هذه الأحداث أنها تُجَلِّي مَثَلَاتِ اللَّهِ وسننه، وتُذَكِّر بمواقف مماثلة أحيانا، يتطابق فيها ما حصل بين الدعاة والطغاة، فكانت النهاية ما قصه القرآن من ذهاب كيد الكائدين وبطلانه، وبقاء الحق وأعوانه⁽¹⁾.

(1) يقول تعالى في طاعة سورة القصص مبينا سنته التي لا تتحول وحكمته التي لا تتبدل: ﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ يَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ تَلَوْا عَلَيْهِ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿وَنُكَفِّرُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 1-5].

استهداف الأمة في تاريخها وذاكرتها من أجل القضاء على مقومات استمرار وجودها،

وإنها لسنة ماضية، وإن ذاكرة الأمة مستهدفة، والتأمر عليها مزدوج:

• تأمر على الوجود حضوراً.

• وتأمر على الذاكرة تاريخاً مذكوراً.

فنحن مستهدفون في وجودنا، وذاكرتنا وتاريخنا، وينبغي أن نحیی هذه الأيام وهذه الذكريات بزخمها الممد الملهم المعلم، حتى لا تقضي علينا المؤامرة التي تتحل أمرين خطيرين هما:

1. التغريب عن الأصول.

2. وزرع ثقافة الأفول.

إن الذين يلحدون في التاريخ بغير حق، ويقولون فيه بغير صدق، وينشرون بين الناس ويعلمونهم أننا غائبون وأنا منتهون، ويشيعون بأن المسلمين ظاهرة صوتية عابرة، وإذا كان سيدنا رسول الله ﷺ قد لعن من غير منار الأرض، فكيف يكون من غير منار الأصل والفرص.

إحياء ذكرى الهجرة لتثبيت اليقين في قلوب أهل الإيمان في مواجهة كل صنوف الظلم والبهتان:

حدث كالهجرة ينبغي أن نقف عنده، ونتلمذ على بيناته، ونستوحي منه المزيد من آيات التثبيت والتمكين، لنرى كيف ينتقل المستضعف في موضع الاغتراب إلى دار الترحاب، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا آوَوْا وَبُوءُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَ نَفْسِهِ بَأْلًا وَلَا يَكِهِمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

تمضي الذكرى ويبقى الدرس لأهل الإيمان في مواجهة أهل الطغيان، ونصب أعينهم قول الله المجيد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

[آل عمران: 200]، وقوله تعالى لنبيه: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127 - 128].

من ذكرى الهجرة نستلهم أن كل صنوف تبيت المكر أسراً واغتيالاً، وطرداً وحصاراً، مُنتَهية في يوم لا ريب فيه، وهو محكوم بمشيئة الله، ولكن يتقدمه الصبر لكي يتمحص أهل الإيمان؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: 37].

في بيان مقومات النصر الثلاثة :

ينبغي أن نحفظ من درس الهجرة أن نصر الله للمؤمنين يتقدمه أمور أرسنها سنة سيدنا رسول الله ﷺ الشريفة، ورسختها سيرته المنيفة ومنها:

1. أولاً: لا بد في البداية من توثيق الصلة بالله، والإيمان بمعيته، وذلكم هو السند الممد بالقوة التي لا تغلب.

2. ثانياً: توحيد الصف، والتصالح مع الذات والنفس، ذلك أن التنازع والشقاق سبب ذهاب الريح وفشل العزائم.

3. ثالثاً: الأخذ بأسباب العزة ممثلة في توجيهات الكتاب ودستور البصائر: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ العلم أولاً، لقد دخل علينا من الجهل الذي جعلناه منسكاً، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ اقرأ لتربى وترتقى، ويلي «اقرأ»، «وأعدوا» في قول الله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْمَلُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 61].

في إشارة قرآنية علوية إلى أن الإعداد المادي والنفسي هو أيضاً من أسباب العزة. تلكم الثلاثة هي مقومات النصر، وإلا فقد أخذنا بأسباب الاسترقاق، وركبنا مركب الإخفاق، وتنكبنا سبيل الاستحقاق لأي نصرٍ بإطلاق، وتخلينا عن سنة

الله التي مضت في أن الذين دخلوا من الباب، لا بد أن ينتهوا إلى الرحاب، ولن يشفع لنا حينئذٍ - أي حينما نتخلى - مجرد انتسابنا الصوري إلى الدين عظيم الجنب؛ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَجِدْ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62]، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140]، أيام الأقراح وأيام الأفراح، والقصد منها تمحيص الله للذين آمنوا ومَحَقَّ الكافرين، ثم يتخذ الله شهداء يبقون حجة على أممهم، ومنارات للنصر يهتدي بهم أقوامهم، وإعلاما بأن هناك في الناس من توحد مع مبادئه، وكان نوراً من نور الله يضيء للسائرين على درب الوصول، تحقيقاً لوعده الكريم في قوله ﷺ ﴿وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: 37]، سنة من سنن الله ومعلم من معالم النصر. اللهم اختم لنا بما ختمت به لأولياك، وجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك، ولا تجعلنا يا مولانا محل شماتة من أعدائك، بفضلِكَ يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين.

في أن الهجرة نصرٌ إلهيٌّ مباشر:

سبق بيان أن هجرة رسول الله ﷺ على وآله كانت نصراً إلهياً مباشراً، حصل فيها من لدنه ﷺ التأييد بجند غير مرئية، وتنزلت فيها السكينة الحفية، وبقدر ما كانت من مخاوف مُرافقة، كانت عناية الله بصاحبها صونا له وسُرادقة، ولسان الحال منه ناطقة بقول القائل:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلها أمانٌ
وقول الآخر:

عناية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

إذا حضرت عناية الله أغنت وَلِيَّه عن الدروع والحصون، وفتحت له باب الفَرْج وسط الفُتُون، وَمِنْ شاهد هذه العناية الخاصة واللفظ الخفي، ما حصل لسيدنا رسول الله ﷺ مما يثبت أفئدة أهل الإيمان، ويوثق صلتهم بالله الرحمن، وأنهم بعين الله، وتحت رعاية الله، ما داموا مستمسكين بحبل الله، حيث ثبت في السيرة أن الله ألقى في قلب نبيه ﷺ وعلى لسانه وهو على درب هجرته هذا الدعاء الشريف، ولقنه إياه بلفظ «قل»: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ [الإسراء: 80]، وكلمة «من لدنك» تدل على المدد الخاص حينما يتخلى الجميع عن النصرة، وحين يفتقد العون كلياً «من لدنك سلطاناً»، ويتنزل سلطان الله الغالب، فيخرج النبي ﷺ من بيته ليلة هجرته، والأخطار محدقة به وسط الجموع؛ السيوف والرماح مشهرة، ويخرج منتصباً صلى الله عليه وعلى آله رافعاً رأسه تالياً قول ربه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا أَعْبَأْ غَشِيَتْهُمْ بِهِمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [يس: 8]، خرج ﷺ وهو يحثو التراب الذي هو موطن الأقدام، فوق رؤوس الأقسام من الطعام، الذين أرادوا الفتك به، فمرَّ ﷺ بين أيديهم وهم ينظرون إليه ولكن لا يبصرون، قد عطل قدر الله منهم سواعدهم، وعطل منهم جهاز الرؤية فأبطل بصر عيونهم بعدما عميت بصائرهم، فأصبحوا واقفين كأنهم النصب والأصنام، يمر سيدنا رسول الله ﷺ بعناية من لدن الله وسلطانه الغالب، كما قرره القرآن: ﴿وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾.

غار ثور مستودع مصير رسالة الختم:

بيت الليالي الثلاث في غار ثور، ذلكم الغار الذي استودعته العناية الإلهية مصير الرسالة الخاتمة، ومستقبل حضارة كاملة، بيت ﷺ في حراسة جند في غاية الضعف بحسب مقاييس الحضور والشهود؛ نسج عنكبوت، ويا لا قدرة الله

العلي الحكيم، إن هؤلاء الكفرة ليسوا بشيء حتى يصرفوا بالخوارق، بل صرفوا بنسج حشرة، صرف الله جيش الكفرة بنسج حشرة، وانطلق الرصد في أثر النبي ﷺ ينقب في كل الدروب وفي كل الطرقات ويمسح الأرض والكهوف حتى وصل إلى غار ثور، وأنصت الرسول ﷺ وصاحبه إلى أقدام المطاردين تخفق إلى جوارهم، فأخذ الروع والرعب الصديق، فهمس في أذن رسول الله ﷺ قائلاً: «لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا»، فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك - ما اعتقادك - ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ما ظنك؟ هل يُخْلِيهما؟ هل يتخلى عنهما؟ هل يمكن لقوة ما أن تخرق حمى الله القادر؟ أبدا؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وما يعلم جنود ربك إلا هو؛

روى الإمام أحمد بسند حسن، أن المشركين اقتفوا الأثر، حتى إذا مروا بالغار رأوا بالباب نسج عنكبوت فقالوا: لو دخل ها هنا أحد لم يكن ثمة نسج عنكبوت على بابه، لقد حمى الله نبيه بأوهن نسج، وأوهن بيت⁽¹⁾، والجنود التي يخذل الله بها الباطل وينصر بها أهل الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح أو الأدوات، أو صور الخارقات، إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وخطرها لا يتمثل في ضخامتها، فقد تفتك جرثومة واحدة لا تراها العين بجيش عرمرم كما حصل بآية الطير التي رد الله بها جيش أبرهة عن حرمه وبيته، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31]، لا يعلم كمهم وكيفهم وصورهم إلا الله الذي له جنود السموات والأرض.

ومن صنيع الله لنبيه أن عمى عنه عيون عِداته وهم منه على مد الطرف، والله غالب على أمره، يحقق إرادته إذا شاء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(1) في إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ إِتَّخَذَتْ بَيْتًا وَلَئِنْ أَوْهَنَ أَلْيُوتُ لَبِثَتْ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41].

رصد الجائزة لمن يأتي برسول الله ﷺ وصاحبه :

وساء قريش أن تخفق في العثور على رسول الله ﷺ وصاحبه، ساءها وعضت على البنان تحسرا، وجعلت دية كل منهما مائة ناقة، جائزة مرصودة لمن يجيء بهما حين أو ميتين، وهذه الجائزة على هذا النحو تغري بركوب المخاطر، وتَحْمِلُ المشاق من عشاق الجوائز المرصدة، فانطلق الباحثون أو المريدون لهذه الجوائز ليلها، وكان من بينهم الفارس المغوار سراقه بن مالك، وقد بدت له مخايل البشرى والظفر، بدلالة أحد الأعراب له على طريق المهاجر العظيم، فجهز فرسه وركبها وسرح بها نحوهما، فكان أن حدث منها شيء على غير مألوفها، فما إن دنت حتى عثرت، وسراقه يعرف فرسه لا تعثر، دنت فعثرت فخر عنها، ثم امتطاها ثانية وزجرها فانطلقت حتى إذا دنت، وكان الصديق يكثر الالتفات لما أحس بالرصد قريبا فقال لرسول الله ﷺ هذا سراقه قد راهقنا⁽¹⁾ وأوشك على أن يدركنا، فما أتم كلامه حتى ساخت الأرض من تحت حوافر الفرس، فهوت بسراقه وألقي صريعا، فقام معفرا بالتراب وقد أدرك سر التريب⁽²⁾، فقام ينادي: «الأمان، الأمان».

من آيات الله الكبرى في حدث الهجرة، تلکم البشرى لسراقه بن مالك بلبس سوارى كسرى :

قام سراقه وهو ينادي الأمان الأمان، وقد وقع في نفسه أن هذا المطارد رسول الله ﷺ حقا، فاعتذر وسأل من النبي ﷺ أن يعفو عنه ويدعو له، فبشره النبي ﷺ بسوارى كسرى يلبسهما في يديه.

(1) راهق الشيء قاربه ومنه المراهقة إي قرب البلوغ.

(2) التريب من تربت يداك، أي كان حظها التراب كناية عن الخسران.

رجلٌ مطاردٌ وحيد، لا يملك أن يدفع عن نفسه بحسب الظاهر، يبشر من كان مطارداً له لا بفتح قريب هو فتح مكة، ولكن بفتح ممالك كسرى، إنها النبوءة المؤيدة، بشره بالسوارين في يديه اللَّتَيْنِ كَفَّتا عن رسول الله ﷺ الأذى، يدٌ تحمل السيف، ويدٌ تقود الفرس للوصول إلى رسول الله ﷺ، كَفَّهُمَا معاً فَحُلِّيتَا معاً، جزاء وفاقاً، وعرض سراقه على النبي الزاد والمتاع، فقال ﷺ لا حاجة لنا بزدك ومتاعك، ولكن عَمَّ عَنَّا الطلب، ورُدَّ عنا كل طالب من خلفنا، فقال سراقه: كفيتم، فرجع أدراجه لا يجد طالبا إلا رده؛ يقول كفيتم هذا الوجه، ليس هنا من أحد، وسبحان الله العلي العظيم، سبحان مقلب القلوب، يبدأ سراقه يومه جاهداً عليهما لينالهما بأذى، فيتحول مساءً إلى مدافع عنهما حارس لهما، يرد الطلب، إن ذلك من جنود الله غير المرئية، جند القلوب المؤيدة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [104-105].

هَذَا الْبَلَاغُ الْقَوِيمُ عَلِيدٌ ﴿[الأنبياء: 104 - 105].

دعاء ورجاء:

اللهم انصر عبادك المؤمنين المجاهدين، وأيدهم بجند غير مرئية، واربط عليهم وعلى قلوبهم برباط اليقين والمعية، وافتح عليهم بأسباب التمكين القوية، اللهم عليك بالظالمين، اللهم فل حدهم، واكسر جندهم، وأقل عددهم، واجعلهم آية وعبرة، ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، وارفع اللهم مقتك وغضبك عنا، اللهم غوثك للضعفاء، وسندك للبؤساء، وحقنك للدماء، يا رؤوفا بالعباد، يا من عليه الاعتماد، لطفك ورحمك، اللهم عجل بالفرج والنصر القريب، يا سميع مجيب، ربنا ظلما أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من

الخاسرين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا
غِلًّا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم، سبحان ربك رب العزة عما يصفون
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.



(6) تجليات السنن الإلهية في أحداث الهجرة النبوية

عظمة أي ذكرى في الدروس المستفادة منها، والمعاني المجسدة لها، والتي ينبغي أن يعيها المنتسبون، ويرعاها المحبون، وذكرى هجرة رسول الله ﷺ التي لا تزال مع دلالاتها ومعانيها وما ينبغي أن يوقف عنده منها، من ذلكم ما يلي:

أولا - من سنن الله في الوجود أن المبادئ لا تموت؛

لا تموت المبادئ ما دامت تستمد وجودها من الحق المستقر في كينونتها، وفي كينونة الوجود فطرةً وأصولاً ميزان، يقول تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 5]، «والسمااء رفعها» فلن يصل إليها أحد، ولن تمتد لها يد التغيير، «والسمااء رفعها ووضع الميزان»، أي وضع الميزان في الأرض متى ما اختلت الأوضاع، فبين يدي الناس الميزان، ميزان المبادئ يرجعون إليه لتستقيم الأرض وأوضاعها، يقول تعالى: ﴿بِأَفْهَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيبًا فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ والزم فطرة الله، فالدين يستند إلى الفطرة في أصولها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 29] كما أنه «لا مبدل لكلمات الله» كلمات الله المبادئ الحق، وتستند إلى الحق، فهي باقية ودائمة.

ثانيا - كتب الله لكل دعوة تحرير أن يُقيض لها نصير؛

إن حملة المبادئ وإن عدموا نصيرا في ديارهم، وفقدوه بين أهليهم، فأنها تلك المبادئ واجدة يوما ما نصراء يموتون لتحيا، ويفنون لتبقى، مصداقا لقوله ﷺ: ﴿إِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ٩٠، وَلَكُمْ الَّذِينَ هَدَىٰ فِيهِدِيهِمْ إِفْتِدَاءً [الأنعام: 90، 91]، وأستغفر الله من كلمة «يموتون لتحيا»، بل على وفق

ونستفيد هذا مما كنا قد وقفنا عنده مما تصنعه الصلة بالله والثقة بما عند الله ﷺ، واليقين في الكون في صحبته ومعيته الخاصة المستفادة من قول رسول الله ﷺ

لصاحبه مما لقنه الوحي: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾⁽¹⁾، هذه المعية مفتوحة ومبدولة لكل من مد يده إليها، وآتاها من بابها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَفْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 13]، فهي معيةٌ بشروطها، ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: 36] «والله معكم»، كلمة تنتهي معها كل الأحران، لأنها تسلب كل افتتان، وتحقق غاية الضمان، حتى في أحلك الظروف وأشدّها وأعنفها، وتبلغ هذه المعية إلى أن تصل إلى مقام الولاية حيث يتولى الله من يصحبه كلاً لا جزءاً كما عبر عن ذلك حديث الولي في صحيح البخاري: حيث قال تعالى: «كنت سمعه الذي يسمع به» أي فإذا أحبيته توليته، كنت سمعه، كنت بصره، كنت يده، كنت عند كلمته، «ولئن سألتني لأعطينه ولإن استعاذني لأعيذنه».

ذكر الأبواب الموصلة إلى معية رب الأرباب المستفادة من آية المعية:

إن المؤمنين في حاجة دائمة إلى صحبة الله ومعيته، ونحن في ظروف أشتدت فيها هذه الحاجة وتأكدت فيها هذه الضرورة، فوجب علينا أن نبحث عن أسبابها، وأن نطرق أبوابها.

وها هو ديننا الحنيف ينادي علينا: دونكم آيات الله المفصلة لأسباب هذه المعية⁽²⁾؛ إقامة الصلاة بشرطها تحقيقاً للصلة، وإقامة للذكر الدائم، وإيتاء

(1) سبق بعض البيان في الفقرة التي بعنوان: «غار ثور مستودع مصير رسالة الختم».

(2) يقول تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَفْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 13].

الزكاة كفالة وولاية للضعفاء من المؤمنين في ديار الإسلام، وتعميق الصلة الحميمة بين ذات وذات من ذوات أهل الإيمان، «وآمنتكم برسلي وعزرتموهم»، تقوية الإيمان بمبادئ الوحي المنزل، وتعزيز للرسل المنزل عليهم بنصرتهم ونصرة الحق الذي جاؤوا به، وإقراض الله القرض الحسن، وهو البذل غاية لكل مقصد نبيل وغاية، البذل فوق الزكاة، وفي المال حق سوى الزكاة كما قرره أئمة الإسلام.

البذل والتضحية، والصلة القوية بين الله والناس في إقامة الصلاة، وبين الناس بعضهم مع بعض في كفالة بعضهم لبعض، «وقال الله إني معكم لئن»، متى ما أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة وآمنتكم برسلي وعزرتموهم - والتعزيز نصرة - آمنتكم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار.

من لطف الله بنبيه أن هياً له بالمدينة قوم ينتظرونه بغاية الاشتياق، بعدما أخرج من مكة بغير إشفاق؛

نقرأ في سيرة رسولنا ﷺ هذه المفارقة التي تدعوا إلى الاستغراب، قوم بمكة - مشركو مكة - أخرجوا الإيمان من بينهم، فأخرجوا سيدنا رسول الله ﷺ رمز الإيمان، طردوا الخلق الكامل النبيل من بينهم حين بيتوا اغتيال النبوة الخاتمة، وفي الضفة الأخرى، حيث المدينة، آخرون تبوؤوا الإيمان قبل أن يقدم عليهم، فهم لمقدمه متطلعون، وبطلعته مبتهجون، هؤلاء ينتظرون رسول الله ﷺ بغاية الاشتياق، وهؤلاء أخرجوه من بينهم بغاية الايباق بغير إشفاق، نقرأ في هذا حقيقة قول القائل: «كم صاد في اللجة»⁽¹⁾.

(1) مثل يضرب لمن يضيع الفرص ويهدر الطاقات، ولا يلتفت إلى ما حوله من إمكانات، والصادئ هو العطشان، بمعنى كم من عطشان وسط الغدير والماء من بين يديه ومن خلفه.

فها هو أبو جهل وأبو لهب وأضرابهم، وهم من جيران رسول الله ﷺ في الدار، ولكنهم محرومون من سر الجوار، وها هو سيدنا سلمان الفارسي قادم من بلاد أصفهان، من هرمز يشد الرحال، ويحث الخطى، ويتحمل الأعباء في رحلة الوصال إلى سيدنا رسول الله ﷺ، قال ﷺ فيه: «لو كان الإيمان بالثريا لبلغه أناس من فارس»، أي من مثل سلمان؛ وفي هذا تمجيد من رسول الله ﷺ لأصحاب الهمم العالية، أصحاب الهمة التي لا ترضى بغير القمة، أصحاب الإصرار على الاستعداد للأخذ بكل الأسرار لأجل نيل مقام الأبرار، «لو كان الإيمان بالثريا لبلغه ناس من فارس».

وفي بيانٍ لحقيقة المتلقي لأنوار الهدى، والمصروف عنها إلى حيث الهلاك والردى، يقول ربنا ﷺ في وصف نوره: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾ [النور: 35] ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نور هداية الله في غاية الإمتداد، يصل مداه إلى السماوات والأرض، «نور السماوات والأرض» فنور هداية الله في شساعته بلغ أوسع مداه، وفي قوته بلغ إلى غاية الظهور، وتضافر أسباب النور، لقد كان نورا على نور، «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها»، هذه الأوصاف تبين لنا أن نور الله في مداه يصل إلى سعة السماوات والأرض، وهو في قوته تتضاعف أسباب النور فيه، فلا حجة لمعتذر بكون النور خفيا، ولكن الحجاب حجاب الذات، وحجاب النفس؛ حجاب ظلمتها الذي يصرفها عن كمال الهداية، ومن ثم جاء في آية النور نفسها قول ربنا ﷺ: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، فاستثنى

(1) هذه الآية من مقاطع روض الإلهيات وسماها الشيخ حفظه الله «مقطع الأنباء من آية المشكاة»

المعرضين والمنافقين وعشاق الظلام، وهؤلاء هم الذين قال تعالى في حقهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْهِ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٣٨﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْفِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْفِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ بِهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٣٩﴾ [النور: 38 - 39]، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، اللهم لا تحرمننا من نورك يا مولانا، اجعله في قلوبنا وفي أسماعنا، وفي أبصارنا ومن بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، ومن فوقنا ومن تحتنا، واجعله نبراساً إلى الصالحات التي ترضيك عنا، آمين آمين، والحمد لله رب العالمين.

من بصائر الكتاب المبين أنه مع قاعدة «وان كنا لمبتلين» قاعدة «وما كنا عن الخلق غافلين»

من بصائر الكتاب المؤيدة، وبيناته المسددة، ما أبانه قوله ﷺ: ﴿فَدَخَلْتُ مِن قَبْلِكُمْ سُنَّ قَسِيرٍ وَأَمَّا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْفُؤْمَ فَرحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ١٤٠﴾ وَلِيَمَّحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَّحَقَ الْكَاذِبِينَ ١٤١﴾ [آل عمران: 137-141]، صدق الله العظيم.

إن لله سننا قدرية ماضية في الناس، كل الناس، في الأمم، وفي الدول، وفي الشعوب وفي الأفراد، سنن لا تتخلف، ترتبط فيها الأسباب بمسبباتها قدرا، والنتائج بمقدماتها أمرا، إن لله سننا في الابتلاء: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: 30]، ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ [الأنبياء: 35]، وسننا في المدافعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ

بِبَعْضِ لَبَسَاتِ الْأَرْضِ ﴿البقرة: 249﴾، وسننا في التولية: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 130]، لله سنن في الإملاء وسنن في الاستدراج، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١١٠] وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدَ مَتِينٌ ﴿[الأعراف: 182-183]، تمهيدا لظهور من يشاء الله ظهوره بأسباب النور، وتخليدا لمن شاء الله تخليده بوسم الشهادة، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَذَاِهُابِئِنَّ النَّاسَ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140]، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [١١٠] والله في خلقه شؤون، شؤون يُبديها ولا يتبديها؛ أي قد تقرر الكل في علمه السابق، وله في كل يوم شأن منها، يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، وينصر ويكسر، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

من سنن الله في تصريف شؤون الخلق، أنه يمهل ولا يهمل، وله في ذلك حكم وأسرار:

ولله في كل ذلك حكم عالية، وأسرار سنية، تدق عن أعين الذين لا يعلمون، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١١٠] يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰلِبُونَ ﴿[الروم: 3 - 6]، وصف الله علمهم بعلم الكساد.

من هذه الحكم إقامة الحجة بالإملاء والإمهال، يقول صلى الله عليه وسلم وعلى آله: «إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم»، إن الله لا تعجله الأشياء، ولا ينفعل، ولا يتغير، لأنه الحق، والحق ثابت في نفسه، لا تبديل لكلمات الله. ويقول تعالى موصيا نبيه أن يكون على مثال هذا الخلق: ﴿قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾ [الأحقاف: 34]؛ أي لا تطلب عجلة العذاب لهم، لأن لهم حين يروا مايوعدون عذابا فوق العذاب الذي قد تستعجله لهم.

من حِكَمِ اللَّهِ في الإمهال اختبار يقيّن المؤمن في ذي الجلال:

ومن الحكم العلية للإمهال، امتحان المؤمن في ثقته بوعد الله نصراً، وعاقبة وظهوراً، واختبار صبره في الاستثناء بعدوه، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمَتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12]، يقولون: أين النصر الموعود؟ لأنهم لا يوقنون، وهؤلاء الضعاف مخذولون، يقول تعالى لنبيه: ﴿بِأَصْبِرْ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لِآيَاتِنَا يَأُولُفُونَ﴾ [الروم: 59] وعد الله بالنصر حق، فلا يستخفّنك الذين لا يوقنون بالنصر، ويقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11]، «إلا بإذن الله» أي بعلمه وبعد إذنه، «ومن يؤمن بالله يهد قلبه»، يهديه فيطمئنه.

من حكم تصريف الله في المقادير أن يتهم المؤمنون أنفسهم بالتقصير:

ومن حكم الله الخفية في مثل هذه المقادير، اتهام النفس بالتقصير، لمراجعة المواقف، والبحث عن مكان الضعف ومواطن الخلل لتداركها وجبرها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَكُمْ مَّصِيبَةٌ فَدَأْتُمْ مِثْلَيْهَا فُلْتُمْ أَبْنَىٰ هَذَا قُلُوبُكُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 165]، «أولما أصابتكم مصيبة»؛ أي في غزوة أحد، «قد أصبتم مثلها»؛ أي في معركة بدر الكبرى، «قلتم أنى هذا»، كيف لا نتصر في أحد كما انتصرنا في بدر؟ «قل هو من عند أنفسكم»، من تقصيركم، راجعوا مواقفكم، راجعوا السنن التي يخضع لها الوجود كله.

من حِكَمِ اللَّهِ في أقضيته أن يتعبد المؤمنين بالصبر:

الصبر لحُكْمِ اللَّهِ يقينا بما أجرى عليه سننه في قضائه وقدره، هو من الحِكَمِ والمقاصد، وهو؛ أي الصبر والرضا، يعتبر إيمانا وبصيرة، وهو مفتاح النصر لا محالة، فالنصر مع الصبر كما صح عن سيدنا رسول الله ﷺ، وذلك يحفظ

على المؤمن يقينه وقوته من أن يغتالهما الجزع والأسى والإحباط، وأن يفت في عضض عزمه، ويُقَعِّده عن استجلاب النصر بالاجتهاد، ويفقده القدرة على التعامل بالكياسة في التعاطي مع الأمور، ومعالجتها ومدافعة الأقدار بالأقدار، ذلك أن الإحباط والتصدع، والاهتزاز والضعف والوهن، ثمرات مُرَّة للاستعجال وطيش الانفعال، يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 21-22]. وَلَا تَقْرَحُوا بِمَاءِ أَبِيكُمْ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ مُحْتَالٍ وَخَوْرٍ [الحديد: 21-22].

أعداء الأمة لا يتوقفون عن كيدهم:

نقرأ في راهن الفواجع من البيانات ما يصدق الآيات، إن عدونا يجتهد وباستماتة، في أن يحول بيننا وبين أسباب الوجود، لأنه عدو مبادئ لا خصم مصالح، يقول تعالى: ﴿لَا يَأْلُوَنَكُمْ حَبَالًا وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]، يعمل العدو على إضعاف الوجود بإثارة الخلاف، وتعميق الجراح، وزرع أسباب العناء، إن الفتن التي يعيشها المسلمون كلها من ورائها هؤلاء الملاحين.

عمل أعداء الأمة ضد التقاء الصحوة الإيمانية والثروة البانية الذي هو شرط نهضة الأمة:

أخوف ما يخاف خصمنا المبدئي، أن تلتقي الصحوة الإيمانية بالثروة البانية، ذلك أن الثروة سند الصحوة، تحقق مقاصدها، وتنفذ برامجها، وتحميها من الضياع، وتضع من بين يديها ومن خلفها سياجا يذود عن مقامها ووجودها، وهم؛ أي الخصوم والأعداء، لا يريدون للأمة أن تصحو، وإن وجدت صحوة فيريدونها بلا سند، يريدون جماعة من المؤمنين الضعاف، الذين لا حول لهم

ولا قوة من نظم ومؤسسات في ميادين الحضارة، كما أنهم يحرصون على أن تكون الثروة بلا عقيدة ولا وحي، ونحن نقرأ في كتاب ربنا: ﴿إِنْ يَشْفَقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة: 2]، «وودوا لو تكفرون» فتفقدون المدد الإيماني المرشد والمُسَدِّد. ولا صحوة مع ظلمة الكفر والارتداد.

ولذلك جاء التعبير القرآني بلفظ: «وودوا لو تكفرون»، تلك أمنيتههم وغاية رغبتهم ومحور اهتمامهم، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 101]، ومع الغفلة عن الأسلحة والأمتعة ضياع الثروة التي هي سند الصحوة.

قراءة في راهن الفواجع والمواقع:

نقرأ في راهن الفواجع، وتداعي الأكلة على القصعة، ممثلة بتحالف الأمم عن صدنا عن وجودنا الاعتباري والمادي، باستنزاف قدراتنا وإمكاناتنا، وما نمثله من القوة في الوجود بوحدتنا، وما تمثله مواقعنا في الوجود من ثروات.

الوهن الذي أصاب الأمة نتيجة للفراغ العقدي وللترويج لثقافة الاستسلام:

أخبرنا سيدنا رسول الله ﷺ أن وضع الوهن في قلوبنا محصلة للفراغ العقدي⁽¹⁾، ونتيجة للترويج لثقافة الاستسلام والقبول بالأمر الواقع، وهو الذي أطمع عدونا فينا، وجرأه علينا، أضف إليه الوجود السرطاني لغدد الاختراق،

(1) في إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت» [سنن أبي داود: 4297].

ممثلة في تجار الذمم ومن لا خلاق لهم، الذين يمكنون للعدو في ديار الإسلام، يقول تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْهِنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47] ويقول تعالى: ﴿بَقَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْقُتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ [المائدة: 54].

في ثانية الزهراوين (سورة آل عمران)، درر بهية، نقرأ فيها آيات كاشفة كأنما تنزلت، الآن وهذا من أسرار خلود هذا الكتاب، جاءت هذه الآيات معقبة على أحداث موقعة أحد وما تلاها من موقعة حمراء الأسد، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا دَلَّكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175] وَلَا يَحْزِنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ (المُثَبِّطَة)، الذين يُفُتُّونَ فِي عَصْدِ الْأُمَّةِ بِتَشْيِيطِ الْعِزَائِمِ، ونشر ثقافة الهزائم ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَاءً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 176] إِنْ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 177] وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: 178] مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 175 - 179] صدق الله العظيم.

توسلات وابتهالات:

اللهم نور قلوبنا ببصائر آياتك، وشرح صدورنا للمتزل من برهان الإيمان بك، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا أبدا ما أبقيتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا

أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا،
 اللهم وَحِّد صفوف المؤمنين، وأصلح ذات بينهم، واهدِهِم سبيل النجاة، وأزل
 السخائم من صدورهم، واجعلهم يداً واحدة على عدوهم، اللهم رد بنا إليك رداً
 جميلاً، اللهم رد بنا إليك رداً جميلاً، وعد بنا إلى شريعتك الضامنة للحقوق،
 والمزيحة لكل أشكال العقوق، اللهم بشرنا بالنصر القريب، يا سميع يا مجيب،
 برحمتك يا أرحم الراحمين، اللهم نصرك للمستضعفين من المؤمنين، وعونك
 للمخلصين من حماة الدين، اللهم من أراد بالإسلام خيراً فوفقه لكل خير، ومن
 أراد به سوا ذلك فعرضه للمهالك، واكفناه بما شئت يا عزيز يا مقتدر، يا عزيز
 يا مقتدر، يا عزيز يا مقتدر، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من
 الخاسرين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا
 غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم، سبحان ربك رب العزة عما يصفون،
 وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.





المحور الرابع:
تدبرات في قصار المفصل
الذي خُصَّ به النبي المفضل



تدبرات في قصار المفصل الذي خُصَّ به النبي المفضل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

1- «سورة «التين»»،

أو القسم المبين والسر المكين في سورة التين؛

فضل مدارس القرآن والاجتماع عليه في شهر تنزيله؛

أحمد الله إليكم الذي بلغنا رمضان، وأعانا فيه على مراده وهو المستعان، له الحمد في الأولى والآخرة، ملء السماوات وملء الأرض وملء الأكوان.

إلى القرآن ومع القرآن في شهر تنزيله، احتفاءً به في ظرفه السعيد، وشكراً لله الحميد المجيد، على نعمة تخصيصنا بأنوار هدايته، المخرجة لنا من الظلمات إلى النور، وإحياءاً للروح بتجديد صلتها بهذا النور الذي هو هداية الله وصراطه المستقيم: ﴿فَدَجَّاءَ كُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۖ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ ابْتِغَىٰ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 17 - 18].

والتماساً منا لبركات هذا الذكر التي لا حد لها، ممثلة في تنزل السكينة على أهله، وإزالة الرحمة للمجتمعين على مائدته، وحفوف الملائكة بهم، وصلاة الله عليهم، المخرجة لهم من الظلمات المهلكة، مصداقاً لقول نبينا: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»، اللهم اجعلنا من المذكورين عندك.

مقاصد إنزال الكتاب إلى النبي الأواب

ولنبداً بآية المقاصد التي تنبئ على أن شهر القرآن وشهر الصيام، خص بأجل عبادة، لأنه أجل نعمة؛ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1]، أعظم نعمة حمد الله بها وعليها هو هذا الكتاب الكريم، وآية المقاصد في الذكر تنبهنا إلى أن الكتاب نزل ليحفظ، وليتدبر، وليذكر به، وليعمل بآياته، ويدعى إليه، وكلها وجوه متراقية متنامية لإنزال الكتاب، يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص: 28]، فمن مقاصد إنزاله تدبره وتفهمه، واستخراج أسرارها، وتحصيل الذكرى منه، والوقوف على إعجازه وبيّناته وآياته، وسلامته من الاختلال، وتماميته صدقاً وعدلاً في المضامين والموازن، ولذلك وبخ القرآن المهملين لهذا الشأن فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 25]، أعموا فلم يتدبروا القرآن؟ أم على قلوبهم أقفال حجبها وظلمتها، التي منعتها من الاصغاء لبيّنات الكتاب. ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 69].

وإننا نروم بهذا الذي نحاوله التعريف بهذه المقاصد وتقريبها، وتكرار التنبيه عليها، لغرض الإحياء بمدد الذكر، الذي هو كغيث السماء المحيي لأرض القلوب، لأن الله ﷻ شبه وحي السماء بغيث السماء ومطر السماء، فكلاهما منزل، وكلاهما رحمة جُعِلَت للإحياء، اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور بصائرنا، وجلاء حزننا، وذهاب همنا وغمنا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

مدارسة الكتاب في رمضان سنة نبوية لتحقيق مقاصد عليّة :

من البين أن شهر التنزيل أنسب فرصة للاحتفال بهذا الذكر، وأقرب مقام للاشتغال بمقاصده، وأوجب زمن لامثال أوامره والانتفاع بأنواره وأسراره،

ولذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ - وهو أسوتنا - يَخُصُّهُ بِمُدارسة عليّة مع روح القدس سيدنا جبريل عليه السلام، كان يُدارسه القرآن، ولا ندري كيفية هذه المدارس العلية، وإن جاءت إشارة بخصوصها في بعض السنن السنية، بأنه كان يعرض عليه القرآن في كل رمضان، ولكن كيف سيكون عَرَضُ رسول الله ﷺ على ملك الوحي الأمين، عَرَضُ من الروح على الروح؟! لا شك أن فيه قسما يرجع لتعهد المحفوظ ولتدبره غاية، وللتأثر به إلى النهاية، ليكون مدخلا للدعوة إليه بتمام الرعاية، والرد على مطاعن البغاة، والكشف عن آياته بما فتح الله على نبيه من معارف.

سر الاختيار للسور القصار هو إسعاف جمهور المسلمين بما يكون لهم عوناً على فهم معانيه :

قد اخترنا في هذا الذي تيسر، أن نتدبر قصار السور من المفصل، الذي فضل به النبي المبجل، ﷺ، قال عليه السلام: «وَفَضَلْتُ بِالْمَفْصَلِ»، وقصاره من سورة «الضحى» إلى سورة «الناس»، وذلك لأسباب مرجعها وسرها أن الجمهرة الكاثرة من المسلمين يحفظون هذه القصار، ويقرؤونها في صلواتهم، فلا بد من إسعافهم ببعض ما هو عون لهم على الذكر، واستحضار المعاني التي بها الارتقاء في درج المثاني في صلاة العروج، التي جعلت إقامتها للذكر، لقوله ﷺ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 13]، أي لتذكرني فيها بأجل ذكر، ومن أجله، بل أجله على الإطلاق هذا الكتاب.

لا يليق بالمؤمن أن يقرأ القرآن بلسان فصيح وعقل أعجمي :

فلذلك لا يحسن أن يقرأ الإنسان القرآن بلسان فصيح وعقل أعجمي - أو أعجمي -، لا بد من فتح العقل بمفاتيح المعرفة، لِيُسَايِرَ القراءة، وقراءة المدارس والتدبر قراءة تعينك على حضور الذكر في صلاة العروج، حتى ترتقي بها إلى

ما شاء الله لك من كمالات، وقد نعى القرآن على الذين لا يتدبرون وبالتالي لا يحصل لهم الأثر المرجو من القرآن بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 25].

عدة قصار المفصل مع فاتحة الكتاب المنزل:

وسور المفصل عدتها ثلاث وعشرون سورة، من «الضحى» إلى سورة «الناس»، ويضم إليها الفاتحة، وهي من قصار المفصل، وهي سيدة هذه القصار، بل إنها أعظم سور الكتاب على ما نبه عليه النبي المختار ﷺ.

أصول المعاني الواجب استحضارها عند قراءة الفاتحة وخصوصاً في الصلاة:

ولنبداً بأم القرآن إجمالاً فنقول: إن سورة الفاتحة ينبغي أن يُستحضر منها - استعانة بهذا الفهم على الحضور لقراءتها المتكررة - أنها متضمنة لأمر عوالم منها:

أولاً: التعريف بالله:

جاءت الفاتحة للتعريف بالله أولاً، التعريف بالله المحمود، وبيان موجبات حمده، من كونه رباً للعالمين، ورحمناً رحيماً، وملكاً ليوم الدين والجزاء، فلا تضيع عنده مثاقيل الذر، الموجد الممدد الممد.

ثانياً: بيان وجه الصلة بالمُنعم ﷻ وأنها صلة حب وحمد:

ترشد سورة الفاتحة إلى أن صلة العباد بالمُنعم عليهم، يجب أن تكون صلة حب وحمد، فيعرفون الله رباً بَرّاً بعباده، رحماناً رحيماً، وملكاً في يوم الجزاء، فلا يضيع سعي أحد لديه، ومن دون هذه المعرفة لا يمكن أن يكون هناك ثناء

ولا ولاء ولا دعاء⁽¹⁾، لا يمكن أن تحمد الله وتشني عليه وأنت لا تعرف إحسانه إليك، ولا يتحرك قلبك بنبض حب إزاءه وأنت غافل عن رحماته الواصلة ترى منه إلى الوجود كله، أحياء وأشياء. وهو ما ترشد إليه عبارة: «الحمد لله»، لأن الحمد في المحمود كماله، والحمد من الحامد عنوان جلي لحبه لمحموده.

ثالثا: التعريف بالواسطة بين الله وخلقه ومرجع الصلة بهم:

من أجل المعاني التي تضمنتها هذه السورة الكريمة، هو التعريف بالواسطة في وصول الدين إلينا، في إجابة عن سؤال: من الذي عرفنا بالله؟ ومن الذي نزل إليه كتابه وكلمته؟ إنهم رسل الله وأنبياءه، وخاتمهم المصطفى ﷺ، وهم أجل من أنعم الله عليهم بالهداية، فلذلك ذكر في الكتاب ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 5 - 6] وأجلهم المصطفى ﷺ، أما صلتنا بهم فهي صلة الاقتفاء والافتداء والوفاء، وذلك بالصلاة والثناء عليهم، والسير على طريقهم والنسج على منوالهم.

رابعا: إرشاد الراغب إلى أشرف المطالب:

ترشد فاتحة الكتاب العظمى إلى أن المطلب الأعلى والأعلى، هو الهداية إلى طريق أهل الولاية، لنكون محلا للعناية والرعاية، وننال المنزلة العلية التي نُصان فيها من تنزل قدر الشُّقوة ضلالة وغواية، إفراطا وتفريطا؛ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

فاستحضر أخي المومن وأنت تقرأ الفاتحة أنك تتعرف ربك، فتعرفه

(1) تنقسم سورة الفاتحة إلى ثلاثة مقاطع، وهو ما يقف عليه المغاربة بحسب الوقف الهبطي:

المقطع الأول: مقطع الثناء على الله.

المقطع الثاني: مقطع إعلان الولاء لله عبادة واستعانة.

المقطع الثالث: مقطع الدعاء والرجاء في الاندراج ضمن المنعم عليهم من خيار خلق الله.

وتتقرب إليه بالحمد، لأنه فعلا المنعم بكل المنن والأنعم، وأن صلتك به صلة عبادة واستعانة، فكأنك تكرر لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، تستعينه على ذات العبادة التي هي صلتك به، والتي لا معنى لها بغير حمد، فالعبادة عين الحمد، والذي لا يدري معنى الحمد لا يعرف وجهها للعبادة، قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ بَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 63].

ثم تذكّر ثانيا الواسطة في الهداية، أولئك الذين حملوا إلينا شريعة ربنا، سواء بالأصل، وهم الأنبياء وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ، أو وراثته كالصحابة والآل ومن بعدهم من حملة الذكر الحكيم، تقول: «اهدنا صراطهم» لتشعر بالأنس، وأن الطريق عامرة، وإن خلت الآن فهي عامرة بالسابقين، ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، الذي لا يميل إلى غضب أو ضلال، لا إفراط ولا تفريط، لا غلو ولا خلو.

ثم ليكن هذا هو المطلب الأعلى والأوكد، وغاية الغايات التي تنفق فيها جهدك ووكدك، وكل ما بيدك، هدايتك إلى صراط الله التي تبتدئ بالمعرفة وتنتهي بالتحقق بكمال الصفة.

قصار المفصل بدئت بقسم التمكين، وختمت بتلقيّن التحصين، وبينهما آيات التبيين؛

بُدِئَتْ قِصَارُ الْمَفْصَلِ بِسُورَتِي «الضحى والشرح»، وهما سورتان كالسورة الواحدة، تنبئان عن مقام رسول الله ﷺ من ربه جل في علاه، وأنه عنده بالمكان المكين، تخصيصا بكمال الإحسان وتمام الاجتباء، في فترة الإرهاص وزمن الاختصاص على سواء، ﴿وَالضُّجَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَافَلَىٰ ۝ وَلَا آخِرَةَ خَيْرَ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝﴾

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرْ ﴿٦﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿﴾ [سورة الضحى]، «ما ودعك ربك وما قلاك»، «وللاخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك»، «ألم يجدك»، يقول القرآن للنبي ﷺ: لقد خصصك ومنحك العطايا الكبرى، ومدحك ويسرك ليسرى، وزاد فشرح لك الصدر، ووضع عنك الوزر، ورفع لك الذكر.

فكان أن جاءت هاتان السورتان لتجلية مظاهر عناية الله بالنبي الكريم، وأنه عنده في مقام المحبوبة، فهو محبوب لديه، ما ودعه وما قللاه، بل هو موصول بالمدد الذي لا ينقطع؛ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: 3]، إلى وعده بتواتر الخير إليه، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1]، شواهد بسبق المنن ولحوقها، إلى الختم بآية الأمل: ﴿بِإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5؛ 6].

توحيد القصد وبذل الجهد مفتاح اليسر وتحقيق الوعد:

وفي هاتين السورتين بيان تتويج النبي ﷺ بهذه الألوان من ألطاف الكرائم والمنح، وإعطاء أتمه مفتاح الأمل: «فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا»، ما دامت باقية على خط هذا الأمل من توحيد القصد، وبذل الجهد، ﴿بِإِذَا بَرِغْتَ بَانْصَبْ ﴿٨﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 7، 8].

إن مفتاح اليسر الموعود به هو أن ينتقل المؤمن في حياته بعد ما يفرغ من عبادة وعمل وخير، إلى افتتاح عمل آخر، لتكون الأعمال موصولة بعضها ببعض، واصل العمل، وكن على خط الأمل، ووجد قصدك، وإلى ربك دون غيره فارغب، أمل فيه وارز منه، وكن منتظرا لعطائه ورفده.

إن توحيد القصد في مقام التوجه، وبذل الجهد غاية في مقام السعي، هما سر البقاء على خط الأمل، وتواتر الميسرة بعد كل معسرة، وتوالي التفريح بعد

كل تحريج، ﴿بِإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿بِإِذَا بَرَأْتَ مِنَ الْعُسْرِ﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿[الشرح: 5 - 8].

وبعد هاتين السورتين اللتين هما سورتي ثناء على رسول الله ﷺ ينتقل القرآن إلى سورة «التين»، سورة القسم الإلهي العلي بالأمكان المقدسة، بعد القسم بالضحي، الذي هو قسم بالزمان وسر اختلافه، يأتي القسم بالتين وبالزيتون وبطور سنين، وبالبلد الأمين، قسم بهذه الأمكنة وسر قدسياتها على ما سننبه عليه. ثم ختمت «أي قصار المفصل» بسور تحصين؛ أي بالمعوذات بدءاً من ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وانتهاء بسورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وهذه سور تحصين لسيدنا رسول الله ﷺ ومن سار على نهجه ووالاه من كل كيد وضُر، ومكر وشر، تحصنا بالله الأحد الصمد، من شر كل فتنة ووسوسة، ومن كل ضرر وحسد.

«سورة التين»، سورة القسم المبين بالأمكان المقدسة وسرها المكين:
بين التمكين والتحصين، تجيء سورة القسم المبين بالأمكان المقدسة وسرها المتين، في قوله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالَّتِي وَالزَّيْتُونَ﴾ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَفْذَ خَلَفْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿[سورة التين].

أربعة أقسام على خلق الإنسان في أحسن قوام ونظام؛

في هذه السورة الكريمة أقسامٌ أيما⁽¹⁾ أربعة على شيء واحد، وهو خلق الإنسان في أحسن قوام ونظام؛

قسم بالتين وقسم بالزيتون، وهما قسم ببعض آثار القدرة، على القول

(1) أيما جمع يمين.

بأن المراد بالتين الفاكهة المعروفة، وبالزيتون ثمر الشجرة المعروفة، وهذا أول الأقوال فيها، فكأنه يشير إلى آثار القدرة التي أخرجت من الطين، ومن الحمأ المسنون، ومن التراب الذي قد يسمد بالأرواث والأقذار، هذا الطينُ الأسودُ القذر، انشق عنه هذا اللون من ألوان الفاكهة بطعمها ورائحتها الزكية، ولونها الزاهي، وفيه توجيه نظر المتلقي إلى التساؤل حول من أخرج من الحمأ المسنون هذه الثمرات الشهية المصونة؟ إنه الله جل في علاه القائل في كتابه: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: 62]، لا إله إلا الله.

القسم بالتين والزيتون قسم بأحسن طعام وأجود إدام، وهما أساس النماء وحفظ القوام؛

القسم إذا على هذا القول من المفسرين بأجمع فاكهة؛ وهي التين وقد ذكر الأطباء أنه جمعت فوائد الفواكه كلها، وأجود غذاء، زيت الزيتون المستخلص منه، وبهذين يكون النماء وبقاء الصورة الحسنى فيك، إذ لا بقاء لصورتك وقوامك بدون مدد نماء، وهذا المدد العلي من أرض وجودك، لأن النشأة منها، ومنها غذاءك، فيها نماءك⁽¹⁾، وهذا التنوع بين الفاكهة والغذاء، يمنحك القوام والحسنَ ظاهراً.

ويرى بعض أهل العلم أن القسم بالتين قسم بمنبته، وهو قسم بمسجد نوح الذي استوت سفينته بعد الطوفان عليه ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: 44]، وكان جبلا ينبت التين، والقسم بالزيتون أي قسم بمنبته وهو المسجد الأقصى ﴿الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1]، كما جاء في الكتاب في سورة الإسراء، وهو مسجد الخليل الذي بناه بعد الكعبة.

(1) يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ثُمَّ نُؤْتِيهِ الْآيَاتِ لَمَّا كَرِهَتْ مُجِيبٌ﴾ [هود: 60].

القسم بـ «طور سينين» وبـ «البلد الأمين» قسم بمجلى أنوار التجلي ومشرق أنوار نبي الختم:

طور سينين هو مجلى أنوار التجلي، ﴿بَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ فيه تجلى الله الكريم لنبيه موسى الكليم، والبلد الأمين مكة مشرق نبي الختم صلى الله عليه وعلى آله.

فجاءت إذا هذه الأقسام بالأماكن المقدسة والأنبياء الأجلاء بدءاً بنوح عليه السلام، وانتهاءً بنبي الفتوح صلى الله عليه وعلى آله وبينهما سيدنا إبراهيم خليل الله وسيدنا موسى كليم الله.

قسم سورة التين، قسم مشوق ومؤثق:

يتساءل المتدبر؛ لماذا هذا القسم بالأماكن المقدسة والأنبياء الأجلاء؟ والجواب فيما نرى والله أعلم أنه قسم يشوق المتلقي إلى تعرف الحقائق والبيانات المقسم عليها، ويوثق ويؤكد حقيقة اتفاق الملل على تلكم البيانات، وهو أن الأديان السماوية كلها جاءت لتكميل الإنسان بالإيمان، ولرفعه بهذه الفطرة التي فطره عليها، والخليفة التي سواه الله بها.

لقد جاء المقسم عليه، وهو خلق الإنسان بهذا الكمال، الذي هو غاية تقويم واعتدال، بدءاً بصورته المتميزة، وانتهاءً بما جند به وخص به من الذكاء والفطرة، والسداد في التمييز بكمال النظرة، إن نفخة عليّة من سر الله وخاص عطائه سرت في أوصال الإنسان، فجعل منه كائناً خطير الشأن، ومن إكرام الله له أنه خلق مستقيماً على الفطرة، ثم عادت عليه العوادي، من البيئة الفاسدة، والتنشئة المفسدة، والصحبة رديئة، والثقافة البذيئة، فإذا هو يميل ويعوج وينحرف، ويسقط من العلي الرفيع إلى أسفل الحضيض الوضيع، قال عليه السلام: ﴿بِأَفْمَوْجَهَكَ

لِلَّذِينَ حَنِيبًا فُطِرَتْ إِلَهُهُ الَّتِي فُطِرَ النَّاسُ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[الروم: 29].

الجهل هو سبب كل فتنة وشر، ومصدر كل ظلمة وضر:

إن جهل الناس بحقائق الوجود وبيانات الدين، هو الذي جعلهم ينسون أنفسهم وحقيقتهم وربهم، فتفسد فطرهم، فيقتربون أنواع الآثام، ويرتكبون أصناف الإجرام، مما تقشعر منه الأجسام، فلماذا قتل الصبيان ووأد الصغار؟ ولماذا كتم الحقائق التي هي سر الأنوار؟ ولماذا هذ التظالم والسفك والسفح الذي يطال الأرض وأهلها؟ هذه سفالات مركسة، وصنوف من الإجرام مُهلكة، تُسْقِطُ الفطرة في الظلام، فتفقد جمالها وكمال قوامها، لأن جمال الفطرة الذي يبقى على كمالها وترتقي به هو صلاحها، وسلوكها سبيل الفلاح، أما إذا جف ينبوع الإيمان، وانقطع الذكر الذي هو مدد الرحمن، فإنها خاسرة لا محالة، وهذا معنى قوله ﷺ في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: 5، 6].

الشعور الإيماني، والعمل الصالح الباني، سبب لمدد الله:

وفي هذا الاستثناء في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، إشارة لا تُخطئها عين المتدبر، وهي فتح الباب للرجوع إلى الله رغم ما يمكن أن يطرأ على الفطرة من فساد، إن الشعور الإيماني، والعمل الصالح الباني، يمثلان رُكْنَيْنِ لاستمرار مدد الرحمن، «لهم أجر غير ممنون»، ولا مقطوع، يقال: مَنْ، إذا قطع، والأجر الممنون؛ الممدود المتصل، وهو إمداد الله للفطرة بما به كمالها هنا في الدنيا، وإيصالها إلى غاية رفعتها هناك في الآخرة خلودا في النعيم.

استفهام الاستنكار على أهل التكذيب والانكار:

ختمت هذه السورة الكريمة بهذين الجملتين ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْدِّينِ﴾ [التين: 7، 8]، استفهامين اثنين، الثاني منهما علة للأول، ذلك أن من ينكر الشريعة الغراء، أو يشكك في يوم الجزاء، يلزمه التكذيب بعدالة الله وتتمام حكمته؟ فما كان له ذلك؛ «أي المكذب» وقد وقف على هذه الحقائق في نفسه وفي الكون من حوله، من يملك أن يشك في عدالة الله؟ ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْدِّينِ﴾، أي شيء يدفعك إلى أن تكذب بالدين الذي هو الجزاء، أو بالدين الذي جاء لكمالك، إن لم تكن فتنك وضلالك، وجهالتك وانحلالك، فليس وراء التكذيب غير هذه المذكورات من الظلمات.

والله تعالى أحكم من حكم، وأعدل من قضى وأبرم، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾، بلى وأنا على ذلكم من الشاهدين، كما لقننا المصطفى ﷺ أن نقوله بإثر هذه الآيات ونظائرها.

ميزان الله لا يغفل وحكمته لا تسفل:

وميزان الله في العدالة لا يغفل مثاقيل الحب والذر والخردل، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَهْنًا بَنِي آحِسِينَ﴾ [الأنبياء: 47]، وقال ﷺ: ﴿بِمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 8 - 9].

والله خلق فسوى وعدل، وحكم وقضى وعدل، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الذئ: 1] ﴿خَلَقَكَ بِسُوِّكَ بَعْدَ لَكَ﴾ [الذئ: 2] ﴿وَيَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الذئ: 3] وفي أي صورة ما شاء ركبك ﴿[الانفطار: 6 - 8]، وعليه فالقسم في سورة «التين» بالمُنزل التام، أي برسائل الله المنزل، وهي كلماته على من تنزل إليهم الوحي، فيه إشارة إلى أنه إنما بعث الله

الرسول في الناس وإليهم، من أجلهم ولهم، من أجل تخليصهم وتخصيصهم؛
تخليصهم من الأكدار والظلمات، وتخصيصهم بالأنوار المسعدة لكي يرتقوا
إلى أعلى الدرجات، ﴿وَأذْكُرَّ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205].

وقفة عند سنة المجاورة:

كان رسول الله ﷺ فيما صح عنه يقول إذا ختم سورة التين: «سبحانك
اللهم فبلى»، كما في الترمذي أنه قال «إذا انتهى أحدكم إلى قول الله: أليس الله
بأحكم الحاكمين، فليقل: سبحانك فبلى»، وفي رواية: «بلى وأنا على ذلكم من
الشاهدين»، وفي هذا تقرير لمسألة مهمة، وهي أن القارئ ينبغي أن يكون عقله
مع مقروءه، وأن يكون متدبرا، فاتحا للوعي على الكتاب، مجاوبا للقرآن، كما
في آيات سورة النمل: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا
بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: 62] قل في
سِرِّكَ: «لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون»، ويجوز لك أن تقطع القراءة في
مقام التدبر، لتقول أو لتفهم وتتدبر، فسيدنا رسول الله ﷺ كان يصلي بالليل،
فما مر بآية رحمة إلا ووقف فسأل الله من فضله، وما مر بآية عذاب إلا وتعوذ
بالله منه.

سنة المجاورة تحيل على أننا في قراءتنا أو سماعنا للذكر، ينبغي أن نتعمق،
وأن نفتح الباب لمعاني أنوار الذكر، لتأخذ طريقها إلى باطن القارئ وباطن
المستمع، وذلك مصداق قول الله المجيد: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ذَا الَّذِي كَذَّبُوا عَنْكَ لَأَنَّكَ كَذِيبٌ كَلِمًا﴾ [ق: 37] القلب الحي اليقظ المذكر أو «ألقى السمع»
أصغى «وهو شهيد»، حاضر القلب، فخرج عن هذا ميت القلب بالغفلة والاعراض،

وكذلك الذي ألقى السمع ولكنه منشغل بأغراض وأمراض، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واجعلنا من أهل خصوصيتك.

المضامين المُرَكَّبَة في سورة «التين» المكية :

ونعود لنرسخ مستفاد سورة «التين» المكية، في مضامينها المُرَكَّبَة، بعد مقدمة جلية نقول فيها:

سورتنا ثالثة القصار - قصار المفصل - محلها في المصحف بعد سورتَي الضحى والشرح، وهما السورتان كالسورة الواحدة كما سبق، وهي؛ أي سورة «التين» سورة مكية، نزلت قبل الهجرة على سيدنا رسول الله ﷺ، عدُّ آيها ثمان آيات متفق عليها، لا مزيد عليها، سورة قسمية، أي من سور القسم في الكتاب، وهو قسم بشرف المكان على سر قدسيته، بعد القسم بشرف الزمان في «الضحى» وسر اختلافه.

وإذا كان القسم في «الضحى» على أجلّ إنسان، في باب كماله وتمامه، فإنه في التالية؛ أي «التين»، قسم على جنس الإنسان وقوامه؛ فالضحى قسم على إنسانٍ هو الذي نصبه الله لنقتدي به، باعتباره الكمال المطلق في عالمنا، والثاني قسم على الإنسان الجنس، «لقد خلقنا الإنسان» وقوامه، صورته المعتدلة، وفطرته السوية بقواها المتقابلة، لكي ينحو بها منحى الكمال.

والتنبيه بالقسم المحقق، على حقيقة الفطرة التي زُوِّدَ بها الإنسان، وأنها منسجمة مع الشريعة في أصلها، ومع الإيمان في كمالها «كمال الفطرة»، وأن وصولها معه - مع هذا الإيمان - إلى الكمال المقدر لها، ثم إن هبوطها وسفولها آت من انحرافها عن المنهج العلوي والمسلك السوي.

إن القسم على هذه الحقيقة يقرر مسألة غاية في الجلاء، وهي أن كل الأديان

متفقة ومؤصلة لما جاءت به الشريعة الخاتمة، فكل شرائع الله جاءت لتفيد هذه الحقيقة، وأن الأديان جاءت لتكمل الفطرة من أن تنحرف، ولتزكية الأنفس بالمنهاج المقوم المُعرّف، وهي كذلك في أصولها، وهذا الإسلام الخاتم مصدق لها في أصول الاعتقاد، وأصول المكارم التي ينبغي أن تُطلب، وأصول المحارم التي ينبغي أن تجتنب.

سورة «التين» جاءت لتؤكد عبر القسم العليّ أموراً ثلاثة غاية في الأهمية تبرز تصور الإسلام للإنسان في أصوله، ومصيره وسبيل وُصوله:

1. إن خَلَقَ الإنسان على الفطرة المُكَمَّلة، وتزويده بالاستعداد المُخلَّص، هو خلق الله السوي الذي خلق فسوى.

2. وإن تنزيل الشرائع هو من قَدَر الهداية المكمل لها.

3. التذكير بعدالة الله في الحكم والشرع، في الخلق والأمر، والمنة على الإنسان بهذا اللون من ألوان الاستعداد للكمال ليذكر فيشكر، ويصون قواه فيستقيم ولا يكفر، ويتعرف طريقه إلى الانعتاق، بدل التلاشي في الإباق والاحتراق، ﴿بِمَا مَنَّ آعْطَىٰ وَآتَقَىٰ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۖ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ فَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۖ﴾ [الليل: 5، 10]، ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 8].

خلاصة المستفاد وزبدة الاستعداد:

نخلص إلى أن سورة «التين» سورة جاءت تُذكر مؤكدة بأن هذا الإنسان الذي من جنسه كان هذا المبعوث الأكمل، هو الآخر تام القوام رفيع المقام، تلك صورته وتلك مكانته.

والحديث عن الإنسان الجنس، وأنه كان محل عناية الله، إذ حَسَنَ قوامه

جسداً وعقلاً وروحاً، وأحسن إليه بما به قيامه، يمثل عنايةً أخرى مؤكدةً بالقسم كما أُكِّدَتِ العناية الكبرى برسولنا صلى الله عليه وسلم وعلى آله في السور قبلُ. وجاء التأكيد بسر القسم بآيات بعضها - على القول الأشهر - من مواد النماء والارتقاء؛ فاكهة شجرة التين، وعصارة ثمرة الزيتون، والزيت هو الدهن الفاضل، كله بركة ونماء، وفيه أسرار وأنوار، والتين الذي هو أجل فاكهة بشهادة الباحثين في الأغذية، والله أراد أن يكون الإنسان في أحسن تقويم، وحتى يكمل ذلك جعل له من أرضه التي خلق منها مدد صورته، بأصل الغذاء وتمامه، طعاماً وفاكهة، وجعل كمال صورته سرا في باطنه، وسره وروحه مدداً من السماء يتمثل برسائل النماء - نماء الروح - لذلك جاء «وطور سينين»، البقعة المباركة التي تلقى موسى فيها الألواح مكتوباً فيها الهدى والنور، وجاء التمام في البلد الأمين، حيث تنزل الفرقان على صدر رسولنا ﷺ.

فالله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم في صورته وسره، جعل له المدد من أرضه وسمائه، لكمال الصورتين وبقاء السرين.

ثم إن سورتنا وهي تتحدث عن هذا الإنسان الذي أعطي هذا القوام التام، ترشدنا إلى أن سر البقاء على هذا الكمال، هو الإيمان الموصول بثمراته، وأولها العمل الباني، عمل الصالحات، فالإيمان إذا اكتمل ونضج أثمر ثمراته، وأنتج خُلُقاً ورفقاً وسلاماً في الوجود.

إن الإيمان لا يُراد لتنوير الباطن فقط، بل ليشع أنواراً وأسراراً على الوجود من حوله، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البينة: 7]⁽¹⁾، فاض إيمانهم

(1) جاء ذكر الإيمان مقروناً بعمل الصالحات بهذه الصيغة: «أمنوا وعملوا الصالحات» في القرآن الكريم في أربعة وخمسين موضعاً، مما يدل على أنه لا قيمة لإيمان لم يحمل صاحبه على أن يكون من أهل الصلاح.

على جوارحهم وعلى مناحيهم وعلى صلاتهم، فكانت الدنيا كلها بسبب وجودهم سعادة وخيرا.

وبالإيمان وثمراته، يتحقق للإنسان الذي خلق في أحسن تقويم المدد الموصول، فيخلد في الصالحين، ويخلد في النعيم إلى أبد الأبد، يقول تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: 6]، مدد الله إليهم غير منقطع.

ثم يجيء التساؤل من بعد في خاتمة سورة التين، ليقول للمُقبلِ عل هذا الكتاب بأنه بهذا الفهم فقط في آيات النفس، تنتهي خرافة التكذيب، والجدل بالباطل لدفع الحق، وبمثل هذا النظر في آيات النفس، يزهق الباطل ويتلاشى، وتتجلى عدالة الله الكاملة، وكونه أحكم الحاكمين، سواء فيما نزل من الوحي مدداً للسر، وما جعل في الأرض من مدد للصورة في كمالها ومقامها، ويتعري التكذيب، إذ لا سند له من منطق ولا تاريخ، ولا عقل ولا شهود، «فما يكذبك بعد»، بعد بيان هذه الحقائق، من الذي يدفعك إلى التكذيب؟ إلى الردة؟ إلى الكفر؟ إلى نفي الوجود؟ إلى الشرك بالله في استحقاقه وأهليته؟

وبهذا اللون من ألوان الشهادة لله بالأحكمة في مقام التنزيل، ومقام التقدير والتدبير، ينخرط المؤمن المتدبر للكتاب، والمتأمل في آيات الله خالق الأسباب وفاتح الباب، ينخرط في الشهداء الذين خلد القرآن شهادتهم، وهم الثلاثة الذين شهدوا لله بالوحدانية تفردا، وبالقسط في القيام بشؤون الخلق، وبأن الشريعة ودين الإسلام هو الدين الحق المرصّي، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، «شهد الله أنه لا إله إلا هو» وشهدت الملائكة بذلك، وشهد أولوا العلم كذلك، شهد الثلاثة

بأن الله لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط، ذلك أنه لا جورَ في أحكام الله وأقضيته، ولا ظلم في أقدار الله وأجزيته، جل في علاه، هو أحكم الحاكمين. و«أن الدينَ عند الله الإسلام»، بفتح الهمزة على قراءة الكسائي، وبه يظهر هذا الكمال، شهود الثلاثة: «الله جل في علاه، وملائكته، وأولوا العلم» على الثلاثة: «أنه الإله الحق، وأنه القائم بالقسط، وأن دينه الإسلام هو الدين المرضي عنده».

وبعد قول الله تعالى: «أليس الله بأحكم الحاكمين»، أي؛ أليس هو أحكم الحاكمين فيما قضى وقدر، وأمر وزجر، بعد هذا التساؤل يقول المؤمن: أنا على ذلك من الشاهدين، وبه يكتب في صكِّ شهادة السِّلْك الأعلى والأرقى، لمن شهد الله بكمال القسط حكماً وقضاء وأمراً.



تدبرات في قصار المفصل الذي خص به النبي المفضل

2 - «سورة العلق وسورة القدر»

تدبرنا مستمر في قصار المفصل، التي فضل بها النبي الأجل، وذلك في ذكرى تتويجه بتاج الختم الأكمل، نفعل ذلك وفاءً ببعض حقه صلى الله عليه وعلى آله، وتعرضاً للموعد به من ربه، من رفقته وعتقه، اللهم آت أنفسنا تقواها، وزكَّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

انسجام المطالع المبيِّنة في سور العلق والقدر والبيِّنة :

وننتقل من سور القسم المُنوَّهة بمقام الإنسان الكامل، سيدنا رسول الله ﷺ، والإنسان المُكَمَّل⁽¹⁾، إلى سور الإشادة الثلاثة، وهي سور منسجمة منتظمة؛ ﴿إِقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] ، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْبَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ [البيِّنة: 1 - 2]، وهذه المطالع يمكن أن نكون منها أمراً إلهياً عليها كالآتي: «إقرأ» «المُنَزَّل» أيها «البيِّنة»، النساء في ثلاثة مطالع لثلاث سور في غاية الانسجام.

في الأولى: إشادة بالوحي المنزل،

وفي الثانية: تنويه بظرفه السعيد الأجل، ليلة القدر الكبرى،

وفي الثالثة: تنبيه على غاية التنزيل الأكمل، وهو تحصيل الانفكاك من

(1) سورة الضحى تنوّه بالإنسان الكامل وسورة التين تنوّه بالإنسان المُكَمَّل.

موجبات الهلاك، ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 1]، فقد كانوا على موعد مع الانعتاق والانفكاك، وتجاوز شفى حفير الهلاك، بمبعثه الشريف صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

فالثلاثة إذا تحدث إلينا عن أمور عظام، بعد ما سبق من قسم بمختار على مختار، مكلف بمهام وأدوار، من أجل فقه الاعتبار، وإدراك الأسرار التي هي غاية الكبار، إلى بيان سر الانقطاع والضياع الذي ودعت به السورة قبلها، إلى هذه الآيات المشيدة بالنبي ﷺ مُنزلاً إليه، وآيات تُشيد بالكتاب مُنزلاً، وآيات تُشيد بالغاية المترجاة مقصداً من وراء وحي الله التام الكامل، وصدق الله القائل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 116].

نسائم البركات في فاتحة الوحي تنزلاً⁽¹⁾ :

ولننظر على عجل في الآيات الخمس الأولى من سورة «اقرأ»، التي كانت مفتتح الوحي إلى رسول الله ﷺ، لقد اختير أشرف إنسان ﷺ وعلى آله، في أشرف بقعة؛ «مكة المكرمة البلد الأمين»، بعد أن زُوِّدَ بأكمل فطرة وأسدّ نظرة، ليكون ﷺ مبعوث العناية الإلهية لتكميل جنسه الذين بعث فيهم وإليهم ومنهم، وليتلقى فاتحة الوحي العلي وأول نازل من كتاب الختم الأتم؛ خمس آيات بينات: ﴿إِذَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ⁽¹⁾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ⁽²⁾﴾ ﴿إِذَا وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ⁽³⁾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ⁽⁴⁾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5] خمسة كأصابع اليد التي ميزت الإنسان، ذلك أنه ليس كائن من خلق الله أطلقت أصابعه مثل هذا الإنسان،

(1) أول ما نزل من القرآن الكريم خمس آيات من سورة العلق، ولسر ما كان عدد خمسة في جملة من أمور الشريعة: «خمس صلوات، خمسة أركان، خمس تكبيرات في الركعة...»، كما أنه بين فاتحة الوحي تنزلاً وفاتحته ترتيباً تكاملاً في جانب الحمد لله على كماله، وعلى الفضل الواصل منه إلينا.

وذلك ليكتب العلم ويدون الفهم ويحارب الوهم، وليقبض على السيف لدفع الظلم ورفع الحيف وإقرار السلم، يدُ هي رمز القبض والبسط، وخمستها مُذكِّرة بأصول التميز، لقد اختار الله النبي المصطفى ﷺ من بين كل الخلق، لعلمه سبحانه بأنه المحل الأنسب لتلقي أنوار التنزيل وبيانات الرسالة، وذلك مصداق قوله المجيد: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 125]. اللهم صَلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

النبي ﷺ قال لجبريل ﷺ: «ما أنا بقارئ» تجرداً من كل ادعاء ولم يقلها تمرداً على الدعاء؛

كان النبي ﷺ بغار حراء يتحنث الليالي ذوات العدد، ففُوجئ بالملك يخاطبه: «اقرأ»، وهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكن قارئاً ولا كاتباً، فقال ﷺ تردداً: «ما أنا بقارئ» ولم يقلها - حاشاه - تمرداً - لم يكن هذا القول منه تمرداً على الدعاء، ولكنه كان تجرداً من كل ادعاء، إنه إعلان منه أنه في مقام الفقر ولسان حاله يقول: ما عندي شيء فأقرأه وأردده.

والآية هذه جاءت لتخبره بأنه سيصبح قارئاً بالمعجزة، متلقياً لوحي السماء، وأن قلبه الشريف للتو مفتوحاً على الملائكة الأعلى لتلقي أجل وأسنى أنوار العطاء.

«اقرأ»؛ احفظ ما سيلقى إليك، واستعد للتلقي لأنك أنت أنت النبي المبعوث من قبلنا، وكلها كلمات مطمئنة لرسولنا ﷺ، وزادته تطمينا حين بينت له وجه الدليل، لأن الذي خلق من علق - والعلق؛ الدم الجامد الذي تتحول إليه النطفة، دم جامد نَتْنٌ يحوله الله إلى هذا الكمال المسمى إنساناً سميعاً بصيراً مدبراً عاقلاً - إن الذي رفع العلق إلى هذا الإنسان الذي بلغ الأفق الأعلى، إنه قادر على أن يجعل منك نبياً خاتماً، كاملاً مصطفىً، جامعاً للمكارم، يتلقى الغيب

ومدد السماء، ويُعرّف بمراد الله علام الغيوب والذي له كمال الأسماء.

وهكذا تبين لنا هذه الكلمات الخمسة أن النبي ﷺ صار قارئاً متلقياً لوحي الله المقروء بحق؛ قراءة غرضها التربية ﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، اقرأ لتتربى، وتكتمل، وأعد القراءة ﴿إِفْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، وكان التأكيد على القراءة لأن الإنسان حين يتربى بالعلم يصبح مؤهلاً لمقام الكرامة، فالقراءة باب للمعرفة، والمعرفة مدخل للكرامة، ومنذ استيقن ﷺ أنه مصطفى من قبل الله للمهمة العظمى، شرع يبنى أمة جديدة كما فعل أنبياء الله الهداة من قبله صلى الله عليه وسلم جميعاً وتسليماً.

وإن الباحث في سيرة رسولنا ﷺ ورسالته وجهاده المبارك، ليقن أن الدنيا كلها لم تعرف إماماً نبياً رسولاً يدانيه في فضائله، ونبله، ومكارمه، وأخلاقه، وعطائه ﷺ في الأولين والآخرين.

آيات التكملة في سورة العلق ترشد إلى أن الطغيان هو الخطر الأكبر على ارتقاء الإنسان؛

ثم إنه بعد فترة، بل أزمنة من نزول الوحي، جاءت الصلة والتكملة لسورة العلق، وأمر النبي ﷺ بوضعها تلو الآيات الخمس الأولى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْغَىٰ ۚ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَىٰ ۚ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۚ﴾، نزلت بعد حين من نزول الخمسة للإشارة إلى أن الطغيان هو الخطر على ارتقاء الإنسان، الإنسان حين يطغى ويرى نفسه مستغنياً، يتكبر ويحتقر ويظلم، ويتجاوز وينسى أنه عبد لله، خلق لمهمة هي العبودية.

إن الطغيان بكل صورته يمثل الخطر على ما بعث به الأنبياء.

والطغيان الذي تبين سورة العلق حقيقته وداوافعه وتجلياته، يكون إعراضاً واعتراضاً؛ يكون إعراضاً عن الأوامر واعتراضاً على الأمر والمؤتمر، يقول

تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِتْغَابٍ ۖ ﴿٦﴾ أَن بَرَاءةً اِسْتَعْذِرَ ۖ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۖ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۖ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ۖ ﴿١١﴾ وَأَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ ۖ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۖ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: 6-14].

جزاء الطغيان، السفح بالنواصي والدفع في الأقصي؛

حين يصبح الطغيان عدوانا على المتدينين وأهل الحق، ووقوفاً في وجه صراط الله وسالكيه، فإن أصحابه من الطغاة والمتمردين، يكونون على موعد مع يوم السفح والدفع؛ سفحاً بالنواصي ودفعاً في الأقصي، أقاصي جهنم وبئس المصير؛ يقول تعالى: ﴿كَلاَّ لَيْسَ لَّمْ يَنْتَه ۖ ﴿١٥﴾ لَنْسَقَعَا بِالنَّاصِيَةِ ۖ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: 15، 20].

﴿كَلاَّ لَيْسَ لَّمْ يَنْتَه ۖ ﴿١٥﴾ لَنْسَقَعَا بِالنَّاصِيَةِ ۖ ﴿١٦﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۖ ﴿١٧﴾﴾ فليدع ناديه، ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۖ ﴿١٩﴾﴾ كَلَّا لَا تَطَّعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۖ ﴿٢٠﴾﴾، والسفح صورة من صور الإذلال والخزي، حيث يؤخذ بناصية الطاغية المستبد ومقدم شعره ليسحب به ويلقى في النار، وفي هذا التصوير القرآني البديع إشارة إلى أن الجزاء يكون على الوفاق، والله ﷻ نَبَّهَ إلى سبب هذا اللون من ألوان النكال العلي بقوله لنا: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۖ ﴿٢٠﴾﴾.

إن سبب هذا الإذلال والسفح، والانتها إلى هذا المصير، هو الطغيان الذي يتعالى بالكذب على الصدق، ويتعالى بالباطل على الحق، ويعتد بالوهم ويصد عن العلم والهدى بالظلم، ويشيع الخطيئة والإثم، وذلك سبب الفساد المريع في دنيا الناس.

سر النجاة في السجود لا الصدود، وفي الممانعة لا المطاوعة؛

إن السر في السلامة من هذا اللون من ألوان الفساد، هو البقاء على خط مزدوج، وطريق سيار عنوانه ﴿كَلاَّ لَا تَطَّعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۖ ﴿٢٠﴾﴾، لا تطع الطغاة ولا

تكن من أهل الطغيان، واسجد للرحمن، اَبْقَ على صلة بالله ذكرا وتقربا، وليكن سبيلك الممانعة لا المطاوعة لأهل الزيغ والكفران.

إن متابعة هدي الرحمن هي التي تستقيم بها الخطى على درب الهدى، يقول تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَضْلُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: 9]. ويقول: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [١٢] وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل: 12-13]، فالله جل في علاه نصب آيات الاهتداء، وأرشد إلى أنه إليه الانتهاء، وجعل هذا النصب والإرشاد بالكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب، ليخلصهم من ظلمة الحجاب وفتنة الاحتراب والاغتراب، وليخصصهم بمنح الاقتراب.



تدبرات فى قصار المفصل الذى خص به النبى المفضل

3 - أنوار الذكر فى سورة القدر

التدبر يكون باستصحاب المعانى والمضامين، وليس مجرد ذكر المباني والعناوين؛

بين يدي انتقالنا من سورة «اقرأ» إلى سورة «القدر» نذكر بأن الغرض عندنا بهذا اللون من ألوان النظر، هو استصحاب المضامين المزيكية والمرقية، واستحضارها فى صورة عناوين ترشد المنتسب والسالك إلى سبيل الوصل، وحتى تكون قراءتنا فى هذه السور القصار قراءة تدبرية تحمل المعانى، وتستنير بأنوار الهدى، ولا نكون مثل الذين يقفون عند مستوى حفظ الآي لفظاً، ذلك أنه من الأمية أن يكون حظ الإنسان من الكتاب حفظ ألفاظه فقط، دون الإقبال على معانيه، وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْهُمْ مِّمَّنْ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: 77]، أي مجرد قراءة سطحية لا تنفذ إلا الباب، ولا ترفع صاحبها إلا مقام أولي الأبواب.

الاحتفال بالقيام فى ليلة القدر لكونها ظرفاً لتنزل وحي التمام؛

نتقل من سورة «اقرأ» إلى سورة «القدر»، والحديث فيها عن ليلة الإنزال وليلة التنزل، إنزال الوحي، وتنزل الملائكة الأعلى، أشرف ليلة هي التي نزل فيها وحي التمام، اختيرت لوحى التمام، وهي فى رمضان نصاً، وهل هي فى العشر الأواخر أم فى الوتر من العشر الأواخر؟ خلاف بين أهل العلم له وجهه وأصله.

إن رسولنا صلى الله عليه وسلم وعلى آله تلقى الوحي منجماً على امتداد عمر النبوة في ثلاث وعشرين عاماً، وكان نزوله كُلاًّ وجملة إلى سماء الدنيا في بيت العزة في ليلة القدر في إحدى ليالي رمضان، وتنزل فرقانا من بعدها إلى قلب رسولنا صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

ولا شك أن نزول الرسالة المخلصة للمؤمنين - الذين بعث فيهم وإليهم - من ظلمات وهمهم وظلمهم، مناسبة غالية جدية بأن يُحتفى بها بشكر الله والتوسل إليه، وهي جدية أيضاً بأن يتجدد فيها الأمل، لأنها ليلة نفح إلهي وفتح علي.

إن ربنا ختم فيها كلمته لخلقه، وتمت فيها نعمته عليهم، ودخل فيها من بعث إليهم التاريخ من أوسع أبوابه بما حملوا وصانوا.

وعظمة هذه الليلة وغزارة الخير فيها تجليه آية ﴿وَمَا أَذْرِيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 2]، والدراية المعرفة ببذل غاية الجهد، إن الدراية لا تحيط ولا يمكنها أن تعرف حقيقة هذه الليلة شرفاً وقدرًا، ولكن التقريب بضرب المثل يجلي لنا عظمة بركة هذه الليلة، إنها خير من ألف شهر، ليلة تساوي عمر المعمر، بضع وثمانون سنة. العمل فيها من دعاء واجتهاد وتبتل وقرب يختصر الله فيه المسافة، ويمنحك فيها هذا الرصيد العمري، ليلة تساوي عمراً مديداً، لماذا؟ لأن فيها تنزل الملائكة الأعلى نورا وروحا، ونحن في حاجة إلى هذين المديدين، مدد الأنوار ومدد الأرواح، فأنوار الملائكة الأعلى تفتح طريق الهداية، وروح الروح ينفخ في الفؤاد همّةً وكمال إرادة.

من معاني القدر الشرف والرفعة، والأمان والمنعة

في ليلة القدر شرف الإنسان، هذا الكائن المختار والمهيئ للتكليف والتشريف، وهو محتاج إلى مدد يجلي الظلمة، وإلى روح تنفخ الهمّة في الأمة، كما أنها

ليلة سلام تبدد الظلم والظلام، فهي سلام كما الكتاب الذي أنزل فيها يهدي لأتم قوام؛ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 9] وكما الله منزل الكتاب ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25] فكتابه يهدي إلى السلم، وربنا يدعو إلى دار السلام، ونبينا نبي السلام والأمان، قال «وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»؛ النبي ﷺ أمانة؛ أي قمة أمن واطمئنان، ومصدر سلام رحمة مهداة، وبذلك تكون قد شأهت وجوه الطاعنين على هذه الملة بالإفك المفترى بقولهم إن الإسلام مصدر إرهاب، والكتاب مصدر إرهاب، ذلك تخويف وإرجاف.

إن الطريق إلى السلم في تقدير الكتاب، هو إقرار العدل ورعاية الحقوق التي تمنع العقوق، وترفأ الفتوق والخروق، يقول ربنا ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين، آمين آمين والحمد لله رب العالمين.



تدبرات في قصار المفصل

الذي خصَّ به النبي المفصل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

4 - «من سورة البينة إلى سورة التكاثر»

من خصائص المفصل أنه مكتنزة فيه جميع معاني القرآن :

نستمر بعون الله كما وعدنا في تدبرنا المقتضب والمختزل لقصار المفصل التي فضل بها النبي الأجل ﷺ وعلى آله، ونذكر أنه من خصوصيات المفصل أن كل القرآن ممثل فيه، وجاء الختم به لإظهار السر الأكمل، ففواتحه على سبيل المثال هي فواتح السور في القرآن كله⁽¹⁾:

1. ففيه مبدوء بالحمد كسورة الحمد⁽²⁾.

2. وبالتسبيح كسور الجمعة والصف والأعلى: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

3. وبالشرط ك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾.

4. وبالتعليل ك: ﴿لَا يَكْفِ فَرِيْشٌ﴾⁽³⁾.

(1) نظم هذه الاستفتاحات أبو شامة المقدسي رحمه الله، فقال في بيتين نقلهما الإمام السيوطي في «الإتقان» (3/ 317):

أثنى على نفسه سبحانه بـُشُو تِ الحمد والسلب لما استفتح السُورا
والأمر شرط النِّدا والتعليل والقَسَم الدُّعا حروف التهجِّي استفهم الخَبَرا.

(2) سورة الفاتحة وإن كانت في مقدمة المصحف، فهي من المفصل، بل من قصاره كما سبقت الإشارة.

(3) هذا النوع من الاستفتاح في سور القرآن الكريم فيه هذه السورة ولا ثانية لها، وهو من تفردات المفصل، لأن فيه أموراً وأشياء تفرد بها، وهي من خصوصيات المصطفى ﷺ.

5. وبالقسم كسور الضحى والتين والعاديات.
6. وبالتهجي كسور «القلم» و«النبأ» على القول بأن مفتتح سورة النبأ «عَمَّ» حرفا هجاء وليس حرف استفهام.
7. وبلاستفهام كما في سور الإنسان والغاشية.
8. وبالخبر كما في سورة البينة التي ذكر فيها الخبر بالنفي: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
9. والأمر كما في سور العلق والإخلاص والمعوذتين.
10. وبالدعاء كما في الهمزة والمسد⁽¹⁾.

ونعلم أن من خصائص المفصل أيضا أنه جاءت فيه خلاصات مقاصد القرآن، بل إن فيه لمتدبره مفاتيح الفهم في الكتاب. ففيه تصحيح الاعتقاد، وذكر الأحكام التي عليها الاعتماد، والتذكير بيوم المعاد، وقصص من مضى من العباد، والتحدي والإعجاز لأهل الكفر والعناد.

من خصائص قصار المفصل أنه يحمل سمات المرسل به ﷺ :

سورٌ قصارٌ فضَّلَ بها النبي المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وجاء بها رحمة بهذه الأمة الأُمّية، لكيما تجد في هذه المختصرات الموجزة ما بسط في السور الطوال الكبار، وكل ما خص به النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، يحمل سمات تميزاته الشريفة ﷺ من كونه نبي الحكمة المبصرة، والعصمة المطهرة، والرحمة المسعدة المبشرة، وهذا الثلاثي من الخصوصيات النبوية، تتجلى في مفصل هذا الكتاب، وسر الختم موصول بالكتاب يلحظه أهل الفهم من أولي الأبواب.

(1) يلاحظ أن المفصل خص بخمس فواتح لا توجد في غيره وهي: الدعاء والتعليل والشرط والأمر والاستفهام.

ذكر بعض أسرار النظم في سور الختم الأتم:

سبق أن ذكرنا فيما مضى أن سمط المعارف الماثورة في هذا الجزء الشريف من القرآن الكريم، ينتظمه التعريف بالنبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، حيث جاء ذكر فضيلته ومكانته عند ربه في سورة الضحى وسورة الشرح، ثم التعريف بمكانة الإنسان وسر كرامته في سورة البلد الأمين؛ «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»، والتعريف بالمُنزل مقروء مُتلقى من أجل التربية والكرامة؛ ﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿إِفْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، اقرأ لتربي ثم اقرأ لتكرم، إلى نهاية السورة حيث الأمر بالسجود الذي يفتح باب الاقتراب، فسورة «اقرأ» استهلّت بأمر وختمت بأمر، فانعطف آخرها على أولها: ﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ أي اسجد لربك، فالقراءة مفتاح المعرفة، والسجود كمال الكون على تمام الصفة، اقتربا من الجنب العلي جل في علاه.

إلى أن جاء التعريف بنبي البينة ﷺ، بعد التعريف بزمن إنزال الآيات الصيّنة، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ليلة الشرف التي يجتهد لها المجتهدون ويتحراها المتحرون، الليلة التي اختزل فيها زمان العمر، ألف شهر في زمن ليلة، وهذا اللون من ألوان الطي والاختزال الزمني والرقى الإيمانى، إنما كان بسبب بركة الكتاب، فبركة الكتاب ونبي المتاب سيدنا محمد ﷺ، ارتقت الأزمنة والأمكنة والنفوس المؤمنة، لأن الأزمنة والأمكنة في نفسها متساوية، فالسبت كالسبت، والأحد كالأحد، وشهر كشهر، وبقعة كبقعة، وجبل كجبل، وإنما ارتقاؤها بكونها ظرفا لتنزل البركات، أو محلا لشهود أنواع من الطاعات، كما النفوس التي تتفاضل بحسب درجات التقبل، وترتقي بحسب الاستعداد والتبذل. ولذلك كان ارتقاء ليلة القدر وكونها من أجل أيام الله وأعظم آياته، بما أوعيت به وما تم فيها، وأنها كانت ظرفا لتنزل القرآن المجيد بآياته البينة.

النبي البينة جاء بالشرعة الصيّنة لإصلاح الأوضاع وتقويم الطباع ورأب الأصداغ؛

بعد سورة «القدر» يجيء التعريف بنبينا ﷺ بوصف البينة⁽¹⁾، ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ﴾ منفكين عن باطلهم ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، أي حتى جاءتهم البينة، والبينة هو حجة الله على العالمين سيدنا رسول الله ﷺ الذي جاء بدين القيمة، شرعة الدين والملة الصيّنة، وهذه آثاره في العوالم، ذلك أنه حين بعث ﷺ، بعث لإصلاح الأوضاع وتقويم الطباع، ولأم الأصداغ، جاء ﷺ كالترياق لإقرار الحقوق وتجاوز العقوق ونصح⁽²⁾ الخروق، صلى الله عليه وعلى آله في الأولين والآخرين.

فما كانت عوالم الشرك والوثنية والانحراف الكتابي لتفيء وترجع لولا مجيء النور الخاتم سيدنا رسول الله ﷺ، ومع ذلك فإن جمهرة من أهل الكتاب - لحسدهم وبغيهم - ما تفرقوا إلا حين جاءتهم البينة قال تعالى: «فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين».

سورة البينة تجلي صفة رسول الله ﷺ ووظيفته ووسيلته؛

نذكر بإيجاز يناسب المقام - ونحن مع قصار المفصل - أنه من المعاني الجليلة التي في سورة البينة، أنها تجلي مقام سيدنا رسول الله ﷺ الذي تنزل إليه البيان، وأنه البينة، والبينة من رسول الله ﷺ في سلوكه ومواقفه، لو نظرت إليه لذلك تصرفه على أنه بينة صلى الله عليه وسلم وعلى آله:

(1) من أسماء رسول الله ﷺ «البينة»، وفي القرآن الكريم سبع سور تحمل في عنوانها أسماء نبوية شريفة: «طه، يس، محمد، النجم، المدثر، المزمل، البينة».

(2) نصح الخروق، بمعنى خياطتها، لأن النصح من المنصحة، وهي إبرة الخياطة الرقيقة التي تخطط ولا تبقى أثر للخرق.

لو لم تكن فيه آية مبينة لكان منظره يغنيك عن خبره فكيف وقد انضاف إلى البيئة السلوكية بيئة المقال - جوامع الكلم - وبيئة المحجة المصاحبة، محجة الآيات المتنزلة أنوارا من أعالي القدس إلى حضيرة النفس المقدسة، نفس رسول الله ﷺ، ليجري بيانا عربيا معجزا مدى الدهر.

ضمان حفظ الكتاب إشعار بإمكان تكرار أثره:

جاء «البيئة» ﷺ، ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾، مطهرة من أن تحرف، خالدة صينة، لا تزال باقية، لأنه ضمن حفظها؛ وفي ضمان الحفظ إشعار بأن أثرها بإمكانه أن يتكرر. جاء ﷺ فانفك الناس عن مواريث الجاهلية، وتحولوا إلى ما هداهم إليه خير البرية، وهذا الانفكاك هو الذي نقلهم من حال الانسحاق وشر الإباق، إلى حال الانعتاق وطهر الوفاق، ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾، لا هؤلاء ولا هؤلاء كانوا ليتخلصوا من ضلالهم، وحميتهم وجاهليتهم وفتنتهم، لولا مجيء البيئة ممثلة في رسولنا ﷺ، وبقاء كتابه بقاء إمكان إعادة هذا الإنتاج الفاضل، ولكن متى؟ متى تسعد الدنيا بالانفكاك من الإباق والرق والانسحاق؟ إن الخلاص ممكن ووعد الله لا يخلف، ولكن حين يكون لهذه الملة ورثة رجال⁽¹⁾، يقدمون عرضها باعتبارها كمال فطرة، وسداد نظرة، بعيدا عن تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وهذا شيء بشر به المصطفى ﷺ حين قال: «يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ينفون عنه انتحال المبطلين وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين».

(1) الرجولة عماد التكليف، وعنوان الوفاء؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْغُرَىٰ﴾ [يوسف: 109]، وقال عز من قائل: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَبَضْنَا نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

خيرية الأمة مشروطة بالتصفية من شوائب الآثام والسيئات، والتزكية بصنوف الأعمال الصالحات؛

وبهذا اللون من ألوان التصفية التي تكون عليها التزكية، نصفي الميراث لكي نصفي الإرث والتوارث، بهذا تستقيم الأمة ويعود إليها وصف الخيرية؛ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، وهذه الصفة للأمة مشتقة من عملها، لأنها تعمل على الخير المحض، شأنها أفرادا وجماعات هو جلب الخير للعالمين، ووراء اشتغالها بالخير قلوب مليئة بما سمته السورة بالخشية، يحذوها الأمل في سعادة الأولى، وطيب العيش في الآخرة، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

خشية الله التي هي ثمرة الثمار، حين تعرف الله وتحبه، وتجله وتحمده، وتغتسل بين يديه، يرقبك إلى مقام الخشية، التي تتركب من إجلال الله، ومعرفة الله، ومحبة الله، والخوف من عظيم جلاله ﷻ، وبذلك تكون الأمة في مقام الرضى بعد مقام الخيرية، ﴿أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ المستحق بالحصص لوصف الخيرية وجزاء الرضوان، هم الموصوفون بوصف الخشية.

إن القلوب إذا عرفت الله وأجلته، وعظمته وعظمت المنزل منه، وعظمت نبيه الواسطة، وعظمت بعضها بعضا بإكرامها وتقريبها للحق المقرر وأهله، ساعتها تسعد بهذه الدنيا، وتستمر بها الأمة، لأنها روح زكية نقية مطهرة، تشع بها الأنوار المتصلة بجناب رسول الله ﷺ.

انتقال إلى سور أربعة موضوعها التذكير بأحوال القيامة المفزعة؛

بيان وجه النظم في سور: «الزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر»

يفتح التدبر الآن نظره على السور الأربعة تترى بعد البينة، وفي نظمها نسق عجب، «الزلزلة» و«العاديات» و«القارعة» و«التكاثر»، متنوعة ولكنها واحدة

الموضوع أو متقاربة الموضوع.

﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ فيها الحديث عن الساعة، وفي السورة الموالية؛ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا^(١)﴾ ﴿وَالْمُورِيَّتِ فَدَحَا^(٢)﴾ ﴿وَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا^(٣)﴾ ﴿بِأَثَرٍ بِهِ نَفْعًا^(٤)﴾ ﴿بَوْسَطٍ بِهِ جَمْعًا^(٥)﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾، الحديث إذا عن البعث الموصول بزلزلة الساعة، و«القارعة» أثر الزلزلة، ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾، إنه لشيء مهول ومفزع إثر الزلزلة، قرعا للقلوب بأنواع من الأحداث المفزعة، إلى سورة تحدث الناس عن اشتغالهم بالدنيا الخادعة عن يوم الزلزلة والبعث والقارعة، ﴿الْهَيْكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، شغلتم الدنيا الخادعة، واستنزفكم الصراع عليها، وفتنتم بها وبادخارها، بعيدا عن الاشتغال الذي من أجله خلقتكم، وضيعتم دنياكم بهذا اللهث، وخسرتم آخرتكم بالحصاد المر الكريه. جاءت هذه السور الأربعة هكذا تباعا لتحدثنا عن أهوال القيامة، وحقيقة المعاد، وضرورة البعث للوقوف بين يدي رب العباد، وكان حديثها رمزا، أي شديد الاقتضاب، ذلك أن موضوعاتها وردت مفصلة في سور كثيرة من الكتاب الكريم، شرحت هذه الآيات التي بها ينطوي الوجود وينتهي^(١).

القبر معبر وليس مقر

والجامع للسور الأربعة أنها تتحدث عن المعاد؛ وهو الساعة الكبرى، كما تتحدث عن الساعة الصغرى، ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، وزيارة القبر يعني الحلول فيه؛ وإنما سميت زيارة للدلالة على أن القبر معبر وليس مقر، وأن الذي فيه على موعد مع البعث، فليس القبر نهاية المطاف، وإنما هو أول منازل الآخرة،

(1) خصوصا في المفصل كسورة الواقعة وغيرها، وقد جاء في سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال: «من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْبَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾».

وفيه يبدأ القطاف، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، نعوذ بالله من فتنة القبر وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال.

الجوامع للنظر الجامع

من أجل أن يتعمق الفهم في بصائر هذه السور القصار المتقدمة، وهي في الكتاب قصارٌ وجازةٌ وليس قصوراً، فهي من الجوامع، وجوامع الكلم كاسمها جوامع، ولكن للنظر الجامع، لا النظر المجتزأ السطحي، الذي لا يسلك مسلك التدبر بمفهومه القرآني، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 28]، ليس لينظروا إليها فقط، ولكن ليدبروا معانيها ويفقهوا مقاصدها، والتدبر كما سبق هو إعمال النظر من أجل الوصول إلى أدبار المعاني، ولا بد من الانتباه إلى كلمة «دبر»، فدبر الشيء آخره، فتذهب بالمعاني إلى غاية ما تعطيه العبارة بحسب ذوقك، ولا انتهاء لكلمات الله، هو ذلكم التدبر المطلوب منك بنص الكتاب، وإلا فإنك لن تأخذ بصائرهِ على الوجه المطلوب.

سورة الزلزلة تتحدث عن الزلزال لإقامة العدل بميزان المثقال؛

ونعود لبعض تفصيل في النظر في هذه السور كل على حدة.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1]، حديثٌ عن الزلزال الأعظم الذي يضرب الأرض كلها بين يدي قيام الساعة، وبه تصير الأرض خراباً، لأن سكانها تحولوا إلى سعاة في الفساد المحض، يقول النبي الكريم ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على الأرض من يقول الله»؛ أي من يعرفه ويتحدث باسمه، عمَّ الأرض الخرابُ والفسادُ، فكان هذا إعلماً بأن عدل الله سيتدخل لإقامة الزلزال الأعظم، ومعه خروج كل الناس الذين استوعبهم باطن الأرض، لأنه حينها تلفض الأرض ما في باطنها من أشياء وأحياء، كل ما مر على ظهرها منذ

بدء الدنيا إلى نهايتها يخرجون، ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 52]،
﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2]، ومن هذا الثقل - أو الثقل⁽¹⁾ - الكائن
المسمى إنسانا.

حينها يتساءل الناس - خصوصا المنكرين للبعث - ماذا حصل وما الذي
حدث؟، ما هذا الزلزال الضارب الذي سوى الأرض كلها؟ «زلزالها»، فهو ليس
زلزالا موضعيا خاصا ببلد أو جهة، زلزالها الكامل الأعم الذي أطاح بكل ما على
الأرض من نبات وحيوان، وإنسان وعمران، يتحول معه الوجود كله إلى صورة
أخرى؛ ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَتَرَزُّوَالِلَهُ الْوُحْدَ الْفَهَارِ﴾ [إبراهيم: 50]،
والجواب الوحيد لهؤلاء المتسائلين أنها ساعة الحساب، الناس كلهم، بل الخلق
كلهم⁽²⁾ على موعد مع الجزاء، إن الأرض تتحدث بإذن ربها بعد زلزالها، لتؤرخ
للأحداث التي جرت على ظهرها، من عدل وإحسان، وظلم وطغيان وعدوان،
خاص وعام، تتحدث بلسان يوحي لها به الله العليم القدير، إن الجوارح تنطق
في ذلكم اليوم المشهود، والذي أنطقها هو الذي أنطق كل شيء، وأي مانع من
أن تنطق الأرض والجوارح ما دام الفاعل هو الله الذي أنطق الإنسان وأعطاه
ملكة اللسان، هذا الذي تعودناه، وهو في حقيقته شيء معجز، فحركة اللسان

(1) قيل: إن المقصود بالأنثقال الإنس والجن، قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ ثَقَلٍ﴾، وقيل: إن المقصود
بالأنثقال ما جعل في جوفها من موتى ودفائن.

(2) ذلك أنه قيل بأن الله ﷻ يبعث جميع الخلائق للقصاص، ثم يحيل التي لم تخلق للخلود ترابا، ويبقى
ما خلقه الله للخلود، إما في النعيم المقيم، أو في سواء الجحيم، نعوذ بالله من سوء المصير. ومن
الأحاديث الواردة في الباب قول رسول الله ﷺ: «إن الله يقتص للشاء الجماء من الشاة القرناء»، وقال
قتادة رحمه الله في قول الله «وإذا الوحوش حشرت»: يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص، فإذا
قضي بينها ردت أترابا فلا يبقى إلا ما فيه سرور لبني آدم كالطاووس ونحوه.

بين هذين الفكين، وصدور الصوت عن حركة الهواء في القصبة الصوتية، ودور الحبال الصوتية، واختلاف الحروف باختلاف موضع اللسان، وما يترتب عن ذلك من تراكيب وألفاظ، وكيف تنتظم الإشارات والمعاني بواسطة هذه القوة التي أعدت سلفاً لهذا اللون من ألوان الاشتغال، إنه فعل الله المعجز.

تؤرخ الأرض للأحداث التي جرت على ظهرها بلسان الحق وتقول لكل: اخرجوا لتلقوا جزاءكم، والناس يصدرون من قبورهم سراعاً كأنهم يستبقون إلى نصب، فيجدون موازين القسط التي لا تقبل حيفاً ولا جوراً ولا ظلماً، ولا تهمل فيها حتى مثاقيل الذر في الحساب، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَهَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

تسوية الأرض لتصبح مسرحاً للجزاء:

كما نعلم في الشاهد أنه في دقائق قليلة، تخرب الزلازل المدن، وتحيل العمران إلى تراب، خصوصاً إذا صاحبها خروج براكين من بطن الأرض، حمم نيران وهي من أثقالها، إذ ممكن أن تكون مقصودة بقول الله ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2]، فالسلف قالوا: أثقالها موتاتها، وما فيها من كنوز وأنواع المعادن المنصهرة، وكأن ربنا يريد أن يغيرها كلا؛ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 50]، فتصبح قاعاً صفصفاً أي مستوية لأنها أرض تهيء لتكون ساحة للفصل والجزاء، فينبغي أن تكون صورتها صورة العدل، فلا جبال ولا مرتفعات ولا ظلال، حتى لا يكون واحد واقف في الجبل، وواحد في السفح، وواحد في القاع، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَبْقَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 103 - 104]، فتصير الأرض صورة لمسرح العدل الإلهي.

ميزان الله في يوم الفصل لا يغفل ولا يهمل، لأنه يقوم على العدل :

وفي سط هذا المشهد من الزلزال المخيف، تكون الساعة، ويتساءل الناس؛ ماذا حدث بأرضنا؟ وماذا يراد بنا؟ فيجابون بأن الموعد آن للحساب، اليوم الموعد وشاهد ومشهود، كل واحد شاهد ومشهود عليه، والكل مستحضر لما كان معه وما كان منه، وذاكر لجناياته؛ ﴿يَوْمَ تَجْذُكُلُ نَفْسٌ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا أَبْعِدَ أَوْ يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 30]، بل موثق بكتاب، يقول تعالى في بيان كمال العدل الإلهي في يوم القيامة: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنْفِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ [إفراء كِتَابَكَ كَهَيِّ يَتَقَبَّلُكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا] [الإسراء: 13 - 14]، وبين يدي ذلك موازين قسط موضوعة لا تغفل ولا تهمل.

رسالة سورة الزلزلة إذا تقول لك: انتبه! فإنه بين يديك هذا اليوم، فاعمل له، فهو من جهة لقاء بالله المنعم عليك، ومستخلفك ومكلفك، ومن جهة أخرى ستلقى جزاءك هناك بحسب كسبك الذي سبق منك.

جاءت سورة العاديات فاصلا بين الزلزلة والقارعة لسبب واصل :

تمام «الزلزلة» بسورة «القارعة»، لكن جاءت بينها وبينها سورة أخرى فاصلة لسبب واصل⁽¹⁾، وهي؛ أي سورة «العاديات»؛ سورة قسم يبدو غريبا؛ قسم بالخيال التي تضبح، وتوري النار بحوافرها، وتثير غبار النقع، ثم تتوسط الجموع اقتحاما، إنه قسم بأدوات الجهاد الحارس الصائن، ومنه الخيل التي يُسمع ضبح أنفاسها، ويرى إيرااء إيقاع حوافرها وسنابكها، ويعلو غبار النقع

(1) من معاني الواصل، أن الأجزية دنيوية وأخروية، والأمة مسؤولة عن صيانة الإيمان، وتمكين الناس

من أداء ما به يكسبون الخير.

المثار منها، وخصوصا حين تنتهي فتخترق الجموع توسطاً، وذلك إيذان بأنها حصّلت نتيجة ما وضعت له.

لا بد للأمة من امتلاك القوة البانية لإقامة وجودها، والقوة الحامية لصيانة حدودها؛

وفي ذلك القسم إشادة بنعمة القوة التي منّ الله بها على الإنسان، ليصرفها في حماية الحق وتشديد العمران، لا في تدمير الكيان وإشاعة الطغيان.

والإنسان إنما يقوم وجوده وتصلان حدوده بقوتين، القوة البانية، قوة بناء الحضارة، والقوة الحامية التي تصون هذا البناء؛ لا بد إذا من قوتين، قوة بانية وقوة صائنة حامية، والقسم هنا في سورة «العاديات» يذكرنا بهذه النعمة، نعمة الخيل وأمثالها ونظائرها في الزمن المتواصل والمختلف، ولذلك جاء القسم بالصفة وحذف الموصوف⁽¹⁾، لم يقل الله: «والخيل العادية»، وإنما قال: «والعاديات» فأبقى الصفة وحذف الموصوف، للتنبيه على أن هذا شيء يخضع للتجديد، وأنه بحسب الأزمنة والأمكنة، يقول تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8]، المهم هو أن على الأمة أن تسعى لامتلاكه ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، وهو الإعداد المأمور به في قول الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 61].

التنبيه إلى أن صيانة الحدود تكون بدوام اليقظة وعدم الغفلة والشرود؛

وفي قوله تعالى: ﴿بَوَسَطْنَاهُ جَمْعًا﴾ [العاديات: 5]، إشارة إلى توسيط جمع العدو، واختراقه وأنهاء قوته، وهو تمام الاقتدار والتمكين، الذي يصون ولا يهون، يصون الحق ويزود عنه، ولا يهون بالغفلة والشرود عن مهمة صيانة الحدود، وفيه إرشاد للمؤمنين لتكون عينهم على عدوهم، فيكون تحت سيطرتهم ونظرهم،

(1) يقول الشيخ حفظه الله دائماً بأن أسرار القرآن في حروفه ورسوفه وحذوفه ووقوفه.

ذلك أن الباطل إنما يمتد ويتشر في الفراغ المزدوج، الفراغ المسمى ضعفاً، والفراغ المسمى غفلة؛ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوُتَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 101]، والأمتعة هي ما متعك الله به وممكنك منه من مدخرات الوجود، وما وضع الله بين يديك من أنعم لتحرص عليها وتصونها، لأنها أساس قوة التمكين، وأسلحتك ما هداك الله إليه لحماية هذا المتاع، وهي أساس قوة التحصين، وأعداؤك يريدون لو غفلت عن المدد والسند، ومعنى الغفلة عنهما ألا تهتم بأمر تنميتها، وتنمية المتاع بتكثيره وتثويره وحفظه من الضياع، وتنمية السلاح بتطويره وتجديده ليكون سندا في الكفاح، وذلك لأنه يوجد في الدنيا من وصفهم الله بأصحاب الكنود، الذين يتنكرون للمكارم، ويعتدون على القيم والمحارم، وتضييق الدنيا بما يفعلون من صنوف المآثم، فهؤلاء لا بد من أن ينتبه المؤمن لهم، فلا يترك النعم الموضوعة بين يديه، والمدخرات المسخرة لديه نهب هؤلاء الطغام واللئام، وإنما عليه أن يضعها في نصابها حاميا صائنا محترسا.

الجحود والكنود، والحرص بلا حدود، سبب الخسران في اليوم الموعود؛

جاء القسم بآية الحماية - التي ينبغي أن توضع في موضعها وإلا تحولت إلى خراب - جاء لتأكيد مسائل خطيرة، هي أن هذا الإنسان المستعمل لهذه القوة يحمل صفتين خطيرتين في نفسه، تؤثران في مسلكه وتصرفه بهذه الأنعم:

• **الخصلة الأولى: «كنوده»**، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: 6] «إن الإنسان لربه» أي لنعم ربه «لكنود»، ينكر النعمة، ويزيد فيبخل بها في مضانها ويصرفها في غير مواضعها، وهو ما يؤذن بفساد التصرف بعد فساد التصور، «إن الإنسان لربه لكنود»، يقال: الأرض الكنود هي التي لا تنبت، وهذه الصفة عنوان للإنسان الذي لا يذكر ولا يشكر.

• **الخصلة الثانية: حرصه بلا حدود، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾** [العاديات: 8]، «وإنه لحب الخير» أي المال والنفع الخاص، «لشديد»، أي مسيك بخيل، فيه حرص ومنع.

القوة للاحتراس وليس للافتراس:

وهاتان الخصلتان؛ «البخل والكنود»، هما عنوان الكفران، ما يجعلهما آفتين قاتلتين بتعبير القرآن الكريم: ﴿فَتِلْ الْأَنْسُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: 17]، إن مرجع ظلمته وكفره وسواد دخلته، هو هاتان الصفتان اللتان تجعلانه حين يمتلك القوة وتكون في يديه كالظفر في يد النسر، يفترس بها ولا يحترس، والقوة جعلت للاحتراس لا للافتراس، والذين يستعملونها في غير موطنها أناس فاتهم التزكية، لم يتزكوا من وصف الكنود، ووصف الحرص على المتاع القصير، ولم يتخلصوا من نسيان المصالح الكبرى العامة، ونسيان الأصل الذي منه خلقوا؛ ﴿فَتِلْ الْأَنْسُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [17] من آي شئ خلفه ﴿18﴾ من نُظْفَةٍ خَلْفَهُ، وفَدَرَهُ﴾ [عبس: 17 - 19]، هذا الانسان المخلوق الضعيف، حين يمتلك القوة يغتر ويستكبر، ثم يحتقر غيره، ثم يدوسه، ثم يقول بعدي الطوفان، والحق أن البقاء له وحده تعالى دون أن يكون معه شريك في البقاء.

الإرشاد إلى ما به النجاة من أسباب الفساد والخسران يوم التناد:

تنتهي سورة القسم بـ«العاديات» بالحديث عن البعث والتذكير بيومه، يقول تعالى موجهًا خطابه لهذا الكنود الحريص، البخل المحرف لوضع النعمة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: 09 - 10]، «أفلا يعلم» ذلك الكنود الشحيح المسيك، الذي لا يضع النعمة في محلها، ويبخل بها على مستحقها، ثم يغمط الحق بكنوده، ويمنع المستحق بشحه وحرصه، وبهذين

الفاعلين تطيش الموازين، وتنحط كل القيم، ويغتال العقل والسلوك، وتشرد الدنيا، وتعم التعاسة في الديار، يسائل القرآن الكريم هؤلاء مُسَالَةً إِعْذَارٍ وَإِنْذَارٍ؛ «أفلا يعلم»، أي أعمي الإنسان فلم يعلم أن لهذه الدنيا حدوداً ونهاية، وأن وراء هذا العالم عالماً اسمه عالم الفصل، ﴿لَا يَوْمَ الْفَضْلِ كَانَ مِيقَتاً﴾ [النبا: 17]، ألا يعلم أن وراء ذلك خبيراً عليمًا بأسرار الضمير، هو ربنا جل في علاه.

وبعثرة القبور بالبعث وخروج الأجسام منها حية، وتحصيل ما في الصدور؛ أي جمع جميع ما في القلوب من النيات والعلوم والمقاصد، وأنواع الآفات وأضدادها، كل ذلك يُحْصَلُ ويوضع بين يدي الله، والتعبير بـ «ما في الصدور»، لأنه في القلب والفؤاد يبدأ الوجود الفعلي للأعمال، وعنه تصدر، وبمقتضى ذلك كانت أحواله وأفعاله، وآثاره السلبية والإيجابية في الوجود.

ولو علم الإنسان ذلك، وعاش يذكر ويستحضر هذا الجزاء، وذلكم اليوم الذي ستبعثر فيه القبور، ليُخرج من بين الناس، فيُسأل عن حصيلة صدره، وهو يعلم أن وراء هذا التحصيل علم العليم الخبير، وبين عينيه قول نبينا ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه حجاب، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»، لأنها بين أيديكم، أو كما قال صلى الله عليه وسلم وعلى آله، لو كان الإنسان على هذا الذكر لكان عيشه راضياً، وحاله في الدنيا والآخرة مرضياً.

سورة القارعة تصف أحوال الناس بعد أهوال الزلزلة المفزعة:

وبعد سورة «العاديات» جاءت سورة القارعة، وهذا الاسم ليوم القيامة مشتق من القرع المفزع، الذي يذهب بطمأنينة جميع الأحياء، ويزعزع استقرار جميع الأشياء، فهي «أي القيامة» قارعة ومفزعة بأهوال الزلزلة ابتداءً، تتزلزل بها القلوب، ويجيء بها الفزع الأكبر، ولا استثناء منه إلا للآمنين بالشرط.

جاءت «القارعة» لتشرح بإيجاز واعجاز أثر الزلزلة فزعا بلا حدود، فزعا يطيش بالعقول وبكل شيء متماسك، فالجبال التي هي مضرب المثل للثبوت والاستقرار، تطيش فتصير كالصوف المندوف⁽¹⁾، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بـ«العهن المنفوش»؛ يعني الصوف الذي بُسْط وحل وحُلج، وهو أخف ما يكون عليه الصوف، يقول تعالى في وصف ذلك اليوم: ﴿وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 46]، ثم تطيش العقول فإذا الناس بعقلائهم وحكمائهم الذين كانوا مرجع العقل رجاحة هنا، إذا هم يتحركون كما الفراش والجراد المنتشر، والفراش المبعوث تلك الحشرة الصغيرة التي يضرب بها المثل في الخفة والطيش، والغفلة والجهل، حين تتسارع وهي تريد الضياء، ولكنها تقتحم النار لتموت، ذلك حال الناس وهم كفراش المصابيح الذي يموج بعضه في بعض، ويدخل بعضه في بعض، وتنعدم بين يديه الجهة لضياع البوصلة؛ بوصلة الاتجاه.

﴿الْفَارِعَةُ مَا الْفَارِعَةُ﴾ [القارعة: 1]، إبهام إعدار، ﴿وَمَا أَذْرِيكَ مَا الْفَارِعَةُ﴾ [القارعة: 2]، إن إدراكك ودرايتك لا تحيط بحقائق هذا اللون من ألوان القرع، الذي اشتق منه اسم من أسماء القيامة لكونه يمثل أحد أعظم الأحداث المهيولة فيه، ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: 3]؛ أي يصيرون كالفراش المبعوث أثرا للتحير الذي يصيبهم، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: 4]، هذه الجبال الرواسي تصير كالعهن خفة وتلاشيا، كل ما كان ثقيلًا يصير خفيفًا سواء كان حسيا أو نفسيا.

(1) قال صاحب القاموس المحيط: مادة «ندف»، ندف القطن يندفه، ضربه بالمندف والمندفة، أي خشبته التي يطرق بها الوتر ليرق القطن وهو مندوف ونديف.

والراجع الوحيد هناك هو الأعمال الصالحة المتقبلة، الإيمان والعمل الباني هو الشيء الوحيد الذي له وزن معتبر، ﴿بِمَا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 5] ثقلت بحسنات الأعمال، من الخالدات الباقيات، وبالكسب الفاضل المحيي، وبألوان الحق الذي جاء له الحق وخلق له الخلق، من كان من أهل ذلك ﴿بِهِوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: 6]، وما أطيبها من عيشة وأهنأه من مقام.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 7]، طاشت كفة حسناته وطفحت كفة سيئاته، فكانت مليئة بمفاسده وظلماته وكل ألوان الكسب الرديء، ومن كانت هذه حاله ﴿بِقَاهُ هَاوِيَةٌ﴾ ٨ ﴿وَمَا أَذْرِيكَ مَا هِيَةٌ﴾ ٩ ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: 8-10]، إن الذي امتلأت صحفه بالسيئات، تكون النار هي حاضته يوم القارعة، تلکم النار التي هي أهوى مهوى في سجيل، ومأواه وأمه التي يرجع إليها لتعطف عليه عطفها الناري، وهذا منتهى التهديد والوعيد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

اللهم أعذنا من النار برحمتك ومِنَّتِكَ، وخلصنا منها بعافيتك، واجعلنا من أهل ولايتك، آمين آمين والحمد لله رب العالمين.

سورة التكاثر تؤكد أن حرص الناس على الدنيا لا يخمد إلا بخمود الأنفاس:

سورة «التكاثر» خطاب فيه وخز مكرر، وتجيء فيه «كلا» أم الروادع المنبهة والزاجرة، «كلا»، وتقول له: إِنَّهُ لَا تَفْعَلْ، كلا لا ينبغي لك ذلك، وتكرر ثلاث مرات، وذلك لأن الإنسان حريص على التكاثر، ولا يمكن أن تمنعه إلا الروادع الزاجرة، لأن فيه شرة لا تخمد إلا بخمود أنفاسه، حتى يزور المقبرة، قال ﷺ: «يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل»، ولم يقل

ﷺ: «المسلم» أو «المؤمن»، وإنما قال: «ابن آدم»، فآدميتك قبل أن تتركى بالإيمان والإسلام، فيها هذا اللون من ألوان الحرص على الدنيا، وتأميل البقاء فيها، رغم أن ما حرص عليه قد يجمعه لغيره، وما أمله قد لا يكون، فقد يفاجأ بموت مباغت.

﴿أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1]، إن التكاثر المنهي عنه والمنبه على خطر الاشتغال به هو التكاثر المُنْسِي والمُلْهِي، الذي يذهلك عن الحق والواجب، والذي يجعلك عاكفا على أرخص المآرب، لتنسى مثابك، وتنسى مهمتك، وتنسى روحك وجوهرك، وتطيش في عالم الأهواء.

تكررت «كلا» ثلاث مرات لتكرر المفاجآت ثلاث مرات:

سبق القول بأن التعبير بزيارة القبور جاء كناية عن الحلول بها، لأن الإنسان على موعد مع الخروج للجزاء، ولسائل أن يسأل عن أم الروادع «كلا» لماذا تكررت ثلاث مرات؟ والجواب والله أعلم، أن المواقف التي تفاجئك ثلاثة: أولها: مفاجأة الموت الذي لا تدري متى سيكون، ولا متى سيحين أجلك.

الثانية: مفاجأة البعث، في حدثه لمنكره، وفي زمنه للمؤمن به⁽¹⁾.

الثالثة: مفاجأة وضع موازين القسط للحساب، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: 47].

فالسورة تقول لك «كلا»، انتبه وضع كل الحساب لما ستلقاه قريباً بالموت التي هي المدخل للآخرة، «كلا» انتبه إنه ليس بعد الموت راحة وفناء، وإنما بعث للجزاء، ولا تحسب أنك في الجزاء مغفول عنك، بل إنه سيقدم الكل لحساب منفصل وفي موازين منفصلة.

(1) (البعث) يفجأ المنكر بأصل حدوثه، ويفجأ المؤمن بزمن حدوثه.

المُسَاءَلَةُ عَنْ النِّعَمِ:

وبين يدي هذه الروادع الثلاثة تنبيهك لِلْمُسَاءَلَةِ عَنْ النِّعَمِ؛ أَيُّ نَعِيمٍ؟ ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8]، ولكن أي نعيم؟ النعيم الذي ألهاك، والذي كنت من أجله متكاثراً، وبسببه لاهياً، هذا النعيم الذي ألهاك فانطلقت لجمعه غير ناظر فيه لا إلى حل ولا إلى محل ولا إلى حسن تصرف، إنك مُسَاءَلٌ عَنْ هذا النعيم الذي أوتيته، من أين اكتسبته وفيما أنفقته⁽¹⁾.

الناس أمام هذه النعم التي قدمت إليهم وهم غرقى في بحارها، أحد رجلين؛ إما أن ينغمسوا وينغمروا فيها فتلهيهم عن الحق والواجب، وإما أن يعرفوا أنها من الله إليهم ابتلاء ورسائل تمحيص، فيأخذوا منها بالقدر الذي أتيح لهم، وبالوجه الذي أبيع لهم، وهو ما سمته الشريعة بـ«الطيبات». وفي الختم بهذه المسألة تنبيه للناس ليحترسوا من فتنة متع الدنيا ومتاعها، وليضعوها حيث ينبغي الوضع.

اللهم مُنَّ علينا بفتح أقفال قلوبنا بأذكار كتابك، ونور بصائرنا بسر من أمرك وهدايتك، واجعلنا من أهل ولايتك وطاعتك، وأخلصنا فيمن أخلصت لذكرى الدار، وتوفنا مع الأبرار، واغفر لنا مغفرة عزمى إنك أنت العزيز الغفار.



(1) جاء التأكيد على هاته الحقيقة في نصوص كثيرة، منها قول رسول الله ﷺ: «لن تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، منها عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقته».

تدبرات في قصار المفضل

الذي خصَّ به النبي المفضل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

5 - «من سورة التكاثر الى الناس»

وفاءً منا ببعض ما تعهدنا به من تقريب المعاني الأول لقصار سور المفضل، ومن خلال تلکم المعاني نقرب أمهات مقاصد الكتاب الهادية، وأشفيته الجالبة للعافية.

وفي البدء نستصحب المحصل بخصوص السور الأربعة المتقدمة، والتي تتحدث عن موضوع المعاد؛ «الزلزلة، والعاديات، والقارعة، والتكاثر»، وكلها تعالج مسألة الرقابة، بمعنى أنها تربي في قلوب المومنين بالآخرة، ضمير المراقبة الحي، وحسَّ انتظار الجزاء على السعي، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (38) ﴿وَأَنْ سَعِيَّهٖ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (39) ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَاءُ الْآوْفَىٰ﴾ [النجم: 38 - 40]، وهذه العقيدة إذا ترسخت نفت عن مسلك صاحبها كل نزوع لعمل عبثي أو باطل، فالذي يحذر الآخرة منضبط مستقيم على صراط الله، منتظر لجزاء الله، يحذوه الأمل ويدفعه الرجا، فيراعي الحقوق، ويهرب من كل أصناف العقوق⁽¹⁾.

تنبيه إلى ختم السور الأربعة السابقة بمسألة الجزاء والحساب:

نلفت انتباه الناظر في هذه السور الأربعة من هذه القصار إلى أنه في ختم كل واحدة منها تذكير بمسألة الآخرة والجزاء.

(1) يقول تعالى في بيان فضل من شأنه ترقب الآخرة وانتظار لقاء الله: ﴿أَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ هُوَ فَعِيلٌ لَّنَآ إِلَٰهٌ سَاجِدٌ أَوْ فَايِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهٖ فَلَوْلَا يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ لَآلِئِبًا﴾ [الزمر: 10].

ففي سورة «الزلزلة»: ﴿بِمَنْ يَّعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة: 8 - 9]، فبالله عليك لو استحضرت أنك ستجازي على مثاقيل الذر، وستثاب على الحسنات ولو بمقدار النملة وزنا، ولو صدقت أنك ستجازي على السيئات بقدر موازين الذر، وأن موازين الله القسط لا تغفل ذا ولا ذي، لو استحضرت هذه العقيدة كيف سيكون مسلكك، وقلبك وفؤادك، وأخذك وعطاءك، إنه سبيل الكون على صراط هداية الله ﷻ.

وفي خاتمة سورة «العاديات»: ﴿أَبَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْأُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۖ﴾ [العاديات: 9 - 11]، ومشكلتنا ما في صدورنا، من نيات المكر والخديعة، ومن خلاف ذلك من عزمات الصلاح، من تبيت نية الخير، ويدخل ضمن ذلك كل أنواع الرجاء والأمل في الله، وحسن الظن بالناس وطمع الخير في الأمة.

وفي سورة «القارعة»: ﴿بِأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُلَاقُهُ هَاوِيَةٌ ۖ﴾ [القارعة: 5 - 8].

وفي سورة التكاثر الختم بقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيُسْفِينِ ۖ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۖ﴾ [التكاثر: 6 - 8]، استحضر موقف السؤال عن النعيم، أين وضعته؟ ومن أين أخذته؟ وفيما صرفته؟

وكلها أمور لو استحضرها المومن بضمير الرقابة، ويقين الخبر الصدق من ربنا بما يقول، فإن أعمالنا ستنصلح، وقلوبنا سترتقي، زكاةً وطهراً بسبب هذه العقيدة.

ختم التزليل فرقانا بالأمر بالاستعداد ليوم الرجوع إلى الله :

ولمحورية هذه العقيدة، فإن آخر ما نزل من كتاب الوحي من كتاب الله فرقانا على صدر رسول الله ﷺ هو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى

كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿280﴾ [البقرة: 280]، والمدخل إلى يوم الرجوع هو الموت، وكلاهما بأجل مسمى، وكلاهما يأتي مُفاجأة وبغته، والشاغل عن هذين هو التكاثر المُلهي الذي يروم بصاحبه تحصيل كل شيء، فيريد الحصاد وهو هشيم، ويجمع الحطام، ويستنزفه اللهاث وراء كل متاع وسراب خادع، حتى يُفاجأ بانقضاء الزمن، وانتهاء فرصة الانصلاح، فإذا هو على مشارف الآخرة خالي الوفاض من كل زاد، يتحسر ويتندم على الفوات.

وقد كان الإمام البخاري رحمه الله ورضي عنه له بيت يردده في وقت فراغه يقول:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع فعسى أن يجيء موتك بغته

فإذا كانت الساعة بأهوالها، والقارعة بنوازلهآ آتية لا محالة، فإن الإنسان حري به أن ينصرف عن كنوده الظاهر، وحرصه المتواتر المستمر، وألا يبقى منهمكا في سباق الانسحاق، من أجل تكاثر فاسد الحصاد، بل من حقه أن يذكّر وينزجر، وينتبه لهذه الأمهات القارعة المكررة ثلاثا «كلا» ثم «كلا» ثم «كلا»، لحظات ثلاث في وجودنا المستمر حرية بأن تستحضر وتذكر، بعبرها وعظاتها، لحظة الموت، ثم لحظة البعث، ثم لحظة الوقوف للمساءلة، ولذلك تكررت كما مضى.

خمس سور في غاية الانسجام بين يدي مسك الختام؛

وبإثر هذه السور تطالعنا سور خمسة تترى، نظما في عقد غاية في الوئام والانسجام، وهي سور: «العصر» و«الهمزة» و«الفيل» و«آيات التعليل»⁽¹⁾، و«الماعون».

(1) المقصود بها سورة قريش، وهي المفتحة بالتعليل، وبعض أهل العلم يعدونها موصولة بسورة الفيل، مثل سورة الضحى والشرح، وسورة الأنفال والتوبة.

هذه السور الخمس الأولى، وتليها سبع سور جاءت مسكا للختام، وتاماما للتمام، وهي «الكوثر»، و«الكافرون»، و«النصر»، و«المسد»، و«الإخلاص»، و«المعوذتين»، وإذا كانت هذه الأخيرة جاءت في جملتها حديثا عن المصطفى وإليه ﷺ، فإن الخمسة الأولى تنظر إلى أمور حري بالمؤمن أن يلتفت إليها، ويقيم حياته على سبيل منهاجها، فهي كما سبق وإن كانت كأخواتها قصاراً، فإن ذلك قَصَرٌ وجازة وليس قَصَرَ قصور أو تقصير - حاشا كلمة الله ورسالته الخاتمة والتامة - وإلا فهي تحمل المعاني الكبار، وتخترن الأسرار، وهي في صدر المؤمن نور وسراج، وفي جعبته زاد وذخر بلا نهاية ولا نفاد.

سورة العصر الكافية في باب الحجة على الخلق:

سورة «والعصر» قسم بالزمان، زمنك، ومدة وجودك، أو عمرك الذي هو زمن حصادك وسعيك وكسبك، والفرصة الوحيدة التي بإمكانك أن تجعلها بابا للسعادة أو بابا للشقاء، العصر زمن فاضل، ومنحة من الله لك، فيه تقدم عصارة اجتهادك.

والإنسان في عصره محوط بأسباب خسر، وكل تحركه ينتهي به إلى خُسْرٍ، إلا إذا انتبه لقنطرة النجاة وجسر المرور بأمان، والذي يتركب من أمور أربعة بنص سورة العصر نفسها، التي يقول فيها أحد الأئمة الأعلام، سيدنا الإمام الشافعي رحمه الله: «لو لم ينزل سوى هذه السورة على الخلق لكفت حجة»؛ أي لقامت بها الحجة عليك.

الأعمدة الأربعة لقنطرة النجاة من الخسران:

قنطرة النجاة من الخسر المحيط بكل موجود بعصر، وسبيل الجواز والخلاص من الخسران المبين، هو ألا يغفل الإنسان عن عناوين الاستثمار المفيد:

1. الإيمان الصحيح،

2. والعمل الصالح،

3. والتواصي بهما؛ أي الدعوة إليهما.

4. والصبر عليهما والاستمرار فيهما إلى نهاية المسير.

إيمان بصدق ويقين⁽¹⁾، وعمل صالح على درب البناء والتمكين، وتواصي بإقامة الحقوق، تعريفا بها، وسعيا في إقامة صرحها، بهذه الأربعة يتحول العصر إلى ذخر، ويتخلص الإنسان من موجبات الخسر، المضیعة للأعمار، والمسقطه لكل اعتبار.

نموذج البغاة والطغاة والجفاة في سور «الهمزة» و«الفيل» و«الماعون» :

من بعد العصر تجيئنا سور تقدم لنا أمثلة للذين خَسِرُوا أنفسهم، وضل سعيهم، وهم إما بُغَاة، كما في سورة الهمزة، ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1]، وإما طغاة كما في سورة الفيل؛ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: 1] وإما جفاة كما في سورة الماعون؛ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ [الماعون: 1-3].

الوعيد الشديد لأهل البغي من الهمازين اللمازين :

يحدثنا القرآن الكريم عن نماذج من الخاسرين الذين ضربوا المثل فيمن ضاعت أعمارهم، والذين تُوعِدُوا بالويل والحطمة، وبالنار الموصدة، وبصناديق الجحيم المغلقة، المحكمة الاستيثاق في العُمد المُمَدَّدة، مقفلة عليهم وهو شر عذاب، ذلك بما صنعت أيديهم، خصوصا أولئك الذين فتحت لهم أبواب الدنيا المُربية، فتوهموا أنهم في محل الكرم، وأنهم منعمٌ عليهم، فقضوا حياتهم منشغلين بغيرهم، طعنا بألسنتهم وأيديهم، أولئك البغاة على الأعراض، الهمازون

(1) الصدق مدد الإخلاص، واليقين مدد الصبر، ذلك أنه لا يخلص إلا صادق ولا يصبر إلا موقن.

اللمازون، يهمزك في وجهك بالتعير، ويلمزك في قفاك بالاغتياب والتحقير، إذا حضرت عابك، وإذا غبت اغتابك، ولا يسلم أحد من لسانه.

والألْسنة إذا أسيء استعمالها يكون حصادها الجحيم، والسورة تتحدث عن الذين قضاوا حياتهم يسيئون إلى الناس، يؤذونهم ويهينونهم ويحتقرونهم، والنَّاسُ نَاسٌ، كُلٌّ في مقامه، بحسب اعتباره واقتداره، وبحسب الموضع الذي وضع الله إِيَّاهُ فيه، وهؤلاء يعتدون ويظلمون، ويتجاوزون الحدود، يقول الله تعالى في وصف نموذج من هؤلاء المجرمين، وأنهم كانوا يسخرون من المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (٣٠) ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: 29 - 31]، ضحك همز، وحرركات غمز، وحديث لمز، وكلها سخرية مقيئة.

مسؤولية الكلمة وخطورة حصاد اللسان :

واليوم، صارت للهزة والاستصغار قنوات فضائيات، ومجلات وجرائد ودوريات، ودور نشر، ... - إن صح التعبير - تخصص في هذا اللون من ألوان الإذابة، من غير ما تَبَّتْ، وهم على موعد مع النبذ، ﴿كَأَلَيْسَ بَذَنَ فِي الْخُطْمَةِ﴾ [الهمزة: 4] والنبذ طرد مع إهانة، جزاءً وفاقاً، ذلك أنهم أُهينوا بما أهانوا، واحتقروا وطُرحوا بما احتقروا وطرحوا من الأعراض، وسُخِرَ منهم بما استسخروا بهذه القيم والذمم.

إن موعد أولئك الذين شغلوا بهذا اللون من الاشتغال الرديء هو «نار الله» التي تحطم عظامهم، وتكسر جماجمهم، بما حطموا من قامات ذات اعتبار، بل إن هذه النار - كما حدثنا القرآن - تَطَّلُعُ على الأفئدة، فتحرق هذه القلوب المؤذية، بسبب ما أحرقت بأذاها اللساني أفئدة بريئة، والاستسغار من أناس أسيء إليهم إفكا وزورا وبهتانا، يقول الحق ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ③ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمَوْفِدَةُ ⑥ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفِيدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿[الهمزة: 1 - 9].

وصية النبي ﷺ لسيدنا عقبة بن عامر:

جاء سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه إلى سيدنا رسول الله ﷺ يقول له: يا رسول الله ما النجاة؟، فقال ﷺ: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك».

ثلاث وصايا كافية في باب الخلاص:

1. «أمسك عليك لسانك»، واشغله بذكر مولاك.
2. «وليسعك بيتك»، لترى بيتك وما منحك الله عطاءً عظيماً، فلا تستشرف إلى ما عند الآخرين، فتضيع نعمة الله، وتسقط من عينك، فتدخل في زمرة من حذر القرآن من صنيعهم؛ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 30].
3. «وابك على خطيئتك»، استحضر معاييك أولاً، وأصلح من حالك، وقوم من اعوجاجك، لأن بداية الإصلاح انصلاح الإنسان، لا يمكن أن يُشيع الإصلاح في الأرض من هو فاسد الذات والظلال، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج، وطلبك أترك في الإصلاح، فإذا كنت فاقداً للرشد فأنتى يجيء الرشد منك.

نموذج الطغاة وجزاءهم الوبيل كما في سورة الفيل:

سورة «الفيل» من سور التسلية للمصطفى ﷺ وللمؤمنين الأوائل، وفيها نموذج للطغاة، ونحن نقرأها موصولة بسورة التعليل، نصل سورة «الفيل»

بسورة التعليل، «لإيلف قريش»، وهما معا عند بعض أهل العلم سورة واحدة، كما الاستهلال في هذا الجزء المبارك من القرآن العظيم، «الضحى» و«الشرح»، واحدة في الاعتبار، ولا مشاحة في هذه الألوان من ألوان الاعتبار والتقدير.

حديثنا عن الطغاة الذين تجاوزوا الحد إلى التناول على المقدسات، فراموا هدم المعالم؛ أبرهة آت من اليمن يريد إزالة قطب رحي الشعائر، البيت الحرام، أعتق بيت بني لعبادة الله، ومسقط رسولنا ﷺ، في أم القرى حرم الله هذا، أراد الطاغية أن يزيل هذه المعالم التي جعلها الله قياما للناس، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَكِيدَ ذَلِكَ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 99]⁽¹⁾، ذلك أنه لا قيام للأمة بدون شعائر تربطها وتجمعها، وقبلة توحيدها، وملة تشد أزرها على صراط الله.

طير الأبايل تدك جيش أصحاب الفيل:

بماذا كانت هزيمة هؤلاء الطغاة؟ بآية الطير البغاث⁽²⁾، تقضي على كل طاع وعاد، طير ضعيف خفيف، خُطَّاف يحمل نارا من جمر جهنم، سماها القرآن «حجارة من سجيل»، يقذف بها كما قذفت قرى قوم لوط، ﴿بَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَاقِهَا وَأَمَّطْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِيلٍ ۖ مَّنْضُودٍ مُّسْوَمَةً ۖ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 81 - 82].

ويحدثنا القرآن عن حال أصحاب الفيل، وهم ألوف مؤلفة يرمون البيت الحرام بالرماح من بعيد، ويوجهون إليه الفيلة يقصدون هدمه، فإذا بهم أصبحوا

(1) قال النسفي رحمه الله في مدارك النزول عند تفسيره لهذه الآية: «قيام للناس» أي انتعاشا لهم في أمر دينهم، ونهوضا إلى أغراضهم في معاشهم ومعادهم، لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وأنواع منافعهم، وقيل لو تركوه عاما لم ينظروا ولم يؤخروا.

(2) قال أبو منصور الثعالبي في كتابه: فقه اللغة وأسرار العربية: بغاث الطير من أرداء أنواع الطيور، وكل طائر ليس من الجوارح يصاد فهو بغاث.

﴿كَعَصٍ مَّاكُولٍ﴾ [الفيل: 5]، يصبحون كالتبن الذي ديس في الحظائر - حظائر الأغنام والجمال - ووطئ بأرجلها وبيل عليه وريث؛ فامتلاء روثا وبولا وصار لا يصلح لشيء، وفي هذا إشعار أن للطغاة يوما، وللظلم ساعة ينتهي فيها وجوده، ولا تستعجل فإن لله في أزمنته حكما ومقادير هي مما طوي من الأسرار عن البشر.

سورة قريش تخبر أن إتلاف أصحاب الفيل كان من أجل إيلاف قوم النبي النبيل؛ في آيات الوصل من سورة قريش تذكير بأن ربنا ﷺ يجري هذه الألفاظ على عباده، لصيانة الحرمات، وليكمل لهم الإيلاف؛ والإيلاف يعني الألفة التي تجمع القلوب، حيث الأمن الغذائي والأمن الاجتماعي، فلا جوع ولا خوف، أطعمهم وآمنهم، وزاد فحماهم بآية هي في الحقيقة إرهاب لبعثة سيدنا رسول الله ﷺ، إذ ولد عام الفيل المدحور بآية الطير الأبايل.

ويشير ربنا ﷺ في ابتداء السورة إلى أن قريش أنموذج المجتمع الذي تقرش⁽¹⁾؛ يعني تجمع، لكن تقرشه بعد تفرقه لم يكن بكاف حتى يضاف إليه إيلاف يحصل ويعمق الاجتماع بالروابط التي هي تحصيل الأمن، ومنه تأمين السبل والمعابر والطرق، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم برحلة الشتاء والصيف، ثم تأمين الديار، ثم توفير الأقوات.

(1) قال صاحب القاموس في مادة «قرش»: قرشه يقرشه ويقرشه: قطعه، وجمعه من ههنا وههنا، وضم بعضه إلى بعض، ومنه: قريش، لتجمعهم، إلى الحرم، أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعات، فيشترونها، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوما، فقالوا: تقرش، أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا: كأنه جمل قريش، أي: شديد، أو لأن قصيا كان يقال له: القرشي، أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج «جمع حاجة هكذا بحذف الألف والتاء»، فيسدون خلعتها، أو سميت بمصغر القرش، وهو دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها، أو سميت بقريش بن مخلد بن غالب بن فهر، وكان صاحب غيرهم، فكانوا يقولون: قدمت غير قريش، وخرجت غير قريش، والنسبة: قرشي وقريشي.

إقامة الدين هو سر التأمين وسبيل التمكين:

تجيء الوصاة والعقد على السر الصائن للكل، وهو إقامة الدين ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [الذِّمَّةُ أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ] ﴿وَأَمْنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 3 - 5]، فليعبدوا لإيلفهم، أي ليكونوا على صلة بالله الذي آلف وأمن وأمن، وأطعم وسقى، وذاد عن الحرمات، وبغير هذا السر المصون لا يمكن أن ننجا من الفتون، ولذلك جاء الأمر بعبادة رب هذا البيت، الذي أقامه قبلة لوحدتكم، رب هذا البيت الذي جمعكم عليه من أجل أن تكونوا أمة ظاهرا وباطنا، لا أمة صورة وأمة ظل وأمة شبح.

المنع الملعون كما وصفته سورة الماعون:

يجيء الختم لهذه السور الخمسة «من العصر إلى الماعون» بأنموذج آخر لجفافة قساة، لا يؤمنون بحساب، ولا يخافون من عذاب، لا ضمير لهم يزعمهم ولا خوف يزعجهم، يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ [الماعون: 1]، أتريد أن تعرف الذي لا يؤمن بدين ولا بحساب، ولا بآخرة ولا جزاء، تعال لترى فهذه صفاته؛ أنه يدع الضعفاء ويقسوا عليهم، ﴿بَذَلَكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: 2 - 3]، يقطع الوصل، ويمنع البذل، جاف قاسٍ، لا يبذل الماعون، لا يصدر منه أي عون أو إسعاف، سلبية مطلقة في مجتمعه، وليس المراد أن يكون البذل العظيم الأكبر، فالجود بالدرهم عطاء، أو بنصفه عطاء، وبالكلمة الطيبة عطاء، وبالموقف وبالشفاعاة عطاء، وبالقدم تخطو به في اتجاه خير عطاء يحتسبه الله لك، وبالشوكة تزيلها، ... «الماعون» وهو ما يسمى بالمعن وهو أقل شيء يُحتاج إليه، حتى فسرهُ السلف بالإناء والموقد - موقد النار - وصحن الطعام، والكوب من الماء.

والذين يمنعون حتى هذه الأشياء القليلة، هؤلاء إذا صلُّوا أو صاموا أو تعبدوا، لا يتجاوز تدينهم السطح، ويكون كالصبغ الزائف الفاسد، الذي لا يؤدي وظيفته لا في تكميل ولا في تجميل، عبادتهم رياء كقشر وطلاء، وهي آيلة إلى جُفاء ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 19]. يقول تعالى متوعدا لأصحاب هذا المسلك الشنيع: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: 4 - 6].

وفي الذي سبق إشارة إلى أن الدين صلتان: صلة بالله، عنوانها صدق العبادة، لا رياء فيها ولا سمعة، وصلة بالناس بصدق محبتهم وخدمتهم في حدود الطوق والمستطاع، الكل للكل، من وإلى، فلا تتصور نفسك قطبا لتكون مُسَعِفًا، بل أنت مصدرا لتكون مُسَعِفًا، بشرط ألا تكون من ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾. فمحورية عقيدة الجزاء والمُساءلة إذاً، هي التي تجعل صاحبها موقنا بأن ربه لا يضيع أجره، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 142]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 121]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

ثلاثة لا يفعلهن الله :

من معاهد اليقين في شريعة التمكين، والفهم السليم في معرفة الله ﷻ كما يرسخها القرآن الكريم، أنه تعالى لا يضيع أجر المحسنين، ولا يهدي كيد الخائنين، ولا يصلح عمل المفسدين.

والمسلم الحق من سلّم للناس كلا، سلم الناس من لسانه ويده، لا يخاف الناس يده ولا لسانه، فيكون جواره مصدر أمن، المومن من آمنه الناس في

أعراضهم، إذا جاورك المؤمن فاطمئن، لا تخف من سوء الجوار، أما الجار المتلصص، والملقي بالأزبال عليك، والصاحب المتحين لخطيئتك، والمتصيد لعثرائك، والذي يهون عليه قطع الصلات، أمؤمن هذا؟ نعوذ بالله منه ومن أمثاله، الذين ربما يتوهم الواحد منهم أنه بمجرد مروره بالمسجد، واعتياده هذا اللون من ألوان المسالك كاف في إثبات النسبة، تَبَّ له من انتساب ليست له ثمرات مجتناة. المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس، والإيمان كما صح عن سيدنا رسول الله ﷺ قيد الفتك، يقيد صاحبه من أن يفتك ومن أن يهتك الأعراض، يقيده من أن ينهمك فيما لا ينبغي وفيما لا يجوز.

لا يهين اليتيم إلا الخاسر اللئيم:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون: 1 - 3]، الذي يدعُ اليتيم ويقهره ضيع الفرصة، وخسر ورقة رابحة في ميدان السباق، اليتيم حمولتك وركابك إلى الارتقاء، قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وأشار بالسبابة والوسطى في رمز إلى تمام الاقتران، ليس بينك وبين مقام الرسول سوى أشياء مقدورة، الذي يحيف في حق اليتيم الضعيف الذي لا سند له، لا يؤمن بالآخرة، لا يؤمن بأن اليتيم وإن لم يكن له أب، فله رب، وسيحاسبه، فربما قد تأكل ماله، وتستعجل وصاله، وتبادر أن يكون رجلاً إذا كنت ولياً له أو وصياً عليه أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَابْتَالُوا الْيَتِيمَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ أَشْتُم مِّنْهُمْ رُّشْدًا فَادْعُوا إِلَيْهِمْ ۖ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۚ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 6].

في أن الإطعام من أجل أفعال الخير في الإسلام:

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون: 3]، المسكين الذي أسكنه الفقر وقهره، وهذا لا يحض على إكرامه، بل يمنعه الماعون، هذا الذي لا يستفيد

من مدرسة التدين، يكون في انتظاره الويل والثبور، إن الدين والإيمان مدرسة تخرج أجيالا من مصلحين صالحين، أناسا متنورين يملؤون حياتهم وحياة غيرهم سعادة وأمنا، فإن كانوا بضد ذلك، فورب الكعبة لقد انتموا إلى مدرسة عنوانها عنوان زور، وانتسابها للدين انتساب غير مقدور.

خلاصة المستفاد من السور الخمس :

محصل مستفاد السور الخمس التي تقدمت على وجه الإيجاز، أنه جاء التنبيه بالعصر على أن الإنسان ينبغي أن يكون متبها لزمانه وآياته، وألا يفوت زمنه من غير كسب يشهد له لا عليه، وعليه أن يلتمس النجاة في هذه الأبواب؛ إيمان صحيح، وعمل صالح موافقا للشرعية، ثم تواصل بذلك يوسع دائرة هذا الإيمان والصلاح، تبادل التواصي والإيضاء، توصيني وأوصيك، والصحابة كانوا يطبقون هذه الآية في أنفسهم، فقد جاء في روايات كثيرة أن الصحابي كان يلتقي مع أخيه فإذا أرادا الافتراق قرأ كل منهما على صاحبه سورة العصر، كأنهما يتعاقدان ويتعهدان على ما فيها، ويتواصيان فعلا بالحق الذي جاء في هذه السورة العظيمة.

ثم يآثر العصر تذكير بأمثلة الخسر، من قساة وطغاة وجفاة، وتوعدهم بحصاد الضر، الذي سيجنونه بمصائد ذلك الكسب.

وبين قسم بآية الزمان ، وتشهير لأمثلة الخسران «الهمزة والفيل»، يجيء تضمين بيان أن سر الاستقرار كامن في حصول الأمن بقسميه، وسر هذا وسنده هو الاتصال بروابط الدين وتمتينها، فأمن الديار، وتوفير أدوات الاستثمار، والتعاون على الإعمار، والحفاظ على الأربطة التي تشد الحزام على الصراط، كل أولئك لا يكون إلا بحفظ الملة، وحماية القبلة، فالملة جامعة لأهل القبلة الواحدة، ونحن أهل قبلة، وفي هذا الانتساب ما يكفي في التوحيد، فوجب التعريف بشرعة الملة وترغيب الناس فيها، وليس فقط إشهار السيف بقطع

الرقاب إرهاباً للناس، لأن الداعية الصابر، والمصلح المحتسب، يرى الناس في مرحلة جهل، والجهل داء، وهم يحتاجون إلى من يطبهم بأشفية التوعية، وبعد التوعية يحتاجون إلى خلق ومسلك يقدم نموذج السيرة السوية، وذلك برهان الإسلام الأرضي، الناس لا يقدرّون إلا إذا رأوا سلوكاً عملياً، ومواقف إيجابية، ثم ساعتها تنقطع السنة المعترضين.

مسك التمام ولمحة الثمام⁽¹⁾ في سور الختام:

ونسرح الطرف في الختم بلمحة الثمام، فيما بقي من سور التمام ومسك الختام، كوثرًا وكافرون ونصرا ومسدا ومعوذات ثلاث، ويودع المفصل بهذه السور السبعة، والسبعة رقم كمال.

وكما استهلّت القصار بسورتي «الضحى» و«الشرح» تخصيصاً لبنينا بهذا المقام الذي خصه به الله ربه ﷺ، فإن الختم يودع بحديث معتبر ونفح معطر عن سيدنا رسول الله ﷺ.

فبالسورة المشهورة بأن للنبي العطاء الكوثر يستهل مقطع الختم، وبظهير العظمة المشعر بتمام الوصل وكمال الولاية، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1]، تودّع القصار ويودع معها القرآن كله بهذا الإعلان العظيم، إنا أعطيناك ومنحناك، وليس الكوثر نهر الجنة فقط - هذا أحدها - بل الكوثر الخير الكثير الوفير، المستمر الذي لا ينقطع، ومنه كثرة أتباعك، واستمرار شعاعك، وتحقيق رجاءك، وكان رسول الله ﷺ يأمل ويرجو أن يكون أكثر الرسل تابعا، وقد حقق الله رجاءه، نحن في القرن الخامس عشر نشيد برسولنا ﷺ، وتتحرك

(1) يقال: ثمه إذا أصلحه وجمعه، ويقال لما لا يعسر تناوله: على طرف الثمام، والثمام واليتموم كغراب وينبوت، نبت، واحده بهاء ويستعمل لإصلاح العين وإزالة بياضها. «القاموس المحيط، مادة ثم».

قلوبنا بنبض محبته، وألستنا بعطر صلاته، صلى الله عليه وعلى آله في الأولين والآخرين آمين.

من كوثر إلى كافرون، سورة تعلن براءة رسول الله ﷺ من لوثة الكفر سرًا وصوراً، ﴿فَلْيَأْيَأِهَا الْكَافِرُونَ﴾ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ④ [الكافرون: 1 - 4]، نزاهة رسول الله ﷺ أن يتلبس بأي شوب من ظلمة كفر أو كفران، صلته بالله غاية في النصاعة بياضا ونورا، وهو الضياء والنور كما سماه الله ﷻ.

المنة بالنصر والإرشاد إلى أبوابه :

ثم بعدها سورة النصر الذي وعد به النبي غلبةً على من عاداه، وفتحاً للديار المقفلة في وجهه، ليدخل النور إلى القلوب المظلمة، ومنها إلى تحقيق نصرته، وإرشاده ﷺ والمؤمنين من بعده إلى سبيل مواصلة الإكرام، وزيادة الإنعام، تسييحا بحمد الله رب الأرباب، ولزوما لباب المتاب.

ومن تمام النصر أن تعلم أن عدوك لن تقوم له قائمة من بعد، لذلك جاءت سورة المسد تتوعد عدو رسول الله بالتب والخسران، تبت يداه، اليد التي آذت النبي ﷺ، سواء كانت من ذكر أو أنثى، كانت بقلم رسم أو وسم، أو إذاية بصوت أو عبارة، أو لمح أو إشارة، تبت يدا المؤذون لك وشائنوك ومبغضوك، وكارهك وكاره دينك ومبغض شريعتك، تَبَّ وَبُتِرَ، وقد سبق في سورة الكوثر أنه هو الأبر، مقطوع الأثر ولا بد، ومُنْتَهٍ لا محالة بقدره الله صانع القُدَر.

الختم بالتحصين من الشر الظاهر والدفين بسر اسم الله ذي القوة المتين :

ومن سورة المسد إلى المعوذات الثلاثة، وسميت بالمعوذات الثلاثة لأن «الإخلاص» فيها وصف لله المستعاذ به أحدا صمدا، الذي حصن نبيه وختم له

بما أمره بالبدء به عند كل تجدد للصلة بالكتاب، فقد أمرنا بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم متى ما أردنا أن نقرأ القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَرَغْتَ أَفْرَءَ الْفُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98]، وختم الكتاب بما به الابتداء، وكأن الحق ﷻ يقول لنبیه: إن الله الذي استعذت به هو الأحد الصمد، الغني صاحب المدد، وهو الذي سيحيطك بأنواع التحصين، عيادة من كل شيطان رجيم، ومن شر كل جن أثيم، وإنسان لئيم.

والسر الذي به إعادته ﷺ وصيانتته وحياطته من كل شر وعدوان، من خفي وظاهر للعيان، هو ربوبية الله للفلق «رب الفلق»، الذي يملك الضياء التي تقطع الظلمة بفلقها، يقال: «فلق الفجر» للنور الذي يصدع الظلام فيفجره ضياءً. تعويد رسول الله ﷺ دليل حرمة العلية عند الله؛ إنا قد حميناك وعوذناك وأحطناك، فقل وأنت المجاب، ادعنا ونحن عند كلمتك، ﴿فَلْأَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1]، بل احاطته حتى من الوسائس الخفية الشيطانية، من ظلمة الصدر ووسواسه، وهذه العناية برسولنا ﷺ خصيصة له ﷺ، ولكنها مستمرة سرها في أمته بسر⁽¹⁾، ففيه حماية وحصانة لأمة الاتباع، وقد قال ﷺ منوها ومنبها: «ما تعوذ متعوذ بمثل هذين»، ويشير إلى سورتي الفلق والناس، ولذلك نقول نحن كذلك في الختم وبسره: نُعوذُ أنفسنا وأمتنا وأحبتنا، والكيان كله كبيرا وصغيرا، باسم الله الأحد الصمد، صاحب السند والمدد، من شر كل ذي شر، ومن كل ظلمة وفساد، وفتنة ومحنة ونكد، نعوذ أنفسنا وأمتنا صغرى وكبرى، وأحبتنا برب الفلق، من كل ألم وداء، من كل هم ويأس وأزمة وقلق، نعوذ بربنا من شر كل كفران، وشر كل خسران، وشر كل فساد وعدوان، وحمائتنا تحصننا بالله ربنا.

(1) ما من شيء خص به المصطفى ﷺ إلا وأعطى الله منه لأمة منه، وجعله مستمرا فيها إلى يوم الدين، ببركة الانتساب إليه ﷺ وشرف وعظم.

**فصل في معالم التكريم للمرأة
في سيرة النبي الكريم
صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾**

(1) أصل هذا الفصل محاضرة للشيخ سيدي مصطفى حفظه الله بالمجلس العلمي
بطنجة ، بمناسبة المولد النبوي الشريف.

معالم التكريم للمرأة في سيرة النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

علو مقدار زين المرسلين الأخيار ﷺ :

الحمد لله الذي ختم الوجود خلقا بهذا الوجود المكرم لديه المسمى إنسانا، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وجعل مسك ختام قمم الهداة فيه إنسانه الكامل؛ محمدا صلى الله عليه وعلى آله، الذي كمله وجملهن واصطفاه واصطفى له واصطفى منه، وجعله خيارا من خيار، وزاد فأقسم بحياته وزمن وجوده، بعنوان العمارة، وحقا إنه لعُمر عامر؛ كل أطواره أنوار، حفتها أسرار، عمر جهاد وتضحية، وجلاد وتركية، لإخراج العباد من الظلماء والغماء.

وزاد تعال فعظم شأنه مقسما على ذلك بأدوات المعرفة؛ ﴿نَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤ [القلم: 1 - 4]، ومن معاني «ن» في معجم البيان الدواة؛ دواة المداد، وهذا يناسب ذكر القلم من بعدها، «وما يسطرون» يحتمل حذف الصلة، بمعنى «ما يسطرون عليه»، فتدخل الأوراق، أو «ما يسطرونه» فيدخل العلم المنصوص المسطور، فيكون قسما بالعلم وأدوات الكتابة المخلفة لأثره في العالمين.

القسم بثلاثة على ثلاثة :

استهلت سورة القلم بقسم ثلاثي، بـ «النون» و«القلم» و«ما يسطرون»، وحصل القسم بهذه الثلاث على ثلاث:

1. نفى الجنة بكل صورها عنه ﷺ، اختلا لا وزیغا في الرؤية، وفساد فكر ووعيا، ما أنت بهذه النعمة التي خصصت بها نبوءةً وكمالا وتويجا بقمة الهداية، ما أنت بهذه النعمة مجنونا ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 2].
2. وبالصلة التي تتواتر مع تواصل الأزمنة والأعصر، ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: 3]، وإلى اليوم يرتقي سيدنا رسول الله في مقامات الكمال بصلاة المتبعين له وسلامهم عليه، وبكثرة الذين يؤمنون به، وبالكوثر الذي وعد به من ربه، ﴿إِنَّا أَغْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1].
3. والقسم الأتم على كمال خلقه الذي عظمه الله، وليس وراء تعظيم الله تعظيم، «وانك» التوكيد بأن المؤكدة للنسبة، واللام، وعبارة «على» الدالة على التمكن، تقول: فلان على هدى، وهو أبلغ من قولك: فلان مهدي أو متخلق، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. مستولٍ عليه ومتمكن من ناصيته تقوده أنى شئت، ورسولنا بعث لتتميم المكارم قال ﷺ معرفا بالحكمة من بعثته: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

رسالة النبي بينته ومسلكه حُجَّتُهُ :

وقد جعل الله رسالة هذا النبي بينته؛ هي دليل كونه نبيا، وجعل مسلكه الشريف حجته، وصدق فيه قول القائل:

لو لم تكن فيه آية مبيّنةً لكان مسلكه ينبيك عن خبره.

صلاة الله عليه في الأولين والآخرين وفي الملاء الأعلى إلى يوم الدين، وسلامه تعالى على المصطفين الأخيار، والسلام منه موصول للوارثين من أهل الصلة، ورحمته مغفرته للواقفين بالباب والمتمسكين بالأهداب، والملتزمين بالآداب.

اللهم يا منزل الكتاب ومجري السحاب وفاتح الباب، طهر السريرة ونور البصيرة، ولا تؤاخذنا بجريرة واغفر لنا كل كبيرة وصغيرة، اللهم عونك فيما نحاول، عفوك عن الزلل المُداخل، ومددك الممدود لكل متعرض متوسل سائل.

سيرة المصطفى ﷺ ذكر محفوظ بما حفظ به الذكر:

القرآن ذكر، ونبينا ﷺ ذكر، وحياته وسيرته من هذا الذكر، بل إنها محفوظة بالذكر؛ أي بما حفظ به الذكر، ذلك أن الله ﷻ وكل إليه أمر بيانه في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، وقد بين بلاغا بتعليم النص، وبيانا شارحا بسنته وحكمته وسيرته، وجلّى المحجة تجلية بما يقطع الخلاف في مطالب الكتاب.

وحيثما نرد مائدة السيرة النبوية فإننا نصطحب فيها أو نصحب فيها أنفاس نبينا صلى الله عليه وعلى آله، إذ لم يتأتى لنا صحبة نفسه الشريفة ﷺ، ومعنا عشاق الكمال الأحمدى الذين هم تحديدًا أهل الرجاء والخشية، والحب لهذا الكمال الأسنى، يشير إلى ذلك قول ربنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]، وكلمة «ذكر الله كثيرا» تتكرر في القرآن للتدليل على الحب، لأنه من أحب شيئا أكثر من ذكره، فأهل المحبة والرجاء والخشية، أهل الضمير المتعلقون بالله صاحب المثل الأعلى، هم الذين يعرفون محمدا ﷺ.

لا يمكن أن تكون ربانيا دون أن تكون محمديا:

وعندي أن عنوان الرسالة ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 78]، هو كقولنا «كونوا محمديين» إذ هما وجهان لعملة

واحدة، لكي تكون ربانيا ينبغي أن تكون محمديا في الاقتفاء والاقتداء.

متابعة هذا النموذج الأكمل هو الجسر إلى الحب الأتم الأعظم، قال تعالى:
﴿فَلِإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

التوبة والصحبة أصول الوصول إلى مقام المحبة:

ودعامتا هذا اللون من ألوان الاقتراب من الحضرة الأحمدية توبة وصحبة، وكنا نقرأ من المتون العلمية التي قررها علينا أئمتنا في الابتداء متن «المرشد المعين» للإمام ابن عاشر رحمه الله، وفي ختمه بعد دراسة العقيدة والأحكام العبادية، نجد كتاب «مبادئ التصوف وهوادي التعرف»، والذي ابتدأه بالتوبة وختمه بالصحبة، فقال رحمه الله:

وَتَوْبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ يُجْتَرَمُ تَجِبُ فَوْرًا مُطْلَقًا وَهِيَ النَّدْمُ
إلى أن قال:

يُصَحَّبُ شَيْخًا عَارِفَ الْمَسَالِكِ يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكُ
يُذَكِّرُهُ اللَّهُ إِذَا رَأَاهُ وَيُوصِلُ الْعَبْدَ إِلَى مَوْلَاهُ.

وهذان الدعامتان: التوبة والصحبة، يبنيان على الأمانين اللذين ذكرا في الكتاب ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33]؛ وجود رسول الله ﷺ في أمته أمانة لها، وفي معناه حضوره بسنته، وجوده المذكورا متبوعا، مصلى عليه، منشورا عرف ذكراه وكمالهم الأحمد.

تحصيل مقام الصحبة بدوام الاستحضار ومقام التوبة بدوام الاستغفار:

وربما يجيء اعتراض من البعض فيقول: إن الأمان الأول قد مضى ولم يبق معنا إلا الأمان الثاني، أي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، نقول له: إن بإمكاننا أن

نجعل النائب من الحضرة النبوية استحضارا، يقوم بعض مقام الحضور، ويسعفنا في ذلك قول نبينا صلى الله عليه وعلى آله منوها: «وددتُ لو أني رأيت إخواني»، فقال أصحابه: يا رسول الله أولسنا إخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعدي، آمنوا بي ولم يروني»، اللهم اجعلنا من إخوانه.

استحضار واستغفار يقومان مقام الأمانين، ونحن فعلا في أمانة ما دمنا نضع هذا المثل الأعلى نصب أعيننا، ونستغفر ربنا اعتذارا مما قصرناه في جنب اللُّحوق أو في جنب التدارك، أو في جنب السير خلف هذا النور السني الذي ينير الدرب.

نعود فنقول ربطا لما قصدناه من الانتساب لهذا الجنب العلي في مشروع التعريف - وهو أمانة - بهذا النبي الكريم صلى الله عليه في الأولين والآخرين، لأن التعريف هو في نفسه صلاة؛ الذي يعرف بالنبي يصلي عليه، والذي يدافع عنه يسلم عليه، لأن السلام على النبي ليس لفظا، وإنما جهادا من أجل النصرة، والدفاع عنه ﷺ في وجه السفهاء من الذين يجهلون أنوار النبوة، وهما قسمان: أهل افتراء، وأهل اجتراء، ولنا وقفة معهم إن بقي في المقام ما يتسع للمقال بإذن الله.

بين يدي الموضوع المرفوع في عنوان هذا المحور، والذي يقول: كيف هو ﷺ مع نسائه أو مع نساء أمته؟ كيف هي عشرته للموافقة والمفارقة؟ ولا يمكن أن يكون الجواب المختصر إلا بقولنا بأنه كان ﷺ يعاملهم بما أدبه به الكتاب، لأنه كان قبسا من نوره، وكان مَجْلَى لبيئاته، وكان رحمة من رحمات الله متجلٍّ على هذا الكون، وقد لقنه الله أن يقول: «أنا الرحمة المهداة، ويوحى إليَّ بالسنة كما يوحى إليَّ بالكتاب».

وأشير في البداية إلى أن الحديث عن تعامل النبي ﷺ مع نسائه خصوصاً، ونساء أمته عموماً، حتى أولئك اللواتي هن مشروع نساء؛ أقول الإناث، هذا الحديث ينبهنا إلى الخصومة المفتعلة في الثقافة المعاصرة بين الذكر والأنثى، والرجل والمرأة، والنساء والرجال، وهي أشياء أجنبية تماماً عن ثقافتنا وفكرنا، غريبة كلاً عن أحاسيس الفضلاء من المنتسبين لهذا الجنب العظيم.

حديثنا عن نبينا في هذا الجانب هو حديث عن جانب من الذكر المحيي، والنور الهادي إلى صراط الله، وأهمية هذا الموضوع في كونه يلهم ويعلم، ويضع المفاتيح البسيطة بين يدي السائلين عن مخرج لبعض الأزمات التي تبدأ صغيرة، ثم تتفاقم والتي أدت أحياناً إلى هدم بيوت وأخرى في الانتظار، نعوذ بالله من سوء المصير.

كيف تحدث القرآن عن النساء؟ نتساءل هذا السؤال لأن القرآن هو ديوان البصائر الذي يمتاح منه النبي ﷺ، وقد سُئلت أمنا عائشة رضي الله عنها، ومن حقنا أن نستشيرها نحن ونعيد السؤال، يا عائشة الصديقة، لخصي لنا هذا البحر، بحر أخلاق رسول الله في كلمة موجزة، فتقول: «كان خُلُقُه القرآن»، القرآن كله، متى ما وجدت كمالاً، أو ثناء على فضيلة، أو مدحاً لسماء في الأخلاق والقيم، فرسولنا له القدح المعلى، وله النصيب الأوفر منها كمالاً وسناء.

«كان خلقه القرآن» خبر يحيل على البحر، ويدل منذ البداية على عسر الإحاطة بأخلاقه ﷺ وعلى آله، ثم عسر الصلاة عليه بما يستحقه، لذلك كانت الصلاة عليه منّا نحيل فيها على صلاة الله، نقول: اللهم صل عليه، وفي العبارة شعور بالتقصير غاية، وإعلان بالعجز إلى النهاية عن أن نثني عليه ﷺ الثناء المناسب لمقامه، اللهم أنت تولى الصلاة عليه، لأن الصلاة والثناء ينبنيان على المعرفة،

لا يمكن لأحد أن يثني على أحد وهو لا يعرفه، وإذا كانت المعرفة دون مقامه فسيجيئ الثناء دون المقام، وهذا شأننا مع نبينا ﷺ للأسف.

لا يعرف الشبيه إلا الشبيه أيها البحر لسنا سواء.

فكان المدخل إذا إلى هذا الجانب من سيرته العطرة ﷺ، أو نقول إن الإبحار إلى هذه الجزيرة العظيمة الغناء يكون من محيط هذا الكتاب العظيم المسمى: بصائر، وبينات، وهدى، ونور، وذكر، ...

التعريف برسول الله ﷺ تعريف بالإسلام:

ونذكر بأن من مقاصد السيرة في كل جوانبها - والسيرة علم، بل علوم بلغت سبعة أو ثمانية علوم؛ منها علم العشرة، ونقول: هذا علم عشرته ﷺ، وقد أفرد بالتصنيف، وفيه أبواب في كتب الصحاح والسنن، «باب عشرة النساء»، والإمام النسائي من العلماء أصحاب السنن له كتاب اسمه «عشرة النساء»، مصنف منفرد بوب فيه لأزيد من سبعين ترجمة في أكثر من أربعمئة حديث مسندة -، قلت: من مقاصد علم السيرة تجلية نموذج الاقتداء لأتمته، وتعميق حبه عند المنتسب إليه، لأن المحب بقدر ما يقف على محاسن محبوبه بقدر ما ينشد إليه ويتعلق، ثم إن هذا الحب في نفسه يُيسر الاقتداء؛ «إن المحب لمن يحب مطيع»، يُيسر المتابعة ويُفعلها ويجعلها على أيسر الوجوه وأكملها، ثم فيه تعريف أيضا بالإسلام نفسه، لأن الإسلام هو هذا النبي في حركته وسكونه، في يقظته ومنامه، في قلبه، في حربه وسلمه، في حبه وبغضه، في أحاسيسه، في إشاراته، في صمته، ... في كل شيء منه، وفي كل شيء فيه وإليه، كل أولئك ذكر يستحق أن ينشر وأن يذكر وأن يفكر فيه.

الأنموذج والمنهاج في سيرة السراج الوهاج:

نعود إلى الكتاب فماذا نجد فيه؟ نجده يقدم لنا النبي من خلال أنموذج ومن خلال منهاج:

الأنموذج الأسنى الرضى في مثل قوله ﷺ ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]، ونكتفي بهذه الآية لعدم تأتّي الإحاطة بأمثالها ولو على مستوى الذكر.

ومنهاجه الأرضى في تزكيته لأتمته من خلال آية المنّة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمِنْ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

الأنموذج الأرضى:

نجد في آية الأنموذج الأولى تنبيهنا إلى أن أخلاق نبينا تختصر في كلمة واحدة هي: «لين خطابه وجنابه»، كان ﷺ لنا كله، في ظاهره وباطنه، في سره وسريته، ونقول بلغة الصحافة اليوم، بأن خلفية هذا اللين من رسول الله ﷺ هي الرحمة العظيمة المودعة في فؤاده الشريف ﷺ.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ﴾، «ما» صلة يسميها المعربون زائدة، فاصلة بين الباء ومدخولها، «فبما رحمة»، تقديرها، فبرحمة ما، ما أجلها من رحمة، الله ﷻ عظمها مثنيا وهو الذي أودعها ومنحها إياه، وهو الذي مدحه، وله الحمد في الأولى والآخرة، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾، والحديث عن أتباعه ﷺ وغيرهم ممن بعث فيهم، وهذا لينه طافح في صفحات السيرة مع الموافق والمفارق، مع الذكر والأنثى، مع الصغير والكبير، كله لين ﷺ، ثم يشرح القرآن فيقول: ﴿وَلَوْ

كُنْتَ بَطْطًا»، والفظاظة عنف في القول والخطاب، ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾، وغلِظَ القلب قساوة في الفؤاد، وهي مرجعية الفظاظة، لا عنف في أخلاق النبي ومواقفه وسيرته ﷺ، لا لفظي ولا غير لفظي، فنبه بالأدنى على الأعلى، ولو كنت فظا غليظ القلب فضلا عن عنف آخر يتجاوز اللفظ إلى الحس والإيلام الفعلي، ﴿لَا تَبْضُؤْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، ليرتب عليه ما ينبغي أن يكون عليه من المواقف، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ﴾.

والآية لكي يتم شرحها نضعها في سياقها كما يقتضيه التدبر في كل آي الكتاب، لأنها خلية في كائن، ولأنها جزء من نسج اسمه «السورة»، هذه السورة هي سورة «آل عمران»، والسياق سياق الحديث عما حصل في أعقاب غزوة أحد، وما بُلي به المسلمون من هزيمة بسبب ما كان منهم، ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ فَدَأَبْتُمْ مِّثْلَهَا فَلَئِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا بَرْقًا مَعْبُورًا﴾ [آل عمران: 165] لما أصابتكم مصيبة في «أحد» قد أصبتم مثلها في «بدر»، ولقد صدقكم الله وعده في الابتداء فانتصرتهم، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152]، لما خالفتهم النبي حين أمر الرماة أن يلزموا مواقع الحماية، فخالفوا ثم زادوا فحانت منهم التفاتة إلى دنيا في صورة مسارعة إلى الغنائم، فكان التأديب قاسيا، وكانت التزكية حمراء كما يقول الأدباء.

حصل منهم ذلك، وقصه القرآن الكريم، ثم قال تعالى بعد ذلك مادحا النبي ﷺ بما منحه، ومنوها بهذا الوصف الذي جُلِّي به ليكون مثالا كما أراده الله، مدحه بثلاث، وألزمه بثلاث:

مدحه بإثبات الرحمة العظيمة «بما رحمة»، وهي مرجع الوصفين اللاحقين،
 لين الجناب «لنت لهم»، وطهارة الخطاب، وصفاء القلب من أي ارتياب، ﴿وَلَوْ
 كُنْتَ بِظَاغِلِظِ الْقَلْبِ﴾ نفى عنه الفظاظ والغلظة والعنف أصلا وأثرا، ووصفه
 بالرحمة الكاملة، وجلّى أثرها بهذا اللين الذي شع من فؤاده الشريف صلى الله
 وعلى آله.

وأرشده بقوله: ﴿بَاعَفْ عَنْهُمْ﴾ فيما يرجع لحقك، لأنه أمرهم فعصوا، وأنهم
 لم ينصروه، فتخلوا عن أماكنهم وهزموا إذ فوجئوا من خلفهم، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾
 فيما يرجع لحق الله، شفاعته منك لهم عند ربك، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، أمر
 الجماعة وشؤون التدبير، أبق على موقع اعتبارهم، لا تسقط لهم اعتبارا بسبب
 هذه الخطيئة أو الخطأ، وهذا مما يلفت نظر المتدبر لتكميل الله نبيه بهذا اللون
 من ألوان الإلزام، لأن القرآن هو الذي زكى النبي ورقاه ليكون النموذج الأكمل،
 يخاطبه ربه قائلا: هذه المنح منا إليك، وهذا الذي يلزم ترتبا على هذه المنح،
 وما ينبغي أن تكون عليه في مواقفك مع أتباعك، أعف، واستغفر، وشاور، ثم
 إذا عزمت الأمر ورتبت الأسباب، فدونك جهاد الحق، فتوكل على الله، إن الله
 يحب المتوكلين.

المنهاج المرتضى:

في آية المنة برسول الله ﷺ نجد بيانا لمعالم المنهاج المرتضى، نجد المنة
 علينا لأنه بعث فينا من أنفسنا ومنا، يتلوا علينا بالبيان والبلاغ ما تنزل إليه بغرض
 تركيتنا، بالكتاب فرضا، وبالحكمة استنباطا وحسن فهم يكمل الكتاب، والسنة
 مكمل للكتاب.

النساء والرجال من أصل متحد، ومخاطبون بخطاب واحد :

وهكذا ظل النبي ﷺ يزكي أمته، رجالها ونساءها، ذكرانها وإناثها، بما يخصهم أو بما يعمهم، وجاءت سنة النبي ﷺ ومواقفه على غرار القرآن الكريم، حيث الخطاب يعم الرجال والنساء، لأن المخاطب إنسان مكلف، فلا نقول إنسان وإنسانة، الإنسان إنسان ذكراً أو أنثى، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، فاندرجت الأنثى في الخطاب، وكذلك في ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ونظائر ذلك، وسيجيئنا إن شاء الله أن إحدى أمهات المؤمنين ما إن سمعت قول النبي ﷺ: «يا أيها الناس» على المنبر حتى خفت لتلقى الأمر منه ﷺ، ثم تقول لصديقتها: إننا دعينا للإصغاء، فكيف فهمت ذلك؟ فهمته من فصاحة البيان التي رضعت ألبانه، ذلك لأن المعاني لا يدخلها التذكير والتأنيث الحقيقي، فنقول في الصدق ليس فيه مذكر ومؤنث، والخشوع ليس فيه مذكر ومؤنث، حتى التصديق المادي ليس فيه مذكر ومؤنث، والتأكيد على مسألة التذكير والتأنيث فيما يرجع لهذه الأمور التي لا تذكر ولا تؤنث، إنما هو من النزغات التي دخلت مع الفتنة بالغرب، فتنة المغترب غير المنتسب، الذي يحمل معه مثل هذه الأنواع من فساد الوعي، الذي ينبنى عليه فساد الخطاب والسعي، ومن ثم حصول الفتنة.

نعود للقول بأن أهمية الموضوع تجيء من كوننا بحاجة إليه باستمرار، لأننا لا يمكن أن نستغني عن النساء، ولا يمكن للنساء أن يستغنين عنا، ولا يمكن للمجتمع أن يخلو من هذا العنصر، أو قل هذا الصنف، بل قل هذا النصف، كما يجيئنا صراحة في نصوص السنة.

ونتساءل؛ أيجوز - مع ما سيجيئنا من مواقف النبي ﷺ وحسن عشرته وتكريمه للنساء، وتكريم الكتاب لهن - أن يكون هذا الصنف، ولا نقول: الجنس، هذه كلمة أكرهها، لأن النساء، والمرأة ليست جنساً آخر، هذا خطأ، إنما هي من

ذات الجنس، فهي منه، فلنقل إذا مع المناطق هي صنف يشملها جنس أو أحد، وهو جنس الإنسان، فهي صنف أو قل: نصف، أيجوز أن يكون هذا الصنف محل جور وظلم من النصف الآخر؟ كيف يجوز لصنف أو نصف أن يجور على نصفه بغير نَصْفَة؟ لينتهي الصراع إلى إسقاط النصفين، وندخل في بوابة الفتنة انزلاقاً وانحداراً وهبوطاً إلى أسفل سافلين.

إذا كان تصرف النبي ﷺ وسلوكه، وسيرته الشريفة في الحقيقة ترجمة لما وعاه من أدب القرآن وأخلاق الكتاب، وإذا كان التصرف هو في الحقيقة مظهر للتصور، إذا كان السعي هو مجلّى للوعي الذي يحمله الساعي، فإننا حينها نرجع إلى أدب الكتاب نسأله عن مكانة المرأة التي جلاها النبي ﷺ في خطابه وسيرته، وتصرف وفقها حذو القدة بالقدة، فنجدته يشير إلى معالم التكريم، ووجوه الالتقاء بين النساء والرجال تقريبا يكاد تلغى معه الفوارق، ونقول «تكاد» حتى لا نسقط في فتنة القائلين بالتشابه المطلق، والذين يريدون لنا أسراً مثلية شاذة، ويريدون لنا أنثى تعيش على أعصابها، رافضة متدمرة من وجود أخيها وشقيقها الرجل، رافضة لقوامته مهما تكن، ولو لم تكن مستبدة، رافضة لأنوثتها، وهذا وعي مَرَضِي تجلياته لن تكون صحية أبداً، وعواقبه لن تكون مَرْضِيّة بالتأكيد.

المرأة زوج الرجل، واختلافهما في الصفة لاختلافهما في الوظيفة :

كتابنا يقرر أن النساء والرجال من أصل واحد، وسوره يحمل بعضها عناوين تظهر للمتدبر المكانة التي خصصها القرآن للمرأة، فنجد سوراً خاصة تحمل هذا الاسم سورة «النساء»، وسورة «آل عمران»، وهي سورة الأسرة الفاضلة التي تقوم على امرأة عمران، حنا وبناتها مريم، وفيها نقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ إِصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا

وَأَلْ إِبْرَاهِيمَ وَأَلْ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ [آل عمران: 33 - 34]، ثم تبدأ القصة، ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35] وتبدأ، وفيها نقراً عن الصديقة مريم، والقرآن يسميها، واسمها بالعبرانية يعني عابدة الرب، أو المندورة لخدمته، التي نذرت لخدمة بيته بيت المقدس، إن الله اصطفاك يا مريم، إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، بل جعل اسمها عنوان سورة من سوره.

وفي صدر سورة النساء، وهي سورة خصصت لأحكام النساء، وصدرت بآية جليلة هي تلکم التي تدل على الاشتراك في الأصول، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، الله خلق الناس من نفس واحدة وجعل منها زوجها، سواء باعتبار الأصل كما يشير إليه ظاهر النصوص أن حواء خلقت من ضلع آدم، أو خلق منها زوجها؛ أي خلق من ذات فطرتها ومن نفسها، لأن «من» تدل على كمال الصلة، تقول فلان مني وأنا منه، تأكيد الصلة والتماثل والثاقفة، حتى قال بعض أهل العلم في تفسير قول النبي ﷺ «العجوة من الجنة»، أي أنها شبيهة بطعام الجنة لأنها شفاء وغذاء ودواء ولا شيء فيها يرد ولا فضلة فيها. «وبث منهما رجالا كثيرا ونساء» أي ونساء كثيرات، فالأصل مشترك، وإن اختلفت الصفة فلاختلاف الوظيفة.

واختيار عبارة زوج في قوله تعالى: «وخلق منها زوجها»؛ ونقول الزوجة كذلك، لكن الأفصح أن تقول المرأة زوج والرجل زوج، ولا نفرق بينهما بتاء التأنيث الفارقة، لأنه لا حاجة بها، فالزوج هو النظير المكمل المقارن؛ المقارن من الازدواج نقول «زَوْج نعل» و«زوج نظارة»، بمعنى أن الفرق بين هذين فرق

في الموقع، هذه في اليمين وهذه في اليسار، وإلا لو تأملت هما معا لاشتبه عليك، وكأن الفرق بينهما إنما هو في الوظيفة، التي هي وظيفة التكامل كما سيجيئنا في الفرق الذي يثير شغب بعض المتنكرة للأصول، والذين يشيعون للاغتراب عقدا وسلوكا.

ولفظ «البث» في الآية بمعنى النشر من أصل وجذر واحد، أي نشر مفترق من أصل متفق، وفيه حوالة على أن هذه الفرقة مهما افتعلت أو تطاول المدى عليها فإنها سهل ردها بمقتضى وحدة الأصل الذي انبث منه وانتشرت، وربنا ﷺ في سورة الفرقان - وإنا في بحر القرآن نرجع إلى وعي النبي ورصيده في الكتاب الذي من خلاله يتحرك ﷺ في سعيه، حتى إذا وقفنا على مواقفه الشريفة ظهر لنا هذا التجلي، كيف يحتكم إلى القرآن، كيف يعيش بالقرآن في مسلكه مع نساء أمته - يقول تعالى في سورة الفرقان التي تعالج الفروق الكبرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54]، خلق من الماء وجعله هو في نفسه نسبا وصهرا؛ أي من نفس ذلك الخلق من ماء جعل الذكر والأنثى، و«النسب» لحمة قرابة من جهة، و«الصهر» وسيلة صهر لتذويب الفوارق كما تصهر الحديد ليكون مادة واحدة وخالصة من الشوائب، والصهر لمادة الملاط، والمساك لينشد الجمع للمفترق، يقول تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

ونظير آية النساء في سورة الحجرات التي فيها تنويه بيت النبوة حيث مقامه ﷺ مع نسائه، وأنها محل تعظيم إلهي فائق؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: 4]، المراد هنا عقل الأدب، أكثرهم لا يعرفون معنى الأدب مع النبي، وليس المعنى عقل الإيمان، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، فالغاية من الخلق المختلف ذكرا

وأنثى، وشعوبا وقبائل «لتعارفوا» فتآلفوا، لا لتخالفوا، حتى لا يفسر الاختلاف بما ليس من حكمته، وهو هذا اللون من ألوان التعارف الممكنين.

كمال مريم بالصدقية وكمال آسية بطلب العندية :

«كمل من النساء آسية ومريم» كما صح عن سيدنا رسول الله ﷺ، قال أهل العلم: وكمال مريم بالنص على صديقيتها، وليس وراء الصديقية إلا النبوة، وكمال آسية في أنها تحملت شيئين خطيرين قد لا يتحملهما الرجل الجلد، وهما الإغراء والإيذاء، إغراء البلاط لها بالترف فتجاوزته، ثم أوديت بأشد الأذى من الطاغية - زوجها فرعون -، وقالت: رب اعطني «رب ابني لي عندك بيتا» بيتا لا أريد قصورا، بيتا ولكن عندك، وقدمت «عندك» لأنه هو مشتهاها، تريد القرب الإلهي، وتشتاق إلى الحضرة الإلهية، وهذا هو محركها بالقوة للامثال، ولتجاوز هذه الصعاب، لا للإغراء ولا للإيذاء، أريد عنديتك وقربك، ولذلك ضربهما «مريم وآسية»، ضربهما مثلا للذين آمنوا فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْفُؤَمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكَتَبْنَاهُ فِي لَحْمِهَا وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِيَاتِ ﴿١٢﴾﴾ [التحریم: 11-12].

الاستواء بين الذكر والأنثى في باب الإجابة والإثابة :

وفي السورة التي تتحدث عن الأسرة الفاضلة، التي منها البتول الكاملة، مريم الصديقة، في سورة آل عمران آية ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، استجاب لهم ربهم أنه لا يضيع عمل عامل منهم، سواء كان ذكراً أو أنثى، لأنه بعضهم من بعض، هكذا بالإبهام الذي تساعد فيه لغة البيان المعجز ولم يقل: «ذكر من أنثى»، ولم يقل: «أنثى من ذكر»، قال: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ فأبهم الجهتين، وذلك حتى لا يفتح

باباً لنزغات أهل الزيف الذين يرومون المتشابه وينسون المحكمات، قال تعالى:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرُوا أَنِّي بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ بِالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَوَدُّوا فِي سَبِيلِي قُتِلُوا وَفَتَلُوا الْأَكْفَرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجَرُّهُ مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195]، فالإجابة والإثابة
لكليهما سواء، «استجاب ... أني لا أضيع عمل» وهو إثابة العامل، وإجابة
الداعي، دعواتكم المرفوعة سواء، وأعمالكم الصالحة المرفوعة سواء، في
الجزاء وفي الدعاء.

عناية القرآن بشؤون الأسرة ورفعها إلى مقام العنوان في عدد من سوره:

وسور مثل سورة الطلاق، وسورة الممتحنة أو الامتحان، وسورة المجادلة،
وسورة التحريم، هذه كلها شؤون أسرية تحمل عناوين سور، لتقول إن ربنا
يأمرنا بالاهتمام بهذه الأشياء التي قد تبدو في عين البعض صغيرة، وهي ذات
أثر خطير، كيف أن الله يصغي لامرأة تشكو من زوجها ظهاره لها أو ظهاره منها،
بعد أن كبرت وكثر الولد منها، فأراد أن يظاهر منها وحرمها على نفسه، «خولة
بنت ثعلبة» فنزل القرآن يقول: ﴿فَدَسَمَعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَوَاوِرِكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، والتي جعلت الفاروق
عمر في خلافته تستوقفه امرأة وهو في الطريق ومعه أكابر قومه، فيدعهم ويخف
إليها ويضع كنفه عليها، ويطأطئ رأسه ويصغي إليها، فيتعجب صحبه منه، حتى
إذا أتم قال لهم: أتدرون من هذه؟ إنها تلك التي سمع الله شكواها من فوق سبع
سماوات، ووالله لو استبقتني إلى الليل لبقيت حتى أقضي حاجتها، رضي الله
عنك أيها الفاروق، وهذه تربية النبي لهم، مجلى آخر غير مباشر لتجلى الرحمة
النبوية ممثلة في فاروق الأمة.

بل إنها أغلظت له في الكلام حين قالت: لقد كنت عميرا فصرت أميرا، فأصغى واستمع ولم يرد، بل يقول: كيف يستمع الله لشكايتها فلا نستمع نحن إلى نصحتها وخطابها؟

الإفصاح بأعلام نسائية في خطاب الإنذار والبلاغ؛

وها هو ذا نبينا ﷺ وقد تنزل إليه الأمر بإنذار العشيرة؛ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَفْرَيقِينَ﴾ [الشعراء: 213]، فيصعد الصفا ويخاطب بقوله: «يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله» ثم يزيد فيصيح: «يا صفية عمة محمد ﷺ، يا فاطمة بنت محمد ﷺ، اشترى أنفسكما من الله، فإني لن أغني عنكما من الله شيئا»، كيف يفصح النبي ﷺ بأعلام نسائية في خطاب الإنذار والبلاغ، على الصفا وهي من شعائر الله، في أمة كانت تحتقر الإناث، حيث لم يكن للأنثى حظ إلا في مواطن الفتنة والاستخفاف، والاستعمال الرديء، في بيئة تئد المرأة طفلة صغيرة، وترثها زوجة، لأنها من جملة متاع الهالك، وتعصلها عن أن تتصرف في مالها أو في نفسها أو في اختياراتها.

وربنا ﷺ يخبرنا بأنه سيعقد فصلا في يوم الجزاء للموءودة، وهي دفن جاهلي فيه ظلم للأنثى، التي تدفن حية من غير ذنب سوى أن قاتلها خاف من أن يتضرر منها، ولذلك قرئ في الشاذ المفسر للكتاب⁽¹⁾ ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُيِّتَتْ ﴿٥﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾، ويقيم الله لها فصلا في يوم الفصل، ومعلوم بأن أول شيء يُبدأ به في الحساب الدماء في عالم الجزاء، وفي الحديث: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء».

وجاء القرآن بأوامر صارمة في باب حفظ كرامة المرأة وصيانة حقوقها،

(1) الحكم على قراءة بالشذوذ لا يعني أنها غير صحيحة الإسناد وإنما اختل فيها شرط من شروط

فمنع ما كانت عليه الجاهلية، إذ كانت تورث زوجة، يعني أهل الهالك يرثونها باعتبارها من جملة المتاع، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ نِيتْمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِحِشَّةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [النساء: 19]، هُنَّ في مالهن أحرار، وفيما يملكن على وجه الاختيار، فكيف تورث المرأة، ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ نِيتْمُوهُنَّ﴾، نوع الابتزاز؛ والعضل المنع، لا تستعملوا هذه السلطة منكم ابتزازاً لأموالهن، وهذا اللون من ألوان الظلم الجاهلي مندرج ضمن الظلمات التي جاء النبي ﷺ بمشروعه الكبير لإخراج أمته منها، وهما وإثماً وظلماً، ومنه إخراج أمته - وفيها نساؤها - من رابوع الضلال المبين، «حكم الجاهلية»، و«ظن الجاهلية»، و«تبرج الجاهلية»، و«حمية الجاهلية»، وكلها عبارات قرآنية.

بعض مظاهر الرحمة في التشريعات الخاصة بالمرأة:

القرآن إذاً يخص المرأة بالحديث المستفيض، يبين حقوقها ويبين واجباتها، ويرفع من شأنها، ويثني عليها، ويشملها برحمته ورفقه في تشريعاته، فيرخص لها ويخفف عنها، ويسقط عنها بعض التكاليف؛ فهذه رخصة الحائض، وهذه رخصتها إذا فرض الصوم وهي في حال النفاس عند ولادتها أو الحيض في دورتها، ووكّل إليها أموراً ترقى أحياناً إلى أن تكون أمراً سياسياً من الأمور الهامة؛ هذه أم هانئ بنت أبي طالب أخت الإمام علي في عام الفتح وهي تسمع النبي ﷺ يقول: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»، فقالت: «يا رسول الله إني قد أزرت، أو أمنت فلان وفلان من أحمائي»، معناه أدخلتهم في جوارِي فلا ينبغي لأحد أن يخفر هذا الجوار، فقال لها ﷺ: «إنا قد أجرنا من أجرنا من أجرنا» وسمعت أباها علياً يقول إني قاتله، فقالت له: إن

ابن عمي يزعم أنه قاتل فلان، فقال لها ﷺ وهو يُسمعه علياً: «إنا قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» في ارتقاء بالمرأة وكرامتها إلى درجة تتحمل فيها المسؤولية في موضوع شديد الحساسية في دولة الإسلام في عهد الفتح الأول.

النساء شقائق الرجال، والمفاضلة إنما تكون بحسب الامتثال والاعتزال:

وفي حديث النبي ﷺ المبين للقرآن والشارح له، يقول ﷺ فيما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي - وأعتذر بأنني لا أنسب النصوص كثيراً لأن معظمها إن شاء الله في الصحاح أو في السنن - : «إنما النساء شقائق الرجال»، إلى هذا الحد؛ والشقيق في الأصل هو قريب الجهتين، وهذا فيه إشارة إلى قوة اللحمة ومتانة الصلة، تقول هذا أخي شقيق معناه من جهة أبي وأمي، وهذا ولد شقيق لهذا أي من جهتين، فالشقيق يدل على وثاقة الجهة من الصلتين، وهذا الحديث الذي جاء بصيغة القصر «إنما» من المحكمات القاضية على من دونه من المتشابه المحتمل، فلا ينبغي أن تدعوا المحكمات للمتشابهات، ذلك شأن الذين في قلوبهم زيغ وفتنة، والقرآن علمنا حينما نكون إزاء محكمات ومتشابهات أن نرتب، فالمحكم أم الكتاب، وهو أم السنة أيضاً، ونرد المشتبه المحتمل ترجيحاً له بهذه المحكمات، كما أن أم الكتاب معظمه، وأمه أصله ومصدره ومرجعه.

فقول رسول الله ﷺ إذاً: «إنما النساء شقائق الرجال» أمٌ في الباب، وفيه إشارة إلى الكم وإلى الحكم والرتبة، لأن كل منهما إنسان، وليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر من الآخر، وهذا عندي من مراجع إطلاق اسم المرء والمرأة عليهما معاً، ولا فارق إلا التاء، مرء ومرأة إذا اعتبرنا مرء أصلية، فيكون من المروءة التي تعني الإنسانية، مقومات المروءة في المرء والمرأة واحدة،

مقومات إنسانيتهما واحدة، اللهم إلا أن يكون ما سبيله المفاضلة في الصنف نفسه، وذلك كمكارم الأخلاق والعلم، وهو في القرآن المسمى «تقوى الله»، التي تعني الاستواء على عرش المكارم امتثالا واعتزالا.

استوصوا بالنساء خيرا:

وصاة نبينا ﷺ بالنساء خلفيتها أنه ﷺ عرف أوضاع المرأة المزرية، وقد سبق التنبيه إلى أن القرآن حكى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۖ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 58 - 59]، أيبقي على وليدته مهانا من قومه، مُعَيَّرًا من جهتهم، ناقص القيمة والقدر بسبب هذه الوليدة، أم يُنهي وجودها فيدسها في التراب، وفي «الدس» إشارة إلى إخفاء فضائل الأنثى، كما يلمح إليه القرآن حين يؤكد أنه قد خاب من دس نفسه، أخفى فضائلها فلم يزكها بالعلم والعمل.

«استوصوا بالنساء خيرا»، وهذا في الصحيحين، والوصية إنما تكون بالعقائد والقواعد والدعائم الكبرى، فلا يوصى بشيء تافه، والوصاة الأمر بتعاهد شيء يستحق العناية، لأن في الغفلة عنه إضاعة لقدرات كبيرة، أو مقدرات وفيرة، ولذلك نجد في الكتاب هذا العنوان ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 130] الوصاة بالتقوى، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: 7]، لأن البر محوري في صلة الأجيال ببعضها، ﴿وَأَوْصَىٰ بِهَا آبَرَهُمْ بَيْنَهُ وَيَعْفُو يَتَنَبَّأَنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 131] وصاه بالتمسك بالإسلام إلى نهاية المطاف.

ومن تجليات اهتمام النبي ﷺ وتقديره للأنثى أنه يأمر بالنأي بها عن مواطن الإذلال، وسوء الاستخدام والاستعمال، بل جعل ذلك عنوانا على كرم الخلق

وحسن التدين حين قال: «لا يكرمهن إلا كريم ولا يهينهن إلا لئيم»، خاصة حين يُكُنَّ على الصفة التي ذكر القرآن؛ صالحات قانتات: ﴿بِالصَّالِحَاتِ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: 34].

والقنوت ضد النشوز؛ ولذلك الله وضع هذا الوصف في قسم، ومقابله في قسم آخر: ﴿بِالصَّالِحَاتِ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: 34]، فلا قسم ثالث بالنسبة للنساء في البناء، إما قانت وإما ناشز، وليس القنوت هنا عبادة كما هو الشأن في الحديث القرآني في مواطن أخرى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120].

والنشوز تمرد على القوامة بشرطها، ليس قوامة المستبد، القوامة التي هي من شؤون الإمرة، والتي هي من مقتضيات تكميل الفطرة في بناء أي مجتمع تساكني، أي تجمع بشري لا بد فيه من هذا اللون من ألوان الإجراء الضروري، ترتيباً لأفراده بحسب المهام والقدرات والوظائف.

الوعظ الحافز والزجر الحاجز عن السلوك الناشز⁽¹⁾؛

حين يعرض في سلوك المرأة ما يستدعي الإصلاح، وهو ما سماه القرآن نشوزاً، فإن الشرع الحكيم يبين سبيل التعامل معه، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ بِالصَّالِحَاتِ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: 34]، والنبي ﷺ يبين ذلك حين سأله سائل فقال: «أنتِ حرثك أني شئت، غير أن لا تضرب الوجه، ولا تقبح،

(1) ليس خوف النشوز مقصوراً على المرأة، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 127].

ولا تهجر إلا في البيت، وأطعم إذا طعمت، واكس إذا اكتسيت، كيف وقد أفضى بعضكم إلى بعض»، بمعنى لا تضرب ولا تثرب، لا تضرب الوجه، وهذا فيه نص، وفي نصوص أخرى مطلقة، حتى قال أهل العلم: إن الضرب في آية «واضربوهن» إجراء تأديبي يرد الناشز، وإنما يحسن أو يجوز إذا كان في مظنة التأثير، إذا كنت تعلم أن هذا اللون من ألوان القسوة عليها، كإجراء ثالث حين تنتهي الإجراءات كلها، ويكون بقاء البيت يمكن أن يكون مع الإجراء الثالث، فليكن إذا، وآخر الدواء الكي، وربما كانت الجراحة فصل العضو - والفصل هنا الطلاق - فكان هذا اللون من ألوان التأديب لتفادي الفصل، وقد قال أهل العلم إن المراد بالضرب الإيقاع الذي يؤثر الإيجاع، فيدخل فيه حتى العنف اللفظي، بشرط أن لا يكون قذعا، وألا يكون لونا من ألوان الافتراء.

«ولا تثريب»، التثريب والتقييح عنف اللفظ، لا العنف اللفظي ولا العنف الحسي، وهذا اللون من ألوان التكريم يجب وضعه في السياق الذي لم يكن للمرأة شيء كما يقول عمر: «ما كنا نعد النساء في أمر حتى نزل القرآن بشأنهن»، النقلة تبدو في هذا اللون من ألوان التحول في الوعي والمسار ببركة هذا الكتاب، وبركة هذا النبي ﷺ، وبركة هذا الوعي النوراني الذي بث الروح والأنوار في وجدان وقلوب الأمة أفرادا وجماعات.

في بيان أن الرجل والمرأة كلاهما مستخلف ومكلف:

وقد جمع القرآن بين الرجال والنساء، والذكرا والإناث في التكاليف العبادية وأجزيتها المرتبة، كما في قول الله العظيم: ﴿لَا الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالْخَائِضَاتِ وَالْخَائِضِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالصَّامَاتِ وَالصَّامِينَ وَالْحَائِضَاتِ وَالْحَائِضِينَ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ

كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا⁽¹⁾ [الأحزاب: 35]، حيث ذكر صفات عشرة، وكلها ترجع للشعب الكبرى للدين، ففيها الشعب القائمة على الأعمال كالصدق، وفيها الشعب التي مرجعها القلب كالصدق والخشوع، وفيها صفات ترجع لأصول الإيمان ومراجع اليقين، وقواعد الإطار الكبرى، الذي يبنى عليها كل تدين وانتساب، ومنها ما يرجع للسلوك عفةً وطهرًا، وما يرجع للالتزام بالبقاء على خط الصراط ذكرًا، لأن الذكر يشدك إلى المنهاج، وعلة الانحراف فيمن كان قبلنا هو عدم الاتصاف بأمرين: قوة الإرادة، والذكر المتجدد، وهما شيان جاء ذكر الأمر بهما في القرآن: ﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 62]، لأن عدم الذكر يسبب الانفصال عن الأصول المؤسسة للوعي، وعدم العزيمة وضعف الإرادة، يجعل الإنسان فاسد السعي، هش الصلة، صوري الانتماء.

شعب الإيمان إذا لا يقال فيها ذكر وأنثى، ورب قائل يقول: ولم هذا الإطناب؟ ﴿الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ إلى آخر الآية، وهو

(1) مما جاء في أثناء كلام الشيخ حفظه الله أنه جاء الإطناب في محله بلاغة، وجوابا مطمئنا لمستفسرة هي أم سلمة، قالت: يا رسول الله، يذكر الرجال ولا نذكر، كأنها تحس بأنها دون الرجال فيما تقدم من خدمات، وما تقدم من عبادة، فسكت ﷺ ولم يرد، لأن سؤالها ينم عن غيرة وحب، ومنافسة للرجال وإرادة حق، لماذا لا نذكر؟ سكت ﷺ أمام تساؤل مشروع، تساؤل من حق سائله أن يقدمه، تقول أم سلمة رضي الله عنها: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت، وأنا أسرح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرة من حجر بيتي فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: يا أيها الناس، إن الله يقول: «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات» إلى آخر الآية، فكأنها نزلت تطيباً لخطرها، أو ليست هذه منتهى الرحمة والعناية والتكريم، وحصل هذا من امرأة أخرى اسمها أم عمارة الأنصارية، قالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، فنزلت الآية، وتجدد التنزيل هذا باب في علوم القرآن، كباب تعدد الأسباب للمنزل الواحد.

شيء ليس معهودا في أسلوب الكتاب، لأن الأنثى والمرأة والنساء عموما كن مندرجات ضمن «الخطاب الذكوري» - كما يحلوا لبعضهم أن يسميه - وما هو بذاك، بل هذا خطاب للمكلفين، خطاب الإنسان، والمرأة إنسان، خطاب للعبد، والمرأة عبد، قال تعالى: ﴿فَلْإِعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا يُفِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَتْفُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: 33]، ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلنَّاسِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: 53]، فهل النساء مستثنيات من هذا الخطاب؟ أو لا يتوجه إليهن الأمر في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]، النساء مندرجات قطعاً وبالقسم بأي الكتاب وأسماء الله الحسنى. ويكفي لهدم ما أسميه بـ «الخرافة اللغوية» أن تعلموا أن قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ جاء بعد خطاب خاص للنساء في آية كلها خطاب نسائي خاص، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوَاتَّاعِينَ غَيْرِ أُولَئِكَ لَازِبَةً مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

ولو ميزنا بين الخطاب القرآني لوجدنا فيه خطابا عاما يندرجن فيه، وخطابا خاصا لهن دون غيرهن، وفيه خطاب للاثنتين بالجوار كما في سورة النور: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: 30] وبعدها ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾، وهذا الإخراج بعد الاندراج من باب التخصيص بعد التعميم لنكت ترااد في الموضع كما يقول

أهل العلم⁽¹⁾.

كلاهما إذا مستخلف ومكلف، ومجزي بعمله كما تشير إليه خاتمة الآية المتقدمة، أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ الآية، ولذلك لم يقل: «أعد لهم ولهن»، وإنما قال: ﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وفي آية أخرى من ديوان البصائر، وفي رجوع دائم إليه، ونحن في معرض بيان سلوك رسول الله، وهو سلوك مرتبط بالكتاب في أبهى تجلٍّ وأكمل تمثُل، آية النحل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّا ذَكَرْنَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]، ولم يقل: لنحيينهما، «من عمل» ومن في اللغة يدخل فيها المذكر والمؤنث، قال ابن مالك رحمه الله في الألفية في الفصل الذي بين فيه الاسم الموصول:

«ومن وما وأل تساوي ما ذكر وهكذا ذو عند طيئ شهر»

أي ما ذكر من أسماء الموصول الخاصة بالذكور والخاصة بالإناث الكل مندرج تحت من، «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»، هذا يطلق على الذكران والإناث، «من سلك سبيلا يلتمس به علما»، تلحقه الصفة، «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، ولا نحتاج إلى إضافة لفظ «المسلمة»، وليس في طرق الحديث إضافة مسلمة أبدا، لأن المسلم يكفي لأنها صفة، والصفة التي هي الإسلام لا تذكر ولا تأنث كما هو الأصل.

وآية التوبة عظيمة في باب بيان مكانة المرأة وموقعها، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

(1) فقد يقتضي المقام الاهتمام بالمخصص، وقد يكون التخصيص للتنقيص، أو لبيان التفخيم، أو لبيان عظم الشأن، أو لمنع التعميم، وقد يكون لزيادة التوصية، أو لبيان الأفضلية، وغيرها من الدواعي التي يجب مراعاتها في كل موضع بحسبه.

وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٢﴾ [التوبة: 72]، الاشتراك في الولاية، ولاية النصر، لأن كلاهما يتعامل ويتعاون على البر والتقوى، والنصرة في محلها، كل بحسب جهده ووسعه واستطاعته، مع تَوْقِيهِ تجاوز الحدود، ومراعاة القيود التي قد تدخل على الشيء الواجب فتجعله دون ذلك. وبالرغم من عموم الخطاب واندراج النساء فيه، إلا أن النبي ﷺ من تجليات اقتدائه بالكتاب، كان يخصُّ النساء بوقت يعظهن فيه، يعلمهن ويزكيهن، بل إن القرآن امتن على أمهات المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتَّبِعُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34]، «اذكرن» من معانيها: احفظن، تذكرن، راجعن، اعملن، اذكرن لغيركن نشرًا وتوعية، كل هذه المعاني وغيرها مندرجة في الآية، وذلك في دلالة على أن بيت النبي يكون مصدر نور وبلاغ، وقد كان ذلك كذلك، فتخرج منه العابدات والمنفقات والمسندات، وهذه عائشة أم المؤمنين صاحبة ثاني أكبر مسانيد السنة بإطلاق، والتي كانت تجيب كبار الصحابة عن أسئلتهم وقضاياهم، وكانت مرجعهم، لأنهم كانوا يرونها حرية بميراث علم النبوة بعد النبي ﷺ، بل إنها كانت تستدرك على بعضهم⁽¹⁾، وكانت تصحح الأخطاء لبعضهم، كما في قصتها مع عروة بن الزبير، وهو من الأئمة السبعة، ومن علماء المدينة، وكان من فقهاء الصحابة، مرَّةً قال لها: ما أرى على تارك السعي بين الصفا والمروة جناح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّبَا وَالْمُرْوَةَ مِنَ شَعِيرِ اللَّهِ ۚ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 157]، فقالت له: «لو كان الأمر كما تقول لكانت الآية فلا جناح عليه ألا يطوف بهما»، فصححت له النص وصححت له المعنى، ثم ذكرت له السبب

(1) جمع الإمام الزركشي مستدركاتها في رسالة سماها «الإجابة فيما استدركنه عائشة على الصحابة».

فقلت: كان الأنصار يتخرجون من السعي لأنه كان بين إساف ونائلة - وكانا صنمين جاهليين - فبقي هذا الشعور، ولما جعلت شعائر وردت إلى أصلها، رأى بعض الأنصار أن في هذا اللون من ألوان السعي تحرجا، فنزلت الآية على صيغة رفع الحرج، والأصل فيه الوجوب كما قال ﷺ وبيَّنه: «إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا»، وهذا بيان منه ﷺ يرفع الخلاف.

وصححت لأبي هريرة رضي الله عنه بعضا مما نقله عن سيدنا رسول الله ﷺ فقالت في جراءة: «لو أحسن سمعا لأحسن جوابا»، وذلك حين سئل عن ابن الزنا فقال: «شر الثلاثة»، فقالت بأنه شر الثلاثة إن عمل بعمل أبويه، فزادت، هو شر من أبيه وأمه، لأنه جمع إلى فساد الأصل فساد الفعل، وفساد الكسب إلى فساد النسب. قالت له: لو أحسن سمعا لأحسن إجابة، إنما النبي ﷺ قال: «شر الثلاثة إن عمل بعمل أبويه» رضي الله عنها وأرضاها، وشاھت وجوه الروافض.

الأصل المندرج لا يلغي الذكر المزدوج

وحين يذكر القرآن الاثنين معا، فإن ذلك يكون لنكتة وسبب، كما في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]⁽¹⁾، فالأصل أن الأثنى مندرج فيه، وذكرت لمزيد توكيد، وهذا من طبيعة البيان، وفيه أسلوب

(1) «وما كان لمومن ولا مومنة» هذه الآية مرتبطة بسبب، وهو أن السيدة زينب بنت جحش، لما خطبها النبي ﷺ لحجبه زيد بن حارثة مولاه، فإنها ظنت أنه خطبها لنفسه، فلما علمت بأنه خطبها لزيد رفضت أن تقبله زوجا، لأنه كان مولى، وكانت هذه من أثرياء العرب، وابنة عمه رسول الله، قرشية، والنبي ﷺ أراد بهذا التشريع إبطال العرف الجاهلي الطبقي، الذي يقصر الكفاءات في مسائل معينة مادية، وهو يرى الزواج ممكنا إذا كان الزوج مؤمنا، وذو مواقف وكفاءة، وله مؤهلات أخرى، بينما الجاهلية رأس اعتبارها عصبية ونسب، ومن ليس له ذلك لا تراه كفاء بإطلاق.

التغليب⁽¹⁾، الذي هو من أساليب التخفيف كما في «مغني اللبيب» لابن هشام، يقال مثلاً: الطلبة والطالبات، أساليب ينبغي أن تعرف، ومنها أسلوب التغليب في المفرد وفي الجمع وفي الخطاب.

وها هو رسول الله ﷺ نراه في السيرة يقبل بيعته في موارد الجهاد، وفي صلح الحديبية، حيث سجلت بيعة الرضوان بيعات من نساء صحابيات كما في بيعة العقبة، والقرآن يقول له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَلٍ يَفْتَرِيَهُ، بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْبِزْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: 12]، وفي هذا بيان لبنود البيعة التي على رأسها التوحيد الذي هو أصل الإيمان، و البيعة على القيام بالنصرة في حدود الإمكان، وقد حصل بالفعل مشاركتهم في مغازي رسول الله ﷺ، ورؤيت إحداهن وهي في تمام خدمتها للمجاهدين.

بل إن النبي ﷺ يصغي إلى هند بنت عتبة وهي تعقب على بنود البيعة في قوله تعالى: «يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن»، قالت: «ما سرقت ولكن كانت مني هنة بشيء قليل، أخذ من مال معاوية، فهل علي في ذلك من شيء؟»، قال: «إذا أخذت بمعروف»، ولما قال القرآن «ولا يزنين»، قالت مُنْكَرَةً: «أَوَ تَزْنِي الحرة؟!»، ولما قال: «ولا يعصينك في معروف»، قالت: ما جئنا هنا إلا ونحن لا نريد عصيانك.

والنبي يصغي ولا يعقب، ويقبل مثل هذه اللون من ألوان الأذى بالنسبة للدخلة المبتدئة، فانظروا إلى رفق النبي ﷺ بالقوارير، وهو الذي قال صراحة: «رفقا بالقوارير»، وعندي أن القارورة هي الوعاء الزجاجي الشفاف الذي يوضع فيه العطر النفيس، والرفق في التعامل معه وضعاً واستعمالاً مطلوب، فكأن فيه

(1) قال في مغني اللبيب: «حَقِيقَةُ التَّغْلِيْبِ أَنْ يَجْتَمَعَ شَيْئَانِ فَيَجْرِي حُكْمُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ».

طلب الشيء وبيان موجهه، وهو كونهن قوارير، معناه أنهن في جوهرهن طيبات عطرات، ولكنهن سريعات الكسر، فافرق حتى لا يضيع الوعاء وما وعى.

بيان مختصر لقول النبي ﷺ المشتهر: «حُبُّ إِلَيَّ النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة»:

قال النبي ﷺ: «حُبُّ إِلَيَّ النساء والطيب وجعلت قرّة عين في الصلاة»، وتعجبنى رواية النسائي في «العشرة» إذ صحح هذه الرواية التي ليس فيها لفظ «دنيا» ولا «ثلاث»، لأن لفظ الدنيا يتنافى مع ذكر الصلاة، لأن نفس الصلاة ليست من الدنيا، و«ثلاث» فيه حصر للمحباب، ولنبينا محاب أخرى تفوق الحصر، قال ﷺ - وهي رواية صحيحة - : «حُبُّ إِلَيَّ النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة»، وصدر بهن، ومن عجيب أمر هذا الحديث أن النبي ﷺ لا يخفي كلمة «حب إلي»، بل يشهرها على رؤوس الناس، يقول: حب إلي النساء، فمن هن هؤلاء النساء؟ إنهن الكاملات، فدخلت مريم وآسية ومن معهما، فرجع الأمر إلى حب الكمال الأنثوي، الذي هو كمال سيرة، أكثر منه كمال صورة مجردة عن المعنى، فتفقد سرها، أو يكون المقصود بالنساء نساؤه خاصة، لأن مصطلح «نساء» كثيرا ما يرد ويراد به الأزواج خاصة، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: 1]، أي أزواجكم، ويطلق ويراد به اللائي بلغن مبلغ أن تقع الخطبة عليهن، فلا يدخل فيه الإناث دون ذلك، وكأن لفظ «نساء» الذي يؤذن بالنساء، أي أنهن أخرن بالخطبة عن أن يكن محلا لاختيار آخر، أو أخرن من مقام ما أهل له الرجال، لأن كلمة «رجل»، من مرتجل وراجل، تدل على ساق وقدم، وأنه خلق لذلك، وهن مُنْسَات عن هذا الذي رشح له الرجل، وهذا من الاختلاف الوظيفي الناشئ عن اختلاف الوصف والمؤهلات.

تساوي الرجل والمرأة في التكاليف والأجزية،

يستوي الذكور والإناث في تلقي الخطاب وتحمل المسؤولية، فهذا هو النبي ﷺ يحمل النساء مسؤولية الجناية انطلاقاً من القرآن، المرأة إذا زنت كما لو زنا الرجل، حتى هي تحد ويقتصر منها، ويقاد منها ولها، يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْفِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ [البقرة: 177]، ويجمع على أن الأنثى تقتل بالرجل كما يقتل هو بها، والقرآن هو الذي علمنا التساوي في المسؤولية وفي الجزاء، يقول تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً﴾ [النور: 2]، على وجه الفصل حتى لا يُعتقد أنه يفرق بينهما بحكم الصنف، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 40]، والحديث عن تقديم الزانية في آية النور وتأخير السارقة في آية المائدة، إنما هو بحسب الأنسب لكل في البابين، جرأة السارق تليق بالرجل فقدم، وتبرج الأنثى يليق بها وبرغبتها في التعاطي، فقدمت إشارة لهذه الصفة الدنية، وصون العرض منها كصونه منه.

وفي باب توجيه الخطاب وتحميل المسؤولية، فإن النبي ﷺ في حجة الوداع يخاطب الكل وفيهم نساءه، وقد حج بهن ﷺ وكلهن كن معه، ومعه نساء الأنصار والمهاجرين، ويقول للجميع: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام...»، يخاطب النساء لكونهم مثل الرجال من الناس، وفي القرآن ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 4]، ﴿وَالَّذِينَ يُودُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ إِخْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 58].

استواء الرجل والمرأة في الأدمية :

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70] والنساء داخلات، الذكور والإناث من بني آدم، فهن آدميات قطعاً، وقوله تعالى : «ولقد كرّمنا بني آدم» يحيل على العنوان، أي كرّمناهم بالأدمية، كل منهما آدمي الأصل والنشأة، إنساني الفطرة والطباع. ونركز ما تقدم من صور التقريب التي تكاد تلغى معها الفوارق، فمن الأصل الأدمي، إلى التساوي في التكليف والأجزية، وفي الوسيلة إلى حفظها طلباً للمعرفة والكسب الحلال، وحق الملك، والتعبير والقول، والولاية في باب الأمر والتغيير والإصلاح، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 72] أي ويأمرن، وهم مأمورون بالتعاون على ذلك.

نكتة لطيفة :

تعجبني كلمة من إمام سئل : أو تفتح المرأة على الإمام إذا أغلق عليه وليس هناك من قارئ؟ الإمام مسكين أنسدَّ في وجهه باب القرآن، والناس ينتظرون، والمرأة حافظة وحاضرة هناك، فهل تفتح عليه؟ فقال للسائل اسمع قول الله تعالى : ﴿وَقُلْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 32]، وليس هناك أعرف من القرآن، تفتح عليه بأمر الله.

نماذج من السيدات اللاتي نبغن في ميادين العلم والحكمة :

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن الفوارق، وهذا حديث قد ينتظره البعض، ولكن لا نريد أن نعجل به، لأن عندنا أموراً كثيرة ينبغي الوقوف عندها، ولكن

نكتفي منها بذكر شيء من أخبار بعض النساء اللواتي تفوقن في ميادين مختلفة، ومنهن الشفاء العدوية، إحدى الصحابيات، وكانت حاذقة بالهجاء⁽¹⁾ والطب في الجاهلية، ودخلت الإسلام وهي تعلم الكتابة، إذ دخل النبي ﷺ ذات مرة على حفصة وهي تعلمها، فقال لها النبي ﷺ: «علميها الكتابة، وعلميها رقية النملة»، ورقية النملة عندهم نوع من التطبيب فيه علاج القروح الجنبية، قروح كانت تصيب الجُنب فتسقطها، جنوب الرجال والنساء، قال النبي ﷺ: «علميها رقية النملة كما علمتها الكتابة»⁽²⁾.

وبمثل هذه التعاليم القرآنية والنبوية، أطلق العنان في الفضل والتسابق إليه بين المسلمين رجالا ونساء، فحصل أن خرَّجت المدرسة الإسلامية كفاءات نسوية عليّة، منتشرة الذكر والشهرة، وأفرد في معجم التراجم للنساء قسم خاص. فابن سعد في الطبقات أفرد للنساء الراويات والحافظات من الصحابيات ومن أخذ عنهن زهاء سبع مئة امرأة.

وابن عساكر ذكر في مشيخته نحوًا من سبع وثمانين امرأة شيخا له، وهو الحافظ، ذكر ذلك دون أن يشعر بأي نقص أو هوان أن تكون في مشيخته أنثى. وشيخنا جلال الدين السيوطي له رسالة طريفة في الموضوع اسمها «حاطب ليل وجارف سيل»، ترجم فيها لمئة امرأة من مشيخته.

وابن الجزري نجده في كتابه «النشر في القراءات العشر» يذكر كثيرا «سِتّ

(1) ليس المقصود معرفتها بشعر الهجاء، وإنما كانت تعرف الحروف الهجائية وتجيد الكتابة بها.

(2) الحديث رواه عدد من أئمة الحديث منهم النسائي في السنن الكبرى برقم 7501، وفيه أن الشفاء بنت عبد الله، قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا قاعدة عند حفصة، قال: «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة؟».

العرب»⁽¹⁾، وهي من المقرئات الحافظات، يقول: «سمعنا هذا من ست العرب بجبل قاسيون بدمشق».

وفرّح رسول الله بالنوابغ والنابعات من النساء فوق ما يمكن أن يتصور، ولعله السر في اختياره ﷺ لعائشة زوجا في الفترة الأخيرة من حياته، - وقد تزوج لأمته - لتنقل عنه الجانب الباطن الذي يخص سيرته في بيته، ويخص الأحكام النسائية، وهي كثرة، ووددت لو أُفردَ بحث فيما نقلته فيما يرجع للنساء، خصيصا في الجانب الباطن من حياة النبي ﷺ وعلى آله.

أصل التساوي السابق لا يلغي ما بين الرجل والمرأة من الفوارق:

الرجل رجل، في خصائصه وتكوينه، والأنثى أنثى في خصائصها وتكوينها، والذي يروم أن يجعل الذكر أنثى، أو أن يجعل الأنثى ذكرا، فهذا لا يعلم بالشعر المستطير الذي ينتج عن ذلك، لأنه مساس بأصول الفطرة، واعتداء على الخلق المُسَوَّى من لدن الحكيم الخبير.

ونتساءل بهذا الخصوص، أتريدون من الأنثى أن تتجاوز خلقتها ووظيفتها تبعا لهذه الخلقة؟!!

ولله در سيدي مصطفى صادق الرافعي الذي كتب - حين أصبح التبرج ظاهرة في شوارع القاهرة - كتب رائعة عنوانها «الدلال المعيب»⁽²⁾ وصدرها بقوله مخاطبا المتبرجة:

(1) وكلمة «ست» بمعنى السيدة الفاضلة والمقدمة في قومها، وكأنها سيدة العرب، هؤلاء المنتسبون للإسلام والذين كانوا مادته الأولى.

(2) قصيدة من زهاء أربعين بيتا وصف فيها تبرج النساء، وبين خبث مقاصد دعاة السفور، وهي من القصائد التي لم تنشر في ديوانه، ونشرت في مجلة الرسالة عدد 881.

دلالك بالتبرج من ضلالك وما عاب الدلال سوى دلالك
 كملت تبرجا فكملت حسنا ولكن جاء نقصك من كمالك
 إلى أن يقول:

فإن تسألين الحق منا فخلقتك الجواب على سؤالك

هو يرد على الذين يريدون ألا يكون فرق بين الذكر والأنثى في صوت ولا نبرة ولا في هيئة، وبالتالي في الوظائف نفسها - وهذا هو المراد -، أن تلغى الوظائف المرتبة على خصوصيات التكوين، ونقرأ في القرآن قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّا اللَّهُ كَانِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾ [النساء: 32] نزلت في تطلع بعض النساء إلى الجهاد بنفس الصورة التي يجاهد بها الرجال، مع أن الجهاد له أبواب، وهن يردنه بنفس الشكل والكيفية، أن تتركب الفرس وأن تقتحم وأن... فقالوا يغزوا الرجال ولا نغزو، وهناك من قال بأنهن قلن: ما بال الرجال يأخذن أكثر منا في الميراث، فنزل قوله ﷻ.

والنبي ﷺ أعفاها من النفقة والكسب لنفسها، ليخصصها في أمور لمقابل، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 226]، وليست هذه متفقة في كل الأحكام، ولا مطردة في كل الوظائف، فالتساوي في الحكم ليس معناه التساوي في ذات الفعل كما قال أئمتنا، فلا يعني استواءهن مع الرجال مثلا إذا طبخت له اليوم، يجب أن يطبخ لها في الغد، هذا كلام التافهين، ولا تحدث الآيات عن هذه السفاسف.

وأوجب لها الصداق والسكنى، وحرّم المظاهرة، وألزمها بالحجاب صونا ووقاية من الفتنة، وقال في بيان القصد من ذلك: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذَى﴾

[الأحزاب: 59]، لا بمعاكسة ولا باغتصاب، ولا بتحرش ولا بنحوه، وهو ألوان من الأذى الذي يلحق الشريقات.

إحاطة النصح بمرارة بالطاف الإشارة:

والنبي ﷺ لم يفته أن ينصح لهن في مناسبات مختلفة، وجاء النصح بمرارة في بعض الأحيان، ولكنه محاط بالطاف الإشارة، قال النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله: «رأيتكن أكثر أهل النار»، وهذه نصيحة مُرَّة، النبي يخبر أنه رأى في تجلٍّ من التجليات أن أكثر أهل جهنم من النساء، فلم تغضب الصحابيات، لأنهن يعرفن مقدار الصدق النبوي، وإنما قالوا لرسول الله يبحثن عن النجاة: يا رسول الله ممَّ؟ ما هو السبب وراء ذلك؟، فقال ﷺ: «لأنهن يكفرن العشير ويكثرن اللعن»، يكفرن العشير ويلعنن الأجير، واللعن عنف لفظي لا يليق بالأنثى الرقيقة، وكفر العشير «الزوج» المحسن، لا يليق بالقارورة ذات الطيب، فنبه النبي ﷺ إلى أنه حين تتنكر الأنثى لأنوثتها الفاضلة، تقع في شرك الشيطان، وتصبح من جنده، فتساق حيث تساق النفايات إلى النار.

التصدق والاستغفار يمحوا الخطايا ويحط الأوزار:

إلا أنه ﷺ لم يكتف ببيان موجبات النار، بل نبههن على ما يتجاوزن به ذلك فقال: «فأكثرن التصديق والاستغفار»، هذا العلاج، التصديق والاستغفار.

التصدق مرحمة يتعلمن به البذل والعطاء، وبه يضيق هامش الغضب الانفعالي، وهو من باب إتباع السيئة الحسنة، فلما كانت المرأة كثيرة الانفعال الغضبي، أمرها بالتصدق وبالمرحمة، لأنه بذلك يلين القلب وتصحو النفس اللوامة، فتخاطب نفسها متلومة: لماذا أنا بهذه الصفة؟ قال ﷺ وقد شكا إليه

رجل قساوة قلبه، قال: «امسح على رأس اليتيم»، معناه أكرم اليتيم وواسيه يرق قلبك، التصديق مرحمة تحاصر انفعال اللعنة.

والاستغفار إقرار واعتذار، وعلاقته بكفران العشير، أن الاستغفار في ضمنه الاعتذار لمن تكفر نعمته التي سببها إنعام الله عليها به، إذ هو الذي ساق لها ذاك الزواج، هو الذي يسر إليها تلك الأسباب من الخير، فنيانها لذي النعمة المباشر، نسيانها للمنع الأول ابتداء، فكلمة «أستغفر الله»، معناه حوالة عن استشعارها للتقصير في جنب من أنعم عليها ابتداء وهو الله، ومن جعله الله واسطة، وشكر الواسطة في مقام الشكر مطلوب بل هو واسطة عقد الشكر كما يقول أهل العلم⁽¹⁾.

محبة النبي ﷺ تشمل الجميع لكنها تختلف باختلاف المحبوب:

نعود إلى حديث «حُب إليَّ» الذي وعدناكم به، لننظر كيف أن النبي ﷺ يعلمنا أن هذه الأنواع من المحاب لا تتزاحم في قلب المؤمن، لكن لها مقامات، تحب نساءك أو تحب النساء بإطلاق، ولكل منهن محبة من نوع معين، تحب أمك لا كحب زوجتك، حب الأم حب تقدير واحترام وطاعة، وحب زوجتك حب ووداد ووصال، وتحب ولدك وبتك حب مرحمة وصله، وتحب الناس حب أخوة المؤمنين منهم، وتحب الكفار بمعنى إرادة الهداية، لهم حب حرص ورغبة صادقة في نجاتهم، ودعك من الغضب والتمتعجلة، الذين يغيب عنهم عنوان الكمال الأحمد الممدوح من ربنا ﷺ: ﴿لَفَدْجَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 129]

(1) وفي هذا الباب وجب شكر رسول الله ﷺ لأنه الواسطة بين الله وبين العباد، وشكر الوالدين، وشكر المعلمين، وشكر كل من أسدى معروفًا، قال ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»

حريص على كل الناس، كافرهم ومو منهم، حريص على إيمانهم، والقرآن يقول معاتباً نبيه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6] أي آثار الكفار إذ لم يؤمنوا، معناه أقتل نفسك حرصاً⁽¹⁾ على هدايتهم، حتى عوتب بذلك، وهذا العتاب عندي نوع من إبراز فضيلة رسول الله ﷺ وكمال محبته.

ويظهر في الآية اختلاف درجات الحب النبوي، فهو ﷺ حريص على الكل، ولكن بالمؤمنين رؤوف رحيم، معناه يخص المؤمنين بمزيد رحمة ورأفة، أما حرصه على الهداية وهو نوع رحمة ورأفة فإنه يعم الجميع.

النبي ﷺ يحب الكمال والجمال في كل شيء، يحب الطيب؛ أي شمه⁽²⁾، ويحب من الطيب الأكمل منه؛ الألوّة⁽³⁾ والعنبر والمسك الأذفر⁽⁴⁾، ويحب النساء الكوامل، ويحب الخير لجميعهن، ومن مظاهر حبه لهن رحمته بهن، لأن الحب ثمرة الرحمة، ما دام النبي يرحمهن لا بد أن يحبهن، إذ لا تجتمع الرحمة والبغض، كيف يرحم النساء ويبغضهن؟ لا يمكن، فإن أبغض منهن شيئاً أو كرهه رضي شيئاً آخر، حتى تعود المسائل إلى نصابها في مقام الزجر بقدره، أما البغض للبغض فهذا ليس في ملتنا.

جاء رجل اسمه قيس بن عاصم إلى النبي ﷺ فقال مُتَنَدِّمًا: «يا رسول الله وأدت في الجاهلية ثمان بنات»، النبي ﷺ لم يقل له: الإسلام يجب ما قبله، فعلت

(1) قال في المصباح المنير: (حرص): حَرَضَ حَرَضًا، من باب تَعَبَ، أشرف على الهلاك، فهو حَرَضٌ، تسميةً بالمصدر مبالغة.

(2) لا بد من التقدير، بمعنى أنه لا يحب الطيب إلا لطيبه وليس لبيعه وشراءه،

(3) العود الذي يتبخر به، وفي الحديث: «أن مجامر أهل الجنة الألوّة».

(4) بعض الناس يأتيك بشيء إذا شممته أعماك، فتعرض عنه فيقول لك: رددت السنة، عن أي سنة

ذلك وأنت كافر، وإنما قال: «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة» فقال: يا رسول الله إني صاحب إبل، فقال «أهدي عن كل واحدة منهن بدنة»، والحديث في مسند البزار ورواه الطبراني في المعجم الكبير.

بعض مظاهر الرحمة النبوية بالنساء:

نجزء ونركز بعض مظاهر رحمة رسولنا ﷺ التي فاضت من فؤاده على مسلكه، وخصت النساء بحصة بادية لا تخفى على مطالع السنة فضلا عن متدبر. كان ﷺ يخفف الصلاة إذا سمع بكاء الطفل رحمة بأمه، يعرفها ويقدر هذه الحركة من فؤاده تجاه رضيعها، ولم يقل لها أنت أمام الله فلا تشغلي بسواه. وكان ﷺ يحمل أمانة بنت بنته زينب في الصلاة، إذا قام حملها فإذا سجد وضعها برفق، وكان يتعبد بين يدي الله في الصلاة، وهو الذي علمنا بقوله: «إن في الصلاة لشغلا»، معناه ما ينبغي أن تشتغل بشيء آخر أجنبي عنها، لكنه علمنا أن هذا اللون من الاشتغال هو من معنى الصلاة، لأن فيه رفق بالضعاف.

وقال ﷺ منبها إلى خطورة الاعتداء على المرأة: «اللهم إني أخرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة»، أو كما قال صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وقال ﷺ: «القائم على الأرملة كالمجاهد في سبيل الله»، وغضب أيما غضب على خالد بن الوليد لقتله امرأة غير مسلمة، «ما كان لهذه أن تقتل»، وأمر من يبلغ خالدا فقال له: «قل لخالد: لا يقتلن امرأة ولا عسيفا»، يعني الأجراء والأطفال. وصفع رجل أمة له فجاء لرسول الله يطلب الكفارة فقال حررها، يعني ما تملك أن تحسن إليها فحررها لتخلص من ظلمها وليكون ذلك كفارة لك.

والنبي ﷺ هو الذي علم وزكى وربى، وكانت حياته مرآة تعكس تجليات الرحمة الإلهية المودعة في فؤاده الشريف، فكان كوثر أمته في الدنيا حوضا

يجري على الأرض، قبل أن يكون لهم هناك عند حوض النجاة من شرب منه لم يظماً أبداً.

وفي الحديث عن أمنا عائشة رضي الله عنها: «ما خير النبي ﷺ بين شيئين إلا اختار أيسره، ولا انتقم قط لنفسه، إلا إذا انتهكت حرمت الله»، وفيه إشارة إلى مراجع الكمال النبوي، اليسر والسماحة؛ نبي اليسر ويختار اليسر، لا يختار العسر وما يشقُّ على النفوس، ونبي السماحة، السماحة النفسية، لا ينتقم لنفسه، وجماع المكارم المرحمة.

بل كان يُعَلِّم النساء، كل النساء أن يكن على هذا الغرار، فيقول محذراً: «دخلت امرأة النار في هرة»، لم ترحمها، حبستها ومنعت عنها الطعام، لا هي أعطتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض، وقال مُنَوَّهاً: «إن الله غفر لبغي من بني إسرائيل في كلب نزعت له بموقها فسقته؛ نزلت البئر وحملت له الماء بحذائها فسقته حتى ذهب ظمأه وعطشه، فشكر الله لها فغفر لها»، كان ﷺ يحث نساء أمته على أن يكن رحيمات حتى بالحيوان، فضلاً عن الإنسان، فضلاً عن العشير الذي هو الزوج، هذا الأخير الذي قال ﷺ مُنَوَّهاً بحقه: «لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ؛ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا؛ مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»، وليس المقصود أن تسجد له عبادةً، وإنما لون من ألوان الاعتراف، وهو الذي أنف منه الشيطان حين جاء الأمر بالسجود لآدم عليه السلام، وكان الشيطان ملكاً على أحد قولين مشهورين للسلف، ثم نزعت منه العصمة، وحال إلى ما حال عليه بإذن الله ﷻ.



وفي الختام

القول لا ينتهي في بيان هذا الجانب المضيء من حياة النبي ﷺ وعلى آله،
ورجاؤنا مع الاكتفاء بهذا القدر ومعه اعتذار واستغفار عن تقصيرنا، علما بأننا
دون هذا المقام بمراحل، ولولا حسن الظن، وتفضل صاحب المن الذي لا
يُمن عليه، ما كنا لتكلم، ولكننا نتمثل قول الشاعر:

لعمر أبيك ما نسب المُعلَى إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت وصَوَّح نبتها رُعي الهشيم
وقول الآخر:

الحمد منك عليك أنت كما روي أثيت لا أحصيه بالحسبان
ثم الصلاة منك على النبي تدوم خلدا في الجنان
وعلى صحبه والآل طرا ومن أحبه متوسلا بإيمان
وبعد:

فإننا نتساءل بعد هذه الإطلالة المُجتزأة، ونحن في مجتمع يتسب
لهذا الجنب العلي، ويخص أزمنة ذكرياته الفاضلة ميلادا وهجرة، وإسراء
ومعراجا... باحتفالات هائلة، وتقام المواسم في مناطق شتى، وفي مناسبات
مختلفة، للصلاة على رسول الله ﷺ، نتساءل ونحن في بلد يُحفظ فيه ديوان
الصلاة للإمام الجزولي، ويتوسل الناس فيه إلى الله بنبينا تبركا بأسمائه، وبأسماء
أبنائه وزوجاته، حتى إنه من المحفوظ عندنا عُرفا أن من ليست له خديجة أو
فاطمة ينقش اسمها بالحناء في كفّه أو على باب داره، عربون وداد لأهل البيت،
اللهم صَلِّ على سيدنا محمد وأهل بيته في الأولين والآخرين.

نساءل: هل يمكن؟ بل، هل يجوز أن يكون في مجتمع هذه نفحات الوصل فيه بنبيه، هل يجوز للمرأة زوجها وبناتها وأما وأختها، بل وغريبة، بل وضالة تبحث عن الوجود أو الوجدان، أن يكون لها قضية تفتقر إلى قضاء؟ هل يصح في مجتمع منتسب كهذا أن ترفع المرأة مطالبها وشكواها من أخيها، شقيقها، حبها، سكنها، كأنه على العكس والنقيض تماما؟ أبدا وكلا لا يجوز.

هل يجوز أن يكون فينا مجتمع مدني يزعم أنه يدافع عن المرأة ضد ظالمها المسمى أخيها شقيقها ودها حبها؟ أبدا.

هل يجوز في المجتمع المنتسب أن نسمع بعنف ضد النساء، ضد القوارير المأمورون بالرفق بهن؟ سواء كان هذا العنف لفظيا أو ماديا؟ اللهم لا وكلا وألف كلا، اللهم إلا أن تكون صلتنا بنينا هشة، وانتماؤنا صوري سطحي، ومددنا من هذا الإشعاع ليس في محل الاعتبار.

ولكن العودة متيسرة لنصحح الانتساب بهذا الجنب العلي، العودة ممكنة، وما علينا إلا أن نقصد أولا، تصحيح القصد، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَضْدُ السَّبِيلِ﴾، أي إيصال ذي القصد إلى حيث يريد ويشاء، وقديما قيل:

ببذل وحلم ساد في قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

اللهم يسر لنا سبلنا للفيئة إلى حضرة نبينا ﷺ الذي هو سر نجاتنا، وافتح لنا بالصلاة عليه باب الولوج، ومن ثم العروج إلى سماء القرب والحب، وإلى الجنة التي قال فيها ﷺ: «أقربكم مني منزلا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون»، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

5	تقدمة المدارج
	تقديم الكتاب: تقديم الكتاب لفضيلة الإمام سيدي مصطفى البحياوي حفظه الله
9	«بين يدي المدارج»
	المحور الأول: أحاديث التعريف بصاحب المقام المنيف صلى الله عليه وسلم
13	وعلى آله
15	اللباب من حديث الكتاب تعريفًا بالنبي الأواب ﷺ
15	فاتحة التبتل والتوسل
16	التذكير بأيام رسول الله بقصد البقاء على خط الصبر والشكر
17	رمز الاسم الشريف «محمد» إلى الأطوار الكبرى في عمر رسول الله ﷺ
20	إحياء ذكرى رسول الله اهتداء واقتداء
21	في بيان أن مرجع المقاصد من درس السيرة هو التعرف والتشرف والتشوف ..
22	أيام رسول الله ﷺ ذكر وتذكير
22	في بيان تلازم المحبة والاتباع وأنهما فرع عن المعرفة
23	تعدد علوم السيرة وامتدادها
25	سر تكثر العلوم المتصلة بالمصطفى ﷺ
26	معنى الشمائل
26	صفة النبي الكريم كما هي في حديث أم معبد
27	في أن صفة رسول الله ﷺ وشمائله من دلائل نبوته
28	متعلق الاقتداء برسول الله ﷺ

- 29 مرجع الكمال في أخلاق رسول الله ﷺ
- 30 في بيان أن القرآن الكريم هو أجلُّ مصادر السيرة على اختلاف موضوعاتها
- 31 في بيان أن الرحمة هي جذر شجرة المكارم المحمدية
- 32 أسرار البلاغة في تعظيم الرحمة النبوية
- 33 اللين ثمرة الرحمة النبوية
- 34 عموم الرفق المحمدي
- 36 لا بد في التدين من مراعاة أشواق الدين وعلائق الطين
- 36 ذوق اللبيب لاستفهام التعجيب
- 37 تكامل التكليف بالجلال والتخليق بالفضائل
- 37 في أن الصدق وحفظ العهد ورعاية السابقة من تمام الرفق
- 39 كل شيء يتصل بالمصطفى يقول هذا رسول الله ﷺ
- 40 الأخطاء لا تلغي الأقدار
- 40 المشورة تنوير وتحرير
- 41 آية المنة برسول الله ﷺ
- 42 الدلالات المؤمّنة للقسم في سورة القلم المطمئنة
- 45 الرفق في الخطاب والصدق في البلاغ من أهم تجليات حسن الخلق
- 48 تأملات في حديث القرآن عن النبي الكريم في مقام التكريم
- في أن الصلاة والسلام على جناب رسول الله نظير الحمد والتسبيح
- 48 لجناب الله ﷺ
- 48 لمح إلى سر البدء بالسلام على رسول الله في تشهد الصلاة
- في أن نشر المحامد النبوية وذكر الكمالات الأحمدية من أجلِّ صنوف الصلاة
- 49 على سيدنا رسول الله

- 50..... الصلاة منا على رسول الله ﷺ باب لصلاة الله علينا.
- 50..... لمح إلى سر من أسرار تكرار الاسم الشريف لنبينا ﷺ في القرآن الكريم.
- 52..... لماذا نعتمد القرآن الكريم في مقام التحدث عن رسول الله ﷺ؟
- 53..... في بيان المراد بالمقامات المخصوصة بالتأمل.
- 54..... بيان المقصود بالمعالم الهادية.
- 54..... في بيان خصوصية الوحي والموحي إليه «علاقة المتلقي بما يلقي إليه».
- 56..... تأملات في خطاب الله ﷻ لنبيه ﷺ في فواتح الفرقان تنزلاً.
- 56..... من مقام التحدث إلى رسول الله ﷺ إلى مقام التحدث عنه ﷺ.
- 56..... بيان الفرق بين «منكم» و«من أنفسكم».
- 58..... مناسبة البدء بالحديث إلى رسول الله ﷺ والختم بالحديث عنه لأئمة.
- 58..... ارتقاء النبي ﷺ من مشفق إلى متشوق.
- 59..... اختلاف صيغ القرآن في تعريف النبي ﷺ بنفسه وتعريف أمته به.
- 59..... مقامات الحديث عن رسول الله ﷺ في القرآن الكريم.
- 60..... ازدواجية الحكم والعلم في مقام التأييد والتسديد.
- حديث القرآن الكريم إلى النبي في المطالع بحسب ترتيب النزول وترتيب
- 60..... الوصول.
- 63..... خطاب الملاطفة والتشريف في سورتي نداء الرأفة والتكليف.
- 64..... تلقين الحمد والتمجيد وسؤال العون والتسديد في طالع الكتاب المجيد.
- 65..... مدح السند في الوصل، والمتلقي لمدد الفضل في قسم سورة التكويد.
- 65..... تلخيص الأصول في سابعة النزول.
- 66..... انتقال إلى مقام الاستدلال على نبوة سيد الأرسال ﷺ في سورة «المؤمنون».
- 67..... حيثيات كون آيات سورة المؤمنون من أوسع مقامات التعريف بالمصطفى ﷺ.

- بيان بعض المعاني الاشتقاقية لكلمة «سورة» 67
- كان خلقه القرآن 68
- عنوان صفات النبوة الصلاح، وأساس مهماتها الإصلاح 69
- مراجع الصلاح من خلال ما لاح في صدر سورة الفلاح 69
- عناوين الإصلاح في صفات المؤمنين كما تجليها سورتهم 70
- حديث القرآن عن مضمون الرسالة وتاريخ الرسل في معرض الاستدلال على نبوة رسول الله ﷺ 71
- اتحاد القصد والوسيلة في باب الاستدلال على نبوة رسول الله ﷺ 72
- في بيان أن سبب الانعواج المزدوج اعتراضا وإعراضا هو الوهم والهوى 73
- الاعتراض سببه الوهم، والإعراض سببه الهوى 74
- مقام رسول الله ﷺ في أمته كمقام الروح في الجسد 75
- مقامات التصريح بالاسم الصريح لسيدنا رسول الله في القرآن الكريم 76
- مقام الاستدلال على أن موت النبي لا يعني انقطاع رسالته 77
- ذكر بعض المناسبات في عدم التصريح بالاسم الصريح لسيد النبيين في السور
المئين 77
- بيان وجه الصلة برسول الله وذكر البشارة به في قسم المثاني 78
- التجلية بالتمثيل والبشارة في الإنجيل في قسم التفضيل 79
- مقام ارتباط قدر رسول الله بحقه 80
- في التأكيد على ضرورة الصدق والعمق في التعاطي مع ذكريات السيرة النبوية 82
- في أن تدبر الكتاب الكريم هو المدخل لتحصيل أنوار السيرة وأسرارها 82
- نظرات في حديث القرآن في المفصل عن النبي الأجل المفضل 83
- الاستدلال على أن البشرية لا تنافي الكمال 85

- 87..... القسم لرسول الله على عظيم منة الله عليه
- 88..... سراج النبوة يمحو ظلام الجاهلية
- 90..... المنة على رسول الله بشرح الصدر ووضع الوزر ورفع القدر
- 90..... شرح الصدر
- 91..... وضع الوزر
- 92..... رفع الذكر في نظم التوحيد ولحن الإقامة
- 94..... أنوار الذكرى بحدث مولد صاحب الشريعة اليسرى
- 95..... ميلاد المصطفى يوم من أيام الله
- 96..... بعض الآيات المصاحبة لميلاد المصطفى ﷺ
- 97..... 1 - آية طير أبابيل
- 97..... 2 - آية النجم
- 98..... 3 - رنين الشيطان حزنا وغيظا
- 99..... لمحّ إلى بعض الأسرار في مجيء كبرى الأطوار لرسول الله في ربيع الأنوار...
- 101..... من مظاهر علو مقدار النبي ﷺ أن الله تعالى أقسم به، وأقسم له
- 103..... الفرح برسول الله ﷺ في ذكره من صميم الدين وجوهر الشريعة
- 104..... الصلاة والسلام على رسول الله عنوان الفرح والسرور، ودليل المحبة لنبي النور..
- 106..... الفرح بذكرى نبي الإفضال، استجابةً وامثال، لأمر الله ذي الجلال
- ذكرى رسول الله مناسبة لبعث الأمل من جديد، في نفوس الأخيار، بقرب زوال الأكدار،
- واندحار الأشرار، وعموم الأنوار على ما كان عليه الأمر في الماضي التليد. 106
- مع أوصاف التعريف بلسان رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: «إني عبد الله وخاتم
- النبين وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأخبركم عن ذلك دعوة أبي إبراهيم، وبشارة
- عيسى بي، ورؤيا أُمي التي رأت؛ وكذلك أمهات النبیین یرین» 109

- قيام رسول الله ﷺ بمهام النبوة الكبرى 110
- مع المقام الرفيع لسيدنا إبراهيم عليه السلام 111
- أسرار البشارة المزدوجة بنينا ﷺ 114
- لمح إلى معاني بعض أسماء رسول الله ﷺ 115
- اسم رسول الله ﷺ «أحمد» يرشد إلى جوهر شريعته 116
- رسالة رسول الله ﷺ رسالة تطهير بمنهاج العصمة، ورسالة تنوير ببصائر الحكمة 117
- رسالة رسول الله ﷺ أمل الخلاص، وبشارة الاختصاص، ونور الإرهاص... 118
- الرحمة لاتعني تضييع العدل 119
- نبي المتاب صلى الله عليه وسلم وعلى آله 122
- لمح إلى سر ختم التنزيل بخاتمة سورة التوبة 124
- نور الوصل بنبي الفضل 125
- أرجى آية في الكتاب، خصصت للبشارة بقبول المتاب 127
- مقام التوبة هو أول المنازل وما بعده مبني عليه 127
- تأكيد النبي ﷺ على الاستغفار في سيرته وشرعته 128
- الإرشاد إلى ما به الاغتسال من الذنوب والقرب من علام الغيوب 129
- الحاجة إلى التوبة تعم الجميع، مقصرين ومرتقين 130
- مقام توبة أئمة الهداية في القرآن الكريم 131
- تنبيه الصديق رضي الله عنه إلى معالم الخير ودلائل الحياة في الأمة 132
- الذكر المصفي باصطفاء المصطفى 135
- التكرار والاستمرار شرط الذكر المعبر 135
- بركة ذكر رسول الله 137
- مظاهر الاصطفاء لنبي الصفاء 139

- اصطفاء الله جل في علاه لأسماء نبيه ﷺ 140
- أسماء رسول الله مدخل لمعرفته 142
- المقاصد المرجوة من ذكر المخصوص بختم النبوة 143
- مقصد التولي 144
- مقصد التحلي 144
- مقصد التسلي 144
- مقصد التملّي 144
- في بيان تولي الله تعالى بنفسه الدفاع عن نبيه الكريم 145
- من الاسم الشريف إلى الوصف المنيف 146
- قسم التكريم في سورة القلم على تمام البراءة وجزالة العطاء لصاحب الخلق العظيم 146
- في بيان المؤهلين لمعرفة مقدار رسول الله ﷺ 147
- ذكر معاهد الثناء وموارد الاقتداء فيما يتصل برسول الله ﷺ 149
- مرحمته ﷺ 149
- جوده وكرمه ﷺ 149
- زهده ﷺ مع في حال السعة والوجد والحاجة والفقد 150
- تعلقه ﷺ بالله في كل حين وعلى كل حال 150
- حسن عشرته ﷺ 151
- المحور الثاني: نور السراج في حديث الإسراء والمعراج 153
- الاسراء والمعراج، ثالث الأطوار الكبرى في حياة صاحب الشريعة اليسرى ... 155
- المقصود بالإسراء والمعراج 155
- في كون الإسراء والمعراج كان بشخص رسول الله ﷺ روحاً وجسداً 156

- 156 في كون الإسراء والمعراج كان بشخص رسول الله ﷺ روحاً وجسداً
- 157 كيفية الإسراء والمعراج
- 157 الرموز والدلالات المصاحبة لرحلة الإسراء والمعراج
- 160 في مجيء حدث الإسراء والمعراج منصفاً لعمر الدعوة النبوية
- 168 في كونه من البيت الحرام إلا المسجد الأقصى ثم إلى السماوات العلا
- رحلة الإسراء والمعراج برد يقين على فؤاد رسول الله ﷺ وتخفيف لما لاقاه من
- 159 صنوف الاعتداء والبغضاء والافتراء
- 160 في مجيء حدث الإسراء والمعراج منصفاً لعمر الدعوة النبوية
- 161 دلالة رؤية رسول الله ﷺ للنيل والفرات في الجنة ضمن مشاهد الرحلة العزيزة
- 161 دلالة ما قدم للرسول الله من الأشربة وهو على أبواب العروج
- منحة الواهب الكريم ممثلة في فرض الصلاة على رسول الله وعلى أمته صلى الله
- 162 عليه وسلم وعلى آله
- 165 المحور الثالث: دروس الاعتبار من هجرة التأيد والانتصار للنبي المختار
- 167 (1) بصائر الهجرة النبوية في المواقف اللاحقة والأحداث المصاحبة
- 169 خروج المصطفى مهاجراً من مكة إلى المدينة إحياء لسنة الهجرة إلى الله
- 169 التضحية والبذل أساس نوال الترقية والفضل
- 171 التأريخ بعنوان الهجرة إرشاد إلى ملازمة أسباب العز والنصرة
- 172 المهاجر من هجر ما نهى الله عنه
- 172 أول وصية لرسول الله ﷺ بعد وصوله ﷺ إلى المدينة المنورة
- 173 التوجيه النبوي الأول «أفشوا السلام»
- 173 التوجيه النبوي الثاني «وأطعموا الطعام»
- 173 التوجيه النبوي الثالث «وصلوا بالليل والناس نيام»

- مظاهر حب الأنصار للنبي المختار ومن هاجر معه من الأخيار 174
- من دروس الهجرة دوام استعداد المنتسبين لجناح رسول الله ﷺ لتحمل كل الصعاب 174
- في أن الصلة بالله شرط النصر، وأن الابتلاء منه محفوف بالطف، ومُنْتَهٍ إلى سني القطاف 175
- (2) بصائر الهجرة النبوية في الدوافع المُرتَبَّة والمنافع المُرتَبَّة 177
- في أن الهجرة مخرج صدق ومدخل صدق 177
- الهجرة عنوان تدافع الحق والباطل، وصراع الخير والشر 179
- دعوة المصطفى ﷺ تبشير بالرفق المطلوب لجمع القلوب 181
- حاجة البشرية إلى بصائر الهجرة المرشدة 182
- من دروس الهجرة أن الباطل إلى زوال بمقتضى سنة الله ذي الجلال 183
- في أن سمات رسالة الدين صدق ورفق وعمق 183
- لا بد للأمة من قوة تصون الكرامة من أن تهدر وتحمي الصفو من أن يكدر... 184
- العزة الإيمانية ثمرة الانتماء الراشد 185
- (3) بصائر الهجرة النبوية في الانتقال من بناء الساجد إلى بناء المساجد، ومن تربية الإنسان إلى تأسيس الكيان 187
- سر مجيء الهجرة في منتصف عقد جهاد النبوة 187
- الهجرة بحث عن أرضية صالحة لحركة الأمة الناشئة 188
- محاوَر الاعتماد في جهود النبي بعد الهجرة 189
- آيات التوفيق في اختيار حدث الهجرة عنوانا لتاريخ المسلمين 190
- الهجرة تؤكد على ضرورة توثيق صلة الناس بربهم معرفة وإيماناً، وبكتابهم مدارس وتبياناً، وبيعضهم مودة وإحساناً 191

- 192 .. في فضل يوم عاشوراء وما حدث فيه من صنوف الاجتباء لجلة من الأنبياء ..
- 193 .. فضل صوم يوم عاشوراء.....
- (4) بصائر الهجرة النبوية في بناء دولة الإسلام على أسس الدوام، ودعائم القوام،
- 196 .. ومناهج التمام ..
- 196 .. الهجرة يوم من أيام الله ..
- 197 .. الصدق منطلق الإسلام وغايته ..
- 197 .. في أن الإسلام جاء لبناء الإنسان وتأسيس الكيان وتشديد العمران ..
- 198 .. في أن النبي ﷺ هاجر بعدما صدته العوائق عن إقامة صرح دولة العدل الفائق ..
- 199 .. المسجد الجامع مكان الوظائف الجوامع ..
- يجب على المسلمين أن يأخذوا بأسباب النصر التي يحملها حدث الهجرة في
- 200 .. دلالاته ..
- 201 .. الهجرة كانت منطلق تاريخ أمة نبي الرحمة للعالمين ..
- 202 .. بعض شهادات المستشرقين وغير المسلمين في حق الإسلام ونبي السلام ..
- 202 ... الإساءة إلى الجناح النبوي العلي من بعض أصحاب الخلق الرديي الدنيي ..
- 204 .. أسباب جرأة أهل التباب على رفيع الجناح ..
- 205 .. الحرية مقدورة ومعتبرة بشرط المسؤولية وفق القواعد المقررة ..
- فتوى الإمام مالك رضي الله عنه فيمن تناول على رسول الله ﷺ، وأنه لا بقاء
- 206 .. للأمة بعد شتم نبيها ..
- 207 .. محبة النبي من شعب الدين العليا ..
- 208 .. في أنه لا يتنقص الكمال ولا يعيب الجمال إلا مجرم وخسيس سيئ الخصال
- 209 .. الغيرة على الحرمات النبوية من علامة الإيمان ..
- 210 .. من الإساءة للنبي إشاعة الفرقة بين أبناء أمته ..
- 210 .. تسليط العدوان وتكريس الحرمان خصومة لنبي الأمان ﷺ ..

(5) بصائر الهجرة النبوية في ألم المحاصر المتحمّل، وأمل الصابر المتحمّل، وأفق

الوائق المؤمّل 211

ثنائية الألم والأمل في تاريخ الأمة 212

بالحجرة تحوّل النبي ﷺ من مُطارِدٍ مُهدد، إلى مرحّب به ومنصور مؤيد 212

دروس الهجرة هداية وتسديد على طريق الوراثة الحق 213

استهداف الأمة في تاريخها وذاكرتها من أجل القضاء على مقومات استمرار

وجودها 214

إحياء ذكرى الهجرة لتثبيت اليقين في قلوب أهل الإيمان في مواجهة كل صنوف

الظلم والبهتان 214

في بيان مقومات النصر الثلاثة 215

في أن الهجرة نصرٌ إلهيٌّ مباشر 216

غار ثور مستودع مصير رسالة الختم 217

وما يعلم جنود ربك إلا هو 218

رصد الجائزة لمن يأتي برسول الله ﷺ وصاحبه 219

من آيات الله الكبرى في حدث الهجرة، تلكم البشرى لسراقة بن مالك بلبس

سوارى كسرى 219

دعاء ورجاء 220

(6) تجليات السنن الإلهية في أحداث الهجرة النبوية 222

أولاً - من سنن الله في الوجود أن المبادئ لا تموت 222

ثانياً - كتب الله لكل دعوة تحرير أن يُقيَضَ لها نصير 222

ثالثاً - مرجع الحسم في كل تدافع هو اليقين والجزم، وحسن الفهم والعزم،

وليس العدة والكم 223

- 223 قد تكون الكثرة سببا لتخلف النصره
- 224 ذكر الأبواب الموصلة إلى معية رب الأرباب المستفادة من آية المعية
- 225 مكة بغير إشفاق
- 227 من بصائر الكتاب المبين أنه مع قاعدة «وإن كنا لمبتلين» قاعدة «وما كنا عن الخلق غافلين»
- 228 من سنن الله في تصريف شؤون الخلق، أنه يمهل ولا يهمل، وله في ذلك حكم وأسرار
- 228 من حكم الله في الإمهال اختبار يقين المؤمن في ذي الجلال
- 229 من حكم تصريف الله في المقادير أن يتهم المؤمنون أنفسهم بالتقصير
- 229 من حكم الله في أقضيته أن يتعبد المؤمنين بالصبر
- 230 أعداء الأمة لا يتوقفون عن كيدهم
- 230 عمل أعداء الأمة ضد التقاء الصحوة الإيمانية والثروة البانية الذي هو شرط نهضة الأمة
- 231 قراءة في راهن الفواجع والمواجع
- 231 الوهن الذي أصاب الأمة نتيجة للفراغ العقدي وللترويج لثقافة الاستسلام ..
- 232 توسلات وابتهالات
- المحور الرابع: تدبرات في قصار المفصل الذي خُصَّ به النبي المفضل ﷺ
- 237 1 - «سورة والتين» أو القسم المبين والسر المكين في سورة التين
- 237 فضل مدارس القرآن والاجتماع عليه في شهر تنزيله
- 238 مقاصد إنزال الكتاب إلى النبي الأواب
- 238 مدارس الكتاب في رمضان سنة نبوية لتحقيق مقاصد عليه

- سر الاختيار للسور القصار هو إسعاف جمهور المسلمين بما يكون لهم عوناً على
 فهم معانيه 239
- لا يليق بالمؤمن أن يقرأ القرآن بلسان فصيح وعقل أعجمي 239
- عدة قصار المفصل مع فاتحة الكتاب المنزل 240
- أصول المعاني الواجب استحضارها عند قراءة الفاتحة وخصوصاً في الصلاة .. 240
- أولاً: التعريف بالله 240
- ثانياً: بيان وجه الصلة بالمنعم ﷺ وأنها صلة حب وحمد 240
- ثالثاً: التعريف بالواسطة بين الله وخلقه ومرجع الصلة بهم 241
- رابعاً: إرشاد الراغب إلى أشرف المطالب 241
- قصار المفصل بدئت بقسم التمكين، وختمت بتلقين التحصين، وبينهما آيات
 التبيين 242
- توحيد القصد وبذل الجهد مفتاح اليسر وتحقيق الوعد 243
- «سورة التين»، سورة القسم المبين بالأماكن المقدسة وسرها المكين 244
- أربعة أقسام على خلق الإنسان في أحسن قوام ونظام 244
- القسم بالتين والزيتون قسم بأحسن طعام وأجود إدام، وهما أساس النماء وحفظ
 القوام 245
- القسم بـ «طور سينين» وبـ «البلد الأمين» قسم بمجلى أنوار التجلي ومشرق أنوار
 نبي الختم 246
- قسم سورة التين، قسمٌ مُشَوِّقٌ ومُؤَثِّقٌ 246
- الجهل هو سبب كل فتنة وشر، ومصدر كل ظلمة وضر 247
- الشعور الإيماني، والعمل الصالح الباني، سبب لمدد الله 247
- استفهام الاستنكار على أهل التكذيب والانكار 248

- ميزان الله لا يغفل وحكمته لا تسفل 248
- وقفة عند سنة المجاورة 249
- المضامين المُرَكَّبَة في سورة «والتين» المكية 250
- خلاصة المستفاد وزبدة الاستمداد 251
- تدبرات في قصار المفصل الذي خُصَّ به النبي المفضل 255
- 2 - «سورة العلق وسورة القدر» 255
- انسجام المطالع المُبَيَّنَة في سور العلق والقدر والبينة 255
- نسائم البركات في فاتحة الوحي تنزلاً 256
- النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام «ما أنا بقارئ» تجرداً من كل ادعاء ولم يقلها تمرداً على الدعاء 257
- آيات التكملة في سورة العلق ترشد إلى أن الطغيان هو الخطر الأكبر على ارتقاء الإنسان 258
- جزاء الطغيان، السفع بالنواصي والدفع في الأفاصي 259
- سر النجاة في السجود لا الصدود، وفي الممانعة لا المطاوعة 259
- تدبرات في قصار المفصل الذي خُصَّ به النبي المفضل ﷺ 264
- 3 - «من سورة البينة إلى سورة التكاثر» 264
- من خصائص المفصل أنه مكتنزة فيه جميع معاني القرآن 264
- من خصائص قصار المفصل أنه يحمل سمات المرسل به ﷺ 265
- ذكر بعض أسرار النظم في سور الختم الأتم 266
- النبي البينة جاء بالشرعية الصَّيِّنة لإصلاح الأوضاع وتقويم الطباع ورأب الأصداع 267
- سورة البينة تجلي صفة رسول الله ﷺ ووظيفته ووسيلته 267
- ضمان حفظ الكتاب إشعار بإمكان تكرار أثره 268

- خيرية الأمة مشروطة بالتصفية من شوائب الآثام والسيئات، والتركية بصنوف
- الأعمال الصالحات 269
- انتقال إلى سور أربعة موضوعها التذكير بأهوال القيامة المفزعة 269
- بيان وجه النظم في سور «الزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر» 269
- القبر معبر وليس مقر 270
- الجوامع للنظر الجامع 271
- سورة الزلزلة تتحدث عن الزلزال لإقامة العدل بميزان المثقال 271
- تسوية الأرض لتصبح مسرحاً للجزاء 273
- ميزان الله في يوم الفصل لا يغفل ولا يهمل، لأنه يقوم على العدل 274
- جاءت سورة العاديات فاصلاً بين الزلزلة والقارعة لسبب واصل 274
- لا بد للأمة من امتلاك القوة البانية لإقامة وجودها، والقوة الحامية لصيانة حدودها
- التنبية إلى أن صيانة الحدود تكون بدوام اليقظة وعدم الغفلة والشروء 275
- الجحود والكنود، والحرص بلا حدود، سبب الخسران في اليوم الموعود .. 276
- القوة للاحتراس وليس للافتراس 277
- الإرشاد إلى ما به النجاة من أسباب الفساد والخسران يوم التناد 277
- سورة القارعة تصف أحوال الناس بعد أهوال الزلزلة المفزعة 278
- سورة التكاثر تؤكد أن حرص الناس على الدنيا لا يخدم إلا بخمود الأنفاس 280
- تكررت «كلا» ثلاث مرات لتكرر المفاجآت ثلاث مرات 281
- المُسَاءَلَةُ عن النعيم 282
- تدبرات في قصار المفصل بمناسبة ذكرى تنزل الذكر على قلب النبي المفضل 283
- 4 - «من سورة التكاثر إلى سورة الناس» 283
- تنبيه إلى ختم السور الأربعة السابقة بمسألة الجزاء والحساب 283

- 284 ختم التزويل فرقانا بالأمر بالاستعداد ليوم الرجوع إلى الله
- 285 خمس سور في غاية الانسجام بين يدي مسك الختام
- 286 سورة العصر الكافية في باب الحجة على الخلق
- 286 الأعمدة الأربعة لقنطرة النجاة من الخسران
- 287 نموذج البغاة والطغاة والجفافة في سور «الهمزة» و«الفيل» و«الماعون»
- 287 الوعيد الشديد لأهل البغي من الهمازين للمازين
- 288 مسؤولية الكلمة وخطورة حصاد اللسان
- 289 وصية النبي ﷺ لسيدنا عقبة بن عامر
- 289 ثلاث وصايا كافية في باب الإخلاص
- 290 نموذج الطغاة وجزاءهم الوبيل كما في سورة الفيل
- 290 طير الأبابل تدك جيش أصحاب الفيل
- 291 سورة قريش تخبر أن إتلاف أصحاب الفيل كان من أجل إيلاف قوم النبي النبيل
- 292 إقامة الدين هو سر التأمين وسبيل التمكين
- 292 المنع الملعون كما وصفته سورة الماعون
- 294 ثلاثة لا يفعلهن الله
- 294 لا يهين اليتيم إلا الخاسر اللئيم
- 295 في أن الإطعام من أجل أفعال الخير في الإسلام
- 295 خلاصة المستفاد من السور الخمس
- 296 مسك التمام ولمحة الثمام في سور الختام
- 297 المنة بالنصر والإرشاد إلى أبوابه
- 298 الختم بالتحصين من الشر الظاهر والدفين بسر اسم الله ذي القوة المتين
- 300 معالم التكريم للمرأة في سيرة النبي الكريم ﷺ

- 300 علو مقدار زين المرسلين الأخيار ﷺ
- 301 القسم بثلاثة على ثلاثة
- 301 رسالة النبي ﷺ ومسلكه حُجَّتُهُ
- 302 سيرة المصطفى ﷺ ذكر محفوظ بما حُفِظ به الذكر
- 303 لا يمكن أن تكون ربانيا دون أن تكون محمديا
- 303 التوبة والصحة أصول الوصول إلى مقام المحبة
- 304 تحصيل مقام الصحة بدوام الاستحضار ومقام التوبة بدوام الاستغفار
- 306 التعريف برسول الله ﷺ تعريف بالإسلام
- 307 الأنموذج والمنهاج في سيرة السراج الوهاج
- 307 الأنموذج الأرضي
- 309 المنهاج المرتضى
- 310 النساء والرجال من أصل متحد، ومخاطبون بخطاب واحد
- 311 المرأة زوج الرجل، واختلافهما في الصفة لاختلافهما في الوظيفة
- 314 كمال مريم بالصدقية وكمال آسية بطلب العندية
- 314 الاستواء بين الذكر والأنثى في باب الإجابة والإثابة
- 315 عناية القرآن بشؤون الأسرة ورفعها إلى مقام العنوان في عدد من سورته
- 316 الإفصاح بأعلام نسائية في خطاب الإنذار والبلاغ
- 317 بعض مظاهر الرحمة في التشريعات الخاصة بالمرأة
- 318 النساء شقائق الرجال، والمفاضلة إنما تكون بحسب الامتثال والاعتزال
- 319 استوصوا بالنساء خيرا
- 320 الوعظ الحافز والزجر الحاجز عن السلوك الناشئ
- 321 في بيان أن الرجل والمرأة كلاهما مستخلف ومكلف

- الأصل المندرج لا يلغي الذكر المزدوج 328
- بيان مختصر لقول النبي ﷺ المشتهر «حب إلي النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة» 329
- تساوي الرجل والمرأة في التكاليف والأجزية 328
- استواء الرجل والمرأة في الآدمية 329
- نكتة لطيفة 330
- نماذج من السيدات اللاتي نبغن في ميادين العلم والحكمة 330
- أصل التساوي السابق لا يلغي ما بين الرجل والمرأة من الفوارق 332
- إحاطة النصيح بمرارة بالطفاف الإشارة 333
- التصدق والاستغفار يمحوا الخطايا ويحط الأوزار 334
- محبة النبي ﷺ تشمل الجميع لكنها تختلف باختلاف المحبوب 335
- بعض مظاهر الرحمة النبوية بالنساء 336
- وفي الختام 339
- فهرس الموضوعات 341

بسم الله الرحمن الرحيم